

قضيته الأخيرة



قضيته الأخيرة



للنشر و التوزيع



إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

الطبعة الأولى: مايو 2021م

رقم الإيداع: 2021/7948م

الترقيم الدولي: 978-977-85876-9-2

تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

العنوان: قضيته الأخيرة

ترجمة: سليمان ع. يوسف

تحرير: محمد الجيزاوي

تدقيق لغوي: عماد غزير

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار





قضيته الأخيرة



مغامرة بنسيون ويستيريا

الفصل الأول

التجربة الفريدة للسيد جون سكوت أيكلس

وجدتُ مدوَّنًا في دفتر مذكراتي أنه كان يومًا باردًا كئيبًا وعاصفًا إزاء نهاية شهر مارس من عام 1892، وكان هولمز قد تلقى برقية أثناء جلوسنا حول مائدة الغداء، لم يعقِّب على الموضوع، لكنَّه بقيَ في ذهنه، فقد وقف لاحقًا أمام الموقد وعلامات التفكُّر ظاهرة على وجهه، يدخِّن غليونه ويلقي نظرة على الرسالة بين الحين والآخر، ثم استدار نحويَ فجأة وعيناه تلتمعان ببريق عابث.

وقال: «أفترض يا واتسون أن علينا النظر إليك بصفتك أديبًا، فكيف تُعرِّف كلمة «جروتيسكيِّ»؟

فاقترحتُ: «غريب، استثنائي».

هزَّ رأسه ردًّا على تعريفي.

وقال: «هناك معانٍ للكلمة أكثر عمقًا من ذلك، إنها تحمل إيحاءً كامنًا بكل ما هو مأساوي ورهيب، وإذا رجعتَ بذاكرتكَ إلى بعض الحكايات التي آلمتَ بها جمهورًا طويل البال، فستدرِك كم أن معاني كلمة جروتيسكيٍّ متجذرةٌ في عُمق كل ما هو إجرامي. فكِّر في المسألة الصغيرة للرجال حُمر الشعر، فقد كانت جروتيسكيَّة بالحد الكافي في بدايتها، ومع ذلك انتهت بمحاولة سرقة يائسة. أو تَذكَّر مسألة الغلايين الخمسة البرتقالية الأعظم جروتيسكيَّةً، والتي قادت مباشرة إلى مؤامرة دموية. إن الكلمة لتستنفرني حقًّا!».

سألتُه: «أهي واردة في الرسالة؟»

فقرأ البرقية بصوت مرتفع.

«لقد خضتُ للتوِّ تجربةً غايةً في الإذهال والجروتيسكيَّة، هل لي أن أستشيرك؟

ـــــ سكوت أيكلس

مكتب بريد، تشيرينج كروس».

سألته: «رجلٌ أم امرأة؟»

– أوه، رجل بالطبع؛ فلن تُرسل امرأة برقية مدفوعةً أجرة الردِّ أبدًا، بل كانت لتأتي.

– هل ستراه؟

– يا واتسون العزيز، أنت تعرف كم أشعر بالضجر مذ وضَعْنا الكولونيل كاروثرز خلف القضبان. إنّ عقلي مثل محرك يتسارع ويكسِّر نفسه تكسيرًا، لأنه ليس موصولًا بالعمل الذي صُمم لإنجازه، فالحياة اعتيادية والجرائد قاحلة، ويبدو أن الجراءة والرومانسية قد غادرتا عالم الجريمة إلى الأبد. وتسألني بعد ذلك، ما إذا كنتُ مستعدًّا للنظر في مشكلة جديدة، مهما تبين أنها تافهة؟ لكن إن لم يخِب ظني، فها قد أتى عميلنا.

سُمع صوت خطوات منتظمة على السلالم، وبعد برهة أطلَّ على الغرفة شخص جسيم وطويل، ورماديُّ الشاربين وموقَّر على نحو مهيب. كان تاريخ حياته منقوشًا على ملامحه العميقة وطبيعته المختالة، وحتى نظَّاراته ذهبية الإطار. محافظٌ، وقسٌّ، ومواطن صالح، وتقليدي وعادي لأبعد حد. لكن تجربة ما قد أقلقت اتزانه الفطري، وتركت آثارها في شعره المنتفش، ووجنتيه المحمرَّتين الغاضبتين، وصورته المرتبكة المنفعلة، فدخل مباشرة في صلب الموضوع.

قال: «لقد خُضتُ تجربة شديدة الغرابة والبشاعة يا سيد هولمز، لم أوضَع في موقف كهذا طيلة عمري. إنه في قمة البذاءة والفُحش، وإني مصرٌّ على الحصول على تفسير ما». ثم انتفخ ونفخ غضبًا.

فقال هولمز بصوت مهدِّئ: «أرجوك تفضل بالجلوس يا سيد سكوت أيكلس، هل لي أن أسألك –في المقام الأول– عن سبب مجيئكَ إليَّ بأيِّ حال؟»

– حسنًا يا سيدي، لم يبدُ أنها مسألة تخص الشرطة، ومع ذلك، ستُقرُّ حين تسمع الحقائق بأنني لم أكن قادرًا على تركها وشأنها. إن المحققين الخصوصيين طبقة لا أتعاطف معها على الإطلاق، لكن مع ذلك، وكوني قد سمعتُ باسمك...

– معك حق، لكن –في المقام الثاني– لمَ لمْ تأتِ مباشرة؟

– ماذا تقصد؟

نظر هولمز إلى ساعته.

وقال: «الساعة الثانية والربع الآن، وقد وصلت برقيتك نحو الواحدة، ويمكن لكلِّ ناظرٍ إلى هندامك وبزَّتك معرفة أن اضطرابك بادئ منذ لحظة استيقاظك».

مشط عميلنا شعره الأشعث، وتحسس ذقنه غير الحليق.

«إنك محق يا سيد هولمز، فأنا لم أفكِّر في هندامي البتة، وذلك لأني كنت في غاية السرور لمجرد خروجي من منزل كهذا، لكنِّي كنتُ أُجري التحقيقات هنا وهناك قبل أن آتي إليك. ذهبتُ إلى وكلاء المنزل –أنت تفهمُ ذلك– وقالوا إن أُجرة السيد جارسيا مدفوعة بالكامل، وإن كل شيء على ما يُرام في بنسيون ويستيريا».

قال هولمز ضاحكًا: «على رسلكَ يا سيدي، إنك مثل صديقي الدكتور واتسون الذي من عادته سرد قصصه بالمقلوب. أرجو أن ترتب أفكارك وتخبرني بالضبط، وبالترتيب الصحيح، ما تلك الأحداث التي جعلتكَ مهملًا من دون أن تصفف شعرك، ومرتديًا حذاءً رسميًا، وصُدْرِيَّة مزرَّرة على نحو مائل، بحثًا عن الاستشارة والمساعدة».

«أجزمُ أن هذا لا بدَّ يبدو سيئًا جدًّا يا سيد هولمز، وإني لا أذكر حدوث شيء مشابه من قبل في حياتي كلها، لكني سأحكي لك القصة المريبة بأكملها، وأنا متأكد أنك ستقرُّ حينما أنتهي، بأن ما حدث عذرٌ كافٍ لي».

لكن قُضي على القصة في مهدها، إذ سمعنا جلبة في الخارج، وفتحت السيدة هدسون الباب لتقود فردين جلفَين ذوَي مظهر رسميٍّ إلى الداخل، كنا نعرف أحدهما جيدًا بصفته المفتش جريجسون من

قسم شرطة سكوتلاند يارد، وهو ضابط نشطٌ، وشجاع، وكُفؤٌ ضمن حدود سلطته. صافح هولمز وعرفنا إلى رفيقه المفتش باينز، من قسم سوري كونستابيولري.

«إننا على رأس مطاردة معًا يا سيد هولمز، وطريقنا من هذا الاتجاه»، ثم التفت بعينيه المتصيِّدتين إلى ضيفنا، «هل أنت السيد جون سكوت أيكلس، من برهام هاوس، لي؟»

– نعم، هذا أنا.

– لقد قضينا الصباح كلَّه في ملاحقتك.

قال هولمز: «وقد تعقبتماه عبر البرقية من غير ريب».

«تمامًا يا سيد هولمز، فقد التقطنا الأثر في مكتب بريد تشيرينج كروس وجئنا إلى هنا».

– لكن لمَ تلاحقانني؟ ماذا تريدان؟

– نرغب في الحصول على إفادتك يا سيد سكوت أيكلس، فيما يتعلق بالأحداث التي أفضتْ البارحة إلى موت السيد ألويشس جارسيا، المقيم في بنسيون ويستيريا، قُرب بلدة إِشَر.

جلسَ عميلنا بعينين جاحظتين ووجه مبهوت تنبعث منه ألوان الطيف كلها.

– مَيت؟ أقلتَ إنه ميت؟

– نعم يا سيدي، إنه ميت.

– لكن كيف؟ أحدث له حادث ما؟

– جريمة قتل، لا شك في ذلك.

– يا إلهي! هذا مريع! أتقصد.. أتقصد أنني مشتبه فيَّ؟

– عثرنا على رسالة منك في جيب الميت، وعرفنا منها أنك كنتَ قد خططتَ للمرور إلى منزله في الليلة الماضية.

– وهذا ما فعلت.

– أوه، لقد فعلتَ، أليس كذلك؟

وأخرج المذكرة الرسمية.

قال شيرلوك هولمز: «انتظر لحظة يا جريجسون، إن جلَّ ما ترغب به هو إفادة بسيطة، أليس كذلك؟»

– ومن واجبي تنبيه السيد سكوت أيكلس إلى أنها قد تستخدم دليلًا ضده.

– كان السيد أيكلس معتزمًا إخبارنا عن الأمر وقتما دخلتما الغرفة، وأعتقد يا واتسون، أن كأسًا من البراندي مع الصودا لن يضره. والآن يا سيدي، أقترح ألَّا تعير زيادة جمهورك هذه أي اهتمام، وأن تتابع حكايتك بالضبط كما كنت ستفعل لو لم تُجرَ مقاطعتك.

ابتلع ضيفنا البراندي واستعاد وجهه لونه، ثم غرق فورًا، بعد نظرةٍ مرتابةً إلى مذكرة المفتش، في إفادته الاستثنائية.

قال: «أنا عَزَب، ولكونيَ شخص اجتماعي فإنَّ لديَّ عددًا كبيرًا من الأصدقاء، ومن بينهم عائلة صانع بيرة متقاعد اسمه ميلفيل، تعيش عائلته في قصر أيبرمارل في كينسينجتون. التقيتُ على طاولته منذ عدة أسابيع شابًّا يُدعى جارسيا، وفهمتُ أنه من أصل إسباني وعلى صلة بالسفارة بطريقة ما. كان يتكلم الإنجليزية بإتقان، وكان لطيفَ الخُلُق، وأوسم رجل رأيته في حياتي!

وبطريقة ما نشأت بيني وبين وهذا الشاب علاقة صداقة حقيقية، فقد بدا أنه مولع بي منذ البداية، وزارني في «لي» بعد يومين من لقائنا، وتوالت الأحداث وانتهى الأمر إلى أن دعاني لقضاء بضعة أيام في منزله، بنسيون ويستيريا، بين إشَر وأوكسشوت، فذهبتُ البارحة إلى إشَر؛ تلبية لهذه الدعوة.

كان قد شرح لي وضع أسرته قبل أن أذهب إليه، إذ كان يعيش مع خادم مخلص، هو رجل ريفي من قومه يُعنى بكل احتياجاته ويتكلم الإنجليزية ويقوم بأعمال تدبير المنزل. ثم قال إن ثمة طباخًا ممتازًا من أبوين مختلفي الأصل صادفه في رحلاته، وإنه قادرٌ على تقديم وجبات عشاء ممتازة. أذكر أنه علَّق على غرابة إيجاد أسرة كهذه في قلب سوري، وأنني وافقته في ذلك، وإنْ تبيَّن أنها أغربُ بكثير مما ظننت.

انطلقتُ إلى المكان الواقع على بُعد ميلين تقريبًا جنوب إشَر، وكان المنزل كبيرًا إلى حد ما، وعلى مسافة قريبة من الشارع، وله مدخل منحنٍ مصفوفةٌ على جانبيه أشجار باسقة دائمة الخضرة. كان بناءً قديمًا متداعيًا في حالة جنونية من التَلَف. وحينما توقفت المركبة على المدخل المعشوشب أمام الباب المُبقَّع الذي أبهتَ الطقس ألوانه، ساورتني الشكوك حول حكمتي التي أرسلتني لزيارة شخص بالكاد أعرفه. فتح ليَ الباب بنفسه، وحيَّاني بضحكة أُلفة مرحبة، ثم لاقاني الخادم الذي كان رجلًا أسمر محزونًا وقاد الطريق إلى غرفة النوم حاملًا حقيبتي بيده. كان المكان كله مُكدَّرًا، تناولنا عشاءنا شخصًا لشخص، ومع أن مضيفي حاول ما بوسعه ليكون مسليًا، لكن بدت أفكاره مشوشة باستمرار، وكلامه مبهم وعمومي لدرجة أني بالكاد فهمته. كان ينقر بأصابعه على الطاولة طوال الوقت، ويقضم أظافره، وأظهر لي دلالات أخرى على قلقه وتوتره، حتى العشاء ذاته لم يكن مخدومًا على نحو لائق، ولا مطبوخًا جيدًا، ولم يُساعد الوجود القاتم للخادم الكتوم على إنعاشنا. أؤكد لك أنني ولعدة مرات على امتداد أمسيتنا تمنيت لو أمكنني خلق عذر ما والعودة إلى «لي».

يحضرني أمرٌ ما لعل له علاقة بالمسألة التي تحققان فيها أيها السيدان لم أفكِّر فيه حينها، فقد سلمه الخادم خطابًا قُرب نهاية عشائنا، ولاحظتُ أن مضيفي بدا أكثر تيهًا وغرابةً من ذي قبل بعدما انتهى من قراءته. هجرَ كل تظاهره في محادثتنا وجلس يدخن السيجارة عقب السيجارة ضائعًا في أفكاره، لكنه لم يُبدِ أي تعليق حول مضمونه. سرَّني الخلود إلى الفراش نحو الساعة الحادية عشرة، وبعد بعض الوقت وقف جارسيا على باب غرفتي، التي كانت معتمة آنذاك، وسألني إذا ما كنت قد ضربت الجرس، فأخبرته أني لم أضربه، فاعتذر عن إزعاجي في هذا الوقت المتأخر قائلًا إن الساعة قاربت الواحدة، ثم غلبني النعاس بعد هذا ونمت نومًا عميقًا طيلة الليل.

والآن بلغتُ الجزء المذهل من حكايتي. كان ضوء الشمس يعمُّ الأرجاء وقتما استيقظت. نظرت إلى ساعتي فوجدتها قرابة التاسعة، وكنتُ قد طلبتُ بالتحديد أن يناديني في الساعة الثامنة، لذا أذهلني نسيانُه، فوثبتُ واقفًا وضربت الجرس للخادم، ولم ألقَ استجابة، فضربته مرارًا وتكرارًا وكانت النتيجة

نفسها، فاستنتجت أن الجرس معطل. ارتديتُ ملابسي في عجلةٍ، وهرعتُ إلى الطابق السفلي في مزاج من أسوأ ما يكون لأطلب بعض الماء الساخن، ولك أن تتخيل دهشتي حين لم أجد أحدًا هناك. ناديتُ في الردهة ولم يُجب أحد، جريتُ من غرفة لغرفة فوجدتها كلها مهجورة. كان مضيفي قد دلَّني على غرفة نومه في الليلة السابقة، فطرقتُ بابه، ولا إجابة، فأدرتُ المقبض ودخلت، ووجدتُ الغرفة فارغة والسرير لم يُنَم فيه. رحل هو والبقية، المضيف الأجنبي، والخادم الأجنبي، والطباخ الأجنبي، كلهم اختفوا خلال الليل! وتلك كانت نهاية زيارتي إلى بنسيون ويستيريا».

كان شيرلوك هولمز يفركُ يديه ويضحك بخفوت لإضافته هذه الواقعة العجيبة إلى مجموعة حوادثه الغريبة.

وقال: «إن تجربتك لفريدة تمامًا بحسب ما عرفتُه حتى الآن، هل لي أن أسألك ماذا فعلتَ بعدها يا سيدي؟»

«كنتُ حانقًا، وأول فكرة مرَّت ببالي أني كنتُ ضحية مقلب سخيف، فحزمت أشيائي، وصفقتُ باب الردهة خلفي، وانطلقتُ إلى إشَر حاملًا حقيبتي بيدي. ثم زُرت مكتب الإخوة آلِن، كبار وكلاء الأراضي في القرية، ووجدت أن الفيلَّا قد أُجِّرت عن طريق شركتهم، فخطر لي أنه احتمال ضعيف جدًّا أن تكون الغاية من هذا الموقف هي الضحكُ عليَّ، وأن التهرُّب من دفع الإيجار كان هو الغرض الرئيس، فنحن في أواخر مارس ويوم الدفع صار قريبًا. لكنَّ هذه النظرية كانت باطلة، فقد كان الوكيل ممتنًّا لتحذيري إياه، لكنه أخبرني أن الإيجار مدفوع سلفًا. ثم مضيت إلى البلدة وعرَّجت على السفارة الإسبانية، فاكتشفت أن الرجل مجهول عندهم. ذهبتُ بعد هذا لرؤية ميلفيل، الذي التقيت في منزله بجارسيا للمرة الأولى، ففهمتُ أنه كان يعرفُ عن ميلفيل أقل مما أعرف أنا. وفي النهاية وردني ردُّكَ على برقيتي وجئتُ إليك، كونيَ سمعتُ أنك شخص يقدم المشورة في القضايا المستعصية. لكن الآن يا سيدي المفتش، أفهم مما قلتَه أن بإمكانكما متابعة المسألة، وأن مأساة ما قد حدثت. أؤكد لكما أنني لم أقل إلا الحقيقة، وأني عدا ما قلتُه لكما، لا أعرف شيئًا عن مصير الرجل على الإطلاق. إن رغبتي الوحيدة هي مساعدة القانون بأي وسيلة ممكنة».

قال المفتش جريجسون بنبرة وديِّة للغاية: «أنا متأكد من هذا يا سيد سكوت أيكلس، أنا متأكد منه، وإنني ملتزمٌ بإخبارك إن كل ما قد قلتَ يتوافق إلى درجة كبيرة مع الحقائق كما رأيناها، فمثلًا هناك الخطاب الذي وصل خلال العشاء، هل صادف أن رأيت ما حلَّ به؟»

– نعم رأيت، لقد لفَّه جارسيا ورماه في النار.

– ما رأيك في هذا يا سيد باينز؟

كان المحقق الريفي رجلًا جسيمًا، بدينًا أحمر الشعر، له وجه لم تُبرئه من الجلافة إلا عينان لامعتان على نحو استثنائي، مخفيتان تقريبًا خلف ثنيات خديه العميقة وحاجبيه. ابتسم ابتسامة متمهلة وأخرج من جيبه قصاصة ورق مطوية ومشوهة.

«كان على الموقد مِنصَبٌ للنار يا سيد هولمز، وكان قد قذفها بقوة زائدة، فوجدتها غير محروقة بالكامل».

ابتسمَ هولمز ابتسامة تقدير.

– لا بدَّ أنك فحصت المنزل بدقة شديدة لتجدَها.

– نعم فعلت يا سيد هولمز، فهذه طريقتي في العمل. أأقرؤها يا سيد جريجسون؟

هزَّ اللندنيُّ رأسه.

«الخطاب مكتوب على ورق مدموغ كريميٍّ عادي دون علامة مائية، وهي من قياس ربع الورقة، مشطورة على قصَّتَين باستخدام مقصٍ قصير الشفرة. طُويَت أكثر من ثلاث مرات وخُتمت بشمع بنفسجي، لكنه وُضع على عجلة ورُصَّ بأداة مسطحة بيضوية. الخطاب موجه إلى السيد جارسيا، بنسيون ويستيريا، ويقول:

> «ألواننا الخاصة، أخضر وأبيض. الأخضر مفتوح، والأبيض مغلق. الدرج الرئيس، الدهليز الأول، السابع إلى اليمين، جوخ أخضر.
>
> بالتوفيق.
>
> ـــــ د.

«إنه خط يد امرأة، كُتب باستخدام قلم حاد الرأس، لكن إما أن العنوان قد كُتب باستخدام قلم آخر أو بيدِ شخص آخر، فهو أثخن وأغمق كما ترى».

قال هولمز وهو ينظر إليه: «ملاحظة مهمة جدًّا، عليَّ أن أثني عليك لانتباهك إلى التفاصيل في معاينتك إياه يا سيد باينز. ثمة بضع نقاط ضئيلة ربما يمكن إضافتها، فالختم البيضوي أسطواني بسيط من غير ريب، وما غيره له شكل كهذا؟ والمقص مقصُّ أظافر محنيٍّ، فمع قِصر القصتَين يمكنك رؤية الانحناء البسيط نفسه بوضوح في كلتيهما».

ضحك المحقق الريفي ضحكة خافتة.

وقال: «اعتقدتُ أنني قد اعتصرتُ كلَّ ما يمكن اعتصاره منه، لكني أرى أن ثمة القليل بعد. يجب عليَّ القول إنني لم أستنتج شيئًا من الخطاب، إلا أن ثمة أمرًا ما علينا التعامل معه، وأن امرأة خلف الموضوع كالعادة».

كان السيد سكوت أيكلس قد تململ في جلسته أثناء المحادثة.

وقال: «يسرُّني إيجادك الخطاب، بما أنه يدعم قصتي، لكن اسمح لي أن أشير إلى أنني لم أعرف بعد ماذا حل بالسيد جارسيا ولا ما حدث لآل بيته».

فقال جريجسون: «أما عن جارسيا، فهذه إجابة يسيرة. قد وُجد ميتًا هذا الصباح في غابات أوكسفورد هيث، التي تبعد قرابة الميل عن منزله. كان رأسه محطمًا حتى صار عجينة تحت وقع ضربات ثقيلة سببها كيس رمل أو أداة مشابهة هشمته بدل أن تجرحه. المكان زاوية موحشة، ولا يوجد أي منزل على مدى ربع ميل منه، ويبدو أنه ضُرب من الخلف أولًا، لكن مهاجمه استمرَّ في ضربه طويلًا بعد وفاته. كان هجومًا في قمة العنف، ولم نجد آثار أقدام ولا أي رأس خيط يدل على المجرمين».

– هل تعرض للسلب؟

– لا، لم تحدث محاولة سلب.

قال السيد سكوت أيكلس بصوت متذمِّر: «هذا أليم للغاية، أليم وفظيع، لكنني مظلومٌ في هذا الأمر على نحو غريب، إذ لا علاقة لي بذهاب مضيفي في جولة ليلية وملاقاته حتفًا حزينًا كهذا، فكيف صرتُ جزءًا من القضية؟»

فأجابه المفتش باينز: «الأمر بسيط جدًّا يا سيدي، إن المستند الوحيد الذي عُثر عليه في جيب المتوفى هو رسالة منك تقول إنك ستكون معه في الليلة التي توفي فيها، وكان مظروف الرسالة هو ما عرَّفنا باسم الميت وعنوانه. وصلنا إلى منزله بعد الساعة التاسعة هذا الصباح ولم نجدك أنت أو أي شخص فيه، فأبرقتُ للسيد جريجسون ليقتفي أثرك في لندن بينما عاينتُ بنسيون ويستيريا، ثم قدِمتُ إلى البلدة وانضممت إلى السيد جريجسون، وها نحن أولاء».

قال جريجسون وهو ينهض واقفًا: «أعتقد أننا الآن قد وضعنا المسألة في أفضل إطار رسميٍّ ممكن، وعليك أن ترافقنا إلى القسم يا سيد سكوت أيكلس كي نأخذ إفادتك مكتوبةً».

«بالتأكيد، سآتي على الفور. لكنني أطلبُ خدماتك يا سيد هولمز، وأتمنى ألا توفّر جهدًا ولا تكلفة في سبيل الوصول إلى الحقيقة».

التفتَ صديقي إلى المفتش الريفي.

– أفترض أن لا اعتراض لديك على تعاوني معك يا سيد باينز، أليس ذلك صحيحًا؟

– نعم، يشرّفني جدًّا بالتأكيد يا سيدي.

– يبدو أنك قد كنتَ حثيثًا ونظاميًّا في كل ما فعلته، فهل لي أن أسألك ما إذا وُجدَ أي دليل عن ساعة وفاة الرجل بالضبط؟

– لقد كان موجودًا هناك منذ الساعة الواحدة تمامًا. هطلت أمطار قرابة ذاك الوقت، وكانت وفاته قبل هطولها بالتأكيد.

صاح عميلنا: «لكن هذا مستحيل تمامًا يا سيد باينز، فصوته لا يمكن إخطاؤه، ويمكنني أن أقسم إنه الشخص الذي خاطبني في غرفة نومي في تلك الساعة عينها».

قال هولمز مبتسمًا: «هذا غريب، لكنه ليس مستحيلًا على الإطلاق».

فسأله جريجسون: «هل التقطتَ رأس خيط؟».

«بحسب ما يظهر، فالقضية ليست معقدة جدًّا، وإن كانت تبدي بعض الملامح الغريبة والمثيرة للاهتمام، لكن من الضروري أن أعرف المزيد من الحقائق قبل أن أتجرأ وأعطي رأيًا حاسمًا ونهائيًّا. بالمناسبة يا سيد باينز، هل وجدتَ أي شيء غريب غير هذا الخطاب أثناء معاينتك المنزل؟»

نظر المحقق إلى صديقي نظرة غريبة.

وقال: «كان ثمة شيء أو شيئان غريبان للغاية، ربما قد تتفضل وتعطيني رأيك بهما بعد أن أنهي عملي في قسم الشرطة».

فقال هولمز وهو يرن الجرس: «إنني في خدمتك دائمًا. رافقي السادة إلى الخارج يا سيدة هدسون، وأرجو أن تتفضلي وترسلي الصبي ليبعث بهذه البرقية، وأخبريه أن يدفع خمسة شلنات ثمنًا للرد».

جلسنا صامتين لبعض الوقت بعد أن غادَرَ ضيوفنا. دخَّن هولمز بشراهةٍ وحاجباه مشدودان إلى عينيه الثاقبتين، ورأسه بارز إلى الأمام بالطريقة المتلهفة التي يتسم بها.

سألني مستديرًا نحوي بغتة: «إذن يا واتسون، ماذا تستنتج من الأمر؟»

– لا يمكنني استنتاج أي شيء من غموض سكوت أيكلس هذا.

– وماذا عن الجريمة؟

– حسنًا، بالنظر إلى اختفاء رفاق الرجل، عليَّ القول إنهم كانوا متورطين في جريمة القتل بطريقة ما وقد فروا من العدالة.

– هذه وجهة نظر محتملة بالتأكيد، لكن بحسب ما يظهر عليك الاعتراف أنه من الغريب جدًّا انخراط خادميه الاثنين في مؤامرة ضده ومهاجمتهما إياه في ذات الليلة التي استقبل ضيفًا فيها وقد كان وحيدًا تحت رحمتهما بقية ليالي الأسبوع كلها!

– لماذا فرَّا إذن؟

– تمامًا، لماذا فرَّا؟ تقبع هنا حقيقة كبرى، وتقبع الحقيقة الكبرى الأخرى في التجربة الاستثنائية لعميلنا سكوت أيكلس. والآن يا عزيزي واتسون، هل يفوق توفير تفسير يغطي كلتا هاتين الحقيقتين حدود العبقرية البشرية؟ وإذا ما كان تفسيرًا يحتمل الخطاب الغامض وصياغته العجيبة، حينها سيكون قبوله مستحقًا بصفته فرضية مؤقتة، وإذا توافقت الحقائق الجديدة التي سنعرفها مع المخطط، فحينها قد تتحول فرضيتنا شيئًا فشيئًا إلى حل.

– لكن ما هي فرضيتنا؟

تراجع هولمز في جلسته على كرسيه وأغمض عينيه نصف إغماضة.

– عليك الاعتراف يا واتسون العزيز أن فكرة كون الأمر مزحة، هي فرضية مستحيلة، فثمة أحداث جدية تجري كما أظهرت النتيجة، وخداع السيد سكوت أيكلس حتى يأتي إلى بنسيون ويستيريا له علاقة ما بها.

– لكن أي علاقة ممكنة؟

– دعني أحل الأمر حلقة حلقة. تبعًا للظواهر، ثمة شيء ما غير عادي في هذه الصداقة المفاجئة بين الإسباني الشاب وسكوت أيكلس، وكان الأول مَن فرض على الآخر مجاراته، فقد زار أيكلس في الطرف الآخر من لندن في اليوم التالي تمامًا للقائهما، وبقيَ على تواصل لصيق به حتى أتى به إلى إشَر، والآن، ماذا أراد من أيكلس؟ ما الذي يمكن لأيكلس تقديمه؟ لست أرى أي جاذبية في الرجل، فهو ليس لبيبًا على وجه الخصوص، أي ليس رجلًا يرجح أن يكون مواتيًا للاتينيٍّ حاد الذكاء، فلمَ اختيرَ إذن من بين كل من قابلهم جارسيا على اعتباره ملائمًا لغايته بالتحديد؟ هل يتمتع بأي خاصية متفوِّقة؟ أعتقد أنه يفعل. إنه نموذج تقليدي جدًّا عن البريطانيين المحترمين، والرجل بعينه الذي يؤثر في بريطاني آخر

حينما يكون شاهدًا، فقد رأيت بعينك كيف لم يدُر في خُلد أي من المحققَين التشكيك في إفادته رغم غرابتها.

– لكن علامَ كان شاهدًا؟

– على لا شيء مثلما اتضح، وعلى كل شيء لو أن الأمور قد سارت على نحو آخر. هذه هي قراءتي للمسألة.

– فهمت، ربما قد أثبت حجة غياب.

– تمامًا يا عزيزي واتسون؛ ربما قد أثبت حجة غياب. سنفترض، بداعي النقاش، أن سكان بنسيون ويستيريا حلفاء بطريقة ما، وسنقول إن المسعى –أيًّا كان– مقررٌ حدوثه قبل الواحدة تمامًا. من الممكن جدًّا، بقليل من التلاعب بالساعات، أن يكونوا قد أرسلوا سكوت أيكلس إلى سريره في وقت أبكر مما يظن، لكن في أي حال من المحتمل أن الساعة لم تكن قد تجاوزت الثانية عشرة في الحقيقة حينما بذل جارسيا جهده ليخبره أنها كانت الواحدة، ولو أن جارسيا تمكن من فعل ما كان عليه فعله، ثم العودة بحلول الساعة التي ذكرها؛ لكان لديه رد بليغ على أي تهمة تُوَجه إليه، وها هنا كان الرجل الإنجليزي النزيه مستعدًا للقسم في أي محكمة قانونية أن المتهم كان في المنزل طوال الوقت. لقد كان ضمانًا في حال حدوث أسوأ الاحتمالات.

– بلى، بلى، فهمت ذلك، لكن ماذا عن اختفاء البقية؟

– لم أحصل على كل الحقائق اللازمة بعد، لكني لا أظن أن ثمة أي صعوبات تعجيزية. مع هذا، سيكون من الحماقة أن تجادل ضد معطياتك، فستجد نفسك تلويها لا شعوريا لتلائم نظرياتك.

– والرسالة؟

– ما كان محتواها؟ «ألواننا الخاصة، أخضر وأبيض»، يبدو الأمر مثل سباق، «الأخضر مفتوح، والأبيض مغلق»، هذه إشارة بالتأكيد، «الدرج الرئيس، الدهليز الأول، السابع إلى اليمين، جوخ أخضر»، وهذا تكليف بالحضور. قد نجد زوجًا غاضبًا يقف خلف المسألة برمتها، ومن الواضح أن المسعى خطير، وإلا لما قالت «بالتوفيق» «د»، يجب أن يكون هذا دليلًا.

– الرجل كان إسبانيًّا، لذا أقترح أن «د»، يعني دولوريس، وهو اسم علم مؤنث شائع في إسبانيا.

– جيد يا واتسون، جيد جدًّا، لكنه مرفوض إلى حد ما، فإسبانيٌّ كان ليكتب إلى إسباني آخر بالإسبانية، وكاتب هذا الخطاب إنجليزي من غير ريب. حسنٌ، بينما يرجع إلينا هذا المفتش البارع لا يمكننا إلا تسلية أنفسنا بالصبر. وفي هذه الأثناء، يمكننا شكر حظنا السعيد الذي أنقذنا لبضع ساعات قصيرة من إعياء البطالة الذي لا يطاق.

وصل رد على برقية هولمز قبل عودة ضابطِ سوري، فقرأه وكان على وشك وضعه في مفكرته وقتما لمح وجهي المترقب، فمررها إليَّ ضاحكًا.

وقال: «إننا نتحرك في دوائر متعالية».

كانت البرقية قائمة فيها أسماء وعناوين.

اللورد هارينغبي، ذه دينغل؛ السير جورج فوليوت، أوكسفورد تاورز؛ السيد هاينز هاينز، جيه. بِّي، برودلي بليس؛ السيد جيمس بيكر ويليامز، فورتون أولد هول؛ السيد هِندرسون، هاي كيبل؛ المبجل جوشوا ستون، نيذر وولسلينج.

قال هولمز: «هذه طريقة بدهية جدًّا لحدِّ نطاق عملياتنا، ولا شك أن باينز بعقله المنهجيِّ قد اتَّبع خطة مشابهة ما».

– لست أفهم تمامًا.

– حسنٌ يا رفيقي العزيز، لقد توصلنا إلى استنتاج أن الرسالة التي تلقاها جارسيا على العشاء كانت موعد لقاء أو تكليفًا بالحضور، والآن، إذا ما كانت القراءة البديهية لها واضحة، وعلى المرء صعود درج رئيس، والبحث عن الباب السابع في الردهة لحضور الموعد، فمن الواضح تمامًا أن المنزل كبير جدًّا، وبالمثل من الأكيد أن هذا المنزل لا يمكن أن يكون بعيدًا أكثر من ميل أو اثنين عن أوكسشوت، بما أن جارسيا كان يمشي في ذاك الاتجاه آملًا، بحسب قراءتي للحقائق، أن يرجع إلى بنسيون ويستيريا في الوقت المناسب ليكسب لنفسه حجة الغياب، التي ستكون سارية حتى الساعة الواحدة فقط. وبما أن عدد المنازل الكبيرة القريبة من أوكسشوت يجب أن يكون محدودًا، اتبعت الطريقة البديهية بإرسال رسالة للوكلاء الذين ذكرهم سكوت أيكلس والحصول على قائمة بهذه المنازل، وها هيَ ذي في هذه البرقية، ولا بدَّ أن يكون الطرف الآخر من كُبّتنا المتشابكة في أحدها.

كانت الساعة قرابة السادسة وقتما وجدنا أنفسنا في قرية سوري الجميلة في إشَر، وكان المفتش باينز مرافقَنا.

كنتُ وهولمز قد أخذنا أغراضًا بغية قضاء الليلة، ووجدنا مأوًى مريحًا في نُزُل ذه بول. في نهاية المطاف، انطلقنا بصحبة المحقق في زيارتنا إلى بنسيون ويستيريا. كانت أمسية باردة ومظلمة من أمسيات شهر مارس، وكانت الريح باردة والمطر الخفيف يرشُّ وجوهنا، وهذا جو ملائم للمشاع البرِّي الذي عَبَره طريقنا، وللغاية المأساوية التي قادنا إليها.

الفصل الثاني

نمرُ سان بيدرو

في جو بارد وكئيب مشينا لمسافة ميلين إلى بوابة خشبية مرتفعة، تفتحُ على جادة قاتمة من شجرات الكستناء. قادنا الممشى المنحني المعتم إلى منزل خفيض. لاح من النافذة الأمامية على يسار الباب بصيص ذابل.

فقال باينز: «ثمة شرطي في المكان، سأطرق على النافذة». مشى عبر رقعة العشب ونقر بيده على لوح الزجاج، فرأيت رؤية خافتة عبر لوح الزجاج المضبب رجلًا يقفز واقفًا من على كرسي إلى جانب النار، وسمعت صيحة حادة من داخل الغرفة، وبعد لحظة فتح شرطي شاحب الوجه منقطعَ النفسِ الباب، والشمعة تتهدَّج في يده المرتعشة.

سأله باينز بحدة: «ما الأمر يا والترز؟»

مسح الرجل جبهته بمنديله وأطلق تنهيدة ارتياح.

– أنا مسرور لقدومك يا سيدي، لقد كانت أمسية طويلة، ولا أظن أن أعصابي سليمة مثلما كانت.

– أعصابك؟ لم أعتقد أنك تمتلك أعصابًا في جسدك يا والترز.

– إنه هذا المنزل الصامت الموحش يا سيدي، والشيء الوحشي الذي في المطبخ، ثم وقتما نقرتَ على النافذة اعتقدتُ أنه قد جاء مجددًا.

– ما الذي جاء مجددًا؟

– الشيطان يا سيدي –على حد علمي– لقد كان على النافذة.

– ما الذي كان على النافذة؟ ومتى؟

– حدث ذلك منذ نحو ساعتين فقط. كان الضوء بالكاد يخبو، وأنا جالس على الكرسي أقرأ، لستُ أدري ما الذي جعلني أرفع نظري، لكن كان ثمة وجه يحدق إليَّ عبر الزجاج السفلي. يا إلهي! يا سيدي، يا له من وجه! سأراه في أحلامي.

– ويحك يا والترز، هذا ليس كلامًا يصدر عن شرطي.

– أعرف يا سيدي، أعرف؛ لكنه هزَّني، ولا فائدة من إنكاره. لم يكن أسود، ولا أبيض، ولا بأي لون أعرفه، إنما كان عبارة عن طيف مُريب مثل طينٍ فيه لطخة حليب، ثم حجمه، لقد كان بضعف حجمك يا سيدي، ومنظره، بعينيه الكبيرتين المحدقتين الجاحظتين، وصف الأسنان البيضاء الشبيهة بأسنان وحش جائع. أأقول لك يا سيدي؟ لم يكن بمقدوري تحريك إصبع، ولا حتى التقاط أنفاسي، إلى أن أسرع بعيدًا واختفى. ركضتُ خارجًا باحثًا بين الشجيرات، لكنني أشكر الله أني لم أجده.

– لو لم أكن أعرف أنك رجل جيد يا والترز، لكان لزامًا عليَّ وضع علامة سوداء ضدك بسبب هذا، فلو كان الشيطان نفسه لا ينبغي مطلقًا على شرطي في الخدمة شكر الله لأنه لم يتمكن من القبض عليه. أفترض أن الأمر كله ليس رؤيًا وبعضًا من التوتر أليس ذلك صحيحًا؟

قال هولمز وهو يشعل فانوسه الجيبي الصغير: «هذا، على الأقل، يمكن حسمه بسهولة»، وأفاد بعد

معاينة قصيرة لحوض العشب: «بلى، أقول إنه حذاء نمرة اثنتي عشرة، وإذا ما كان هذا مقياس قدمه فلا بدَّ أنه كان عملاقًا بالتأكيد».

– ماذا حلَّ به؟

– يبدو أنه اخترق الشجيرات وتوجه نحو الطريق.

قال المحقق بوجه جادٍّ ومتفكِّر: «حسنًا، أيًا كان، ومهما كان ما يريد، فقد رحل في الوقت الراهن، ولدينا ما هو مستعجل أكثر لننشغل به. والآن يا سيد هولمز، بعد إذنك، سأصحبك في جولة داخل المنزل».

لم تعُد غرف النوم والجلوس المتعددة بأي نفع على البحث الدقيق، فعلى ما يبدو أن النزلاء إما أحضروا القليل أو لم يحضروا شيئًا معهم، وأنهم قد أخذوا كامل الأثاث حتى أدق تفاصيله مع المنزل. تُركت كمية كبيرة من الملابس التي تحمل طبعة ماركس وشركائه، في شارع هاي هولبورن. كانت التحريات التلغرافية قد أُجريت حقًّا، وأظهرت أن ماركس لم يعرف شيئًا عن زبونه إلا أنه كان يدفع بسخاء، وكان بين ممتلكاته الشخصية بعض الأشياء المتفرقة، وبعض الغلايين، وبضع روايات، اثنتين منها بالإسبانية، وطبنجة قديمة الطراز ذات خراطيش بارزة، وجيتار.

قال باينز وهو يتبختر من غرفة إلى غرفة والشمعة بيده: «لا شيء في كل هذه، لكن الآن يا سـيد هولمـز، أدعـوك أن توجه انتباهك إلى المطبخ».

كان المطبخ غرفة كئيبة عالية السقف في مؤخرة المنزل، في إحدى زاويتيها هودج من قش، يبدو وكأنه سرير للطباخ، وعلى الطاولة أكوام الأطباق نصف المأكولة والصحون الوسخة، ومخلفات الليلة المنصرمة.

قال باينز: «انظر إلى هذا، ما رأيك به؟»

أضاء بشمعته على شيء غير عادي منتصب خلف خزانة الأطباق، كان متغضنًا ومنقبضًا وذابلًا حتى ليصعب معرفة ما هو، ولا يمكن للمرء إلا أن يقول إنه كان أسود وذا جِلْدٍ، ويشبه جسدًا بشريًّا قزميًّا بعض الشيء. حينما فحصتُه في البداية، ظننتُ أنه طفلٌ زنجيٌّ محنَّط، ثم بدا قردًا ملتويًّا وقديما جدًّا، وبقيت في النهاية محتارًا ما إذا كان حيوانًا أم إنسانًا. كان ثمة طوق مزدوج من أصداف بيضاء مرصوفة حول وسطه.

قال هولمز وهو يحدق إلى هذه البقايا المشؤومة: «شائق جدًّا، شائق جدًّا حقًّا! أثمة أكثر من ذلك؟»

سار بنا باينز في صمت إلى المغسلة ورفع شمعته فوقها، كان ثمة أطراف جسمِ طائرٍ أبيض ضخم، ممزقة بطريقة وحشية والريش ما زال عليها ومبعثرة فوق المغسلة. أشار هولمز إلى العُرف على الرأس المقطوع.

وقال: «ديك أبيض، هذا مشوِّق جدًّا! يا لها من قضية نادرة جدًّا!».

لكن السيد باينز كان قد احتفظَ بعَرضه الأفضل للنهاية، فقد سحب من تحت المغسلة جردلًا من التوتياء يحتوي على كمية من الدم، ثم أخذ من الطاولة طبقًا كُوِّمت فيه قطع صغيرة من العظم

المحروق.

«شيء ما قد قُتل، وشيء ما قد حُرق. لقد نبشنا الرماد، واستشرنا طبيبًا هذا الصباح وقال إنها ليست بشرية».

ابتسم هولمز وفركَ يديه.

«عليَّ أن أهنئك أيها المفتش على حُسن تدبرك، قضية مميزة وتعليميَّة بهذا القدر، وإذا أمكنني قول هذا دون قصد الإساءة، فإن قدراتك تبدو أرفع منزلةً من فُرصك».

التَمعَت عينا المفتش باينز نشوةً.

– أنت محق يا سيد هولمز، إننا نَكْسدُ في المحافظات. قضية من هذا النوع من شأنها منح الرجل فرصة، وكلي أملٌ في أن أستغلها. ما رأيك في هذه العظام؟»

– أعتقدُ أنها عظام حَمَلٍ، أو صبي.

– والديك الأبيض؟

– عجيب يا سيد باينز، عجيب جدًّا، ويمكنني القول إنه يكاد يكون فريدًا!

– أجل يا سيدي، لا بدَّ أن بعض الأشخاص الغريبين جدًّا من أصحاب الطُرق الشاذة كانوا في هذا المنزل. أحدهم ميت، فهل تبعه رفاقه وقتلوه؟ إذا كانوا قد فعلوا ذلك فسنقبض عليهم، لأن كل المنافذ مراقبة، لكن رؤيتي الخاصة مختلفة، أجل يا سيدي، رؤيتي الخاصة مختلفة جدًّا.

– ألديك نظرية إذن؟

– وسأعمل عليها بنفسي يا سيد هولمز، فإن فِعل ذلك مردُّه إلى سُمعتي الخاصة وحسب. لقد حققتَ شُهرتَك، لكن ما زال عليَّ تحقيق شُهرتي، وسيسرُّني لو أمكنني أن أقول فيما بعد إني حللتها دون مساعدتك.

ضحك هولمز عن طيب خُلُق.

وقال: «حسنٌ، حسنٌ أيها المفتش، اتبِع سبيلك وسأتبع سبيلي، ونتائجي دائمًا طوع بنانك تمامًا إذا ما رغبتَ في طلبها مني. أعتقد أني قد رأيت كل ما أرغب برؤيته في هذا المنزل، وأن وقتي قد يكون أكثر إفادة إذا ما وظفتُه في مكان آخر. إلى اللقاء وحظًا موفقًا»

عرفتُ من عدد كبير من العلامات الدقيقة التي قد تكون غائبة عن انتباه أي شخص عداي، أن هولمز قد التقطَ أثرًا حاميًا، ورغم بروده المعهود للرَّائي العادي، كان ثمة تلهُّف مكبوت وإيحاء بالتوتر في عينيه المشرقتين وسلوكه الأكثر نشاطًا أكدا لي أن اللعبة كانت على قدم وساق. لم يقُل شيئًا كما جرت عادته، وكما جرت عادتي لم أسأل شيئًا. حسبيَ المشاركة في اللعبة وتوجيه مساعدتي المتواضعة إلى التقاط ذاك الدماغ المُنْكَبِّ دون تشتيته بأي مقاطعة غير ضرورية، فكل شيء سينتهي إليَّ في الوقت المناسب.

وهكذا انتظرتُ، لكني ولخيبتي الفادحة انتظرتُ سُدًى، فقد مرَّ اليوم تلوَ الآخر، ولم يُقدم صديقي على أي خطوة، وفي ذات صباح أمضاه في البلدة، عرفتُ بالصدفة أنه قد زار المتحف البريطاني، وعدا عن

هذه الجولة الوحيدة، فقد قضى أيامه في مشاوير طويلة وغالبًا منعزلة، أو في محادثات مع عدد من الثرثارين القرويين الذين كان قد تعرَّف عليهم.

وعلَّق قائلًا: «إني متأكد يا واتسون، أن أسبوعًا في الريف سيكون مفيدًا لك جدًّا؛ فمن السارِّ رؤية أُوَل النبتات الخضراء على الأسيِجَة وعسيل الصفصاف على أشجار البندق مرة أخرى، وثمة أيام تعليمية لنقضيها مع حبة بطاطا، وصندوق من الصفيح، وكتاب بسيط عن علم النباتات». وخرج للتجوُّل بصحبة هذه المعدات بنفسه، لكنه جلب معه عرضًا ضئيلًا من النباتات في المساء.

كنا نصادف المفتش باينز في نزهاتنا من حين لآخر، وكان وجهه البدين الأحمر يكلل نفسه بالابتسامات وعيناه الصغيرتان تبرقان حينما يُحيي رفيقي. لم يتكلم عن القضية إلا قليلًا، لكننا فهمنا من هذا القليل أنه لم يكن مستاءً أيضًا من سير الأحداث، ومع ذلك عليَّ أن أقرَّ بأنني تفاجأت قليلًا، بعد نحو خمسة أيام من الجريمة، عندما قرأت في جريدتي الصباحية بالأحرف الكبيرة:

«لُغز أوكسشوت

حلٌّ

اعتقال قاتل مأجور مزعوم»

وثب هولمز كما لو أنه لُدغَ حينما قرأت العناوين.

وصاح: «يا الله! أتقصد أن باينز قد نال منه؟»

فقلتُ بينما أقرأ التقرير التالي: «على ما يبدو».

«سبَّب خبرُ تنفيذ اعتقالٍ متعلق بجريمة قتل أوكسشوت في وقت متأخر من ليلة البارحة هياجًا عظيمًا في إشَر والمحلة المجاورة. يُذكر أن السيد جارسيا المقيم في بنسيون ويستيريا قد وُجد ميتًا فوق مشاع أوكسشوت، وعلى جثته آثار عنف مُفرط، وأن خادمه وطاهيه قد فرَّا في نفس الليلة، ما يظهر تورطهما في الجريمة. قيلَ إن السيد ربما كان يمتلك مقتنيات ثمينة في المنزل، وأن السلبَ هو حافزهما لاقتراف الجريمة، لكن ذلك لم يُثبت قط، ولم يَألُ المفتش باينز، القائم على القضية، جهدًا في اكتشاف مخبأ الفارين، وكان لديه سبب وجيه يدفعه للاعتقاد بأنهما لم يبتعدا، وإنما هما كامنان في ملجأ ما قد جهزاه مسبقًا. ومع ذلك كان مؤكدًا منذ البداية، أنهما سيُكتشفان في نهاية المطاف، فقد كان الطباخ –وفق شهادة حرفيٍّ أو اثنين لمحاه عبر النافذة– رجلًا ذا مظهر في شدة الغرابة، وذلك كونه هجينًا قبيحًا عملاقًا، له ملامحُ مصفرَّة من نمط زنجيٍّ واضح. شُوهد هذا الرجل بعد الجريمة، فقد رصده الشرطيُّ والترز وطارده في العشية نفسها، وقتما تجاسر وعاد لزيارة بنسيون ويستيريا. ولاعتبار المفتش باينز أن هذه الزيارة تحمل في طياتها غاية ما دون شك، وأنها بالتالي يُرجح أن تتكرر، هجر المنزل لكنه أبقى على كمين منصوب بين الشجيرات. وقد سار الرجل بقدميه إلى الفخ وقُبض عليه ليلة البارحة بعد تصارع تعرض فيه الشرطي داونينغ إلى عضة شديدة من قبل البربريِّ.

تبيَّن لنا أنه حينما يقف المعتقل أمام القضاة ستطلب الشرطة حبسًا احتياطيًّا، ونأمل حدوث تطورات عظيمة جراء هذا الاعتقال».

هتف هولمز وهو يلتقط قبعته: «علينا رؤية باينز حالًا، بالكاد سنلحق به قبل أن ينطلق». هرعنا عبر شارع القرية ووجدنا، مثلما توقعنا، المفتش قد خرج للتوِّ من مسكنه.

سألنا وهو يمدُّ يده بجريدة لنا: «أرأيت الجريدة يا سيد هولمز؟»

– نعم، يا باينز، لقد رأيتها، وأرجوك ألا تعتبره تخطيًا لحدود اللياقة إذا ما حذرتك تحذيرًا وديًّا.

– تحذير يا سيد هولمز؟

– لقد درستُ هذه القضية ببعض العناية، ولستُ مقتنعًا بأنك تسير على الطريق الصحيح. لا أريدكَ أن تأخذ الأمر على عاتقك إلى حد بعيد إلا إذا كنت مستيقنًا به.

– أنت طيب جدًّا يا سيد هولمز.

– أؤكد لك أنني أتكلم لصالحك.

بدا لي أن شيئًا يشبه غمزةً ارتعش للحظة على إحدى عيني السيد باينز الدقيقتين.

«لقد اتفقنا على أن يتبع كل منا طريقه الخاص يا سيد هولمز، وهذا ما أفعله».

فقال هولمز: «أوه، جيد جدًّا، لا تلُمني إذن».

– لا يا سيدي؛ أنا مقتنع أن نيتك طيبة تجاهي، لكن لكل منا نظامه الخاص يا سيد هولمز، فأنت لديك نظامك، وربما لدي نظامي.

– دعنا نوقف الكلام عن الأمر.

– أنت مرحب بك دائمًا لمعرفة أخباري. هذا الشخص بربريٌّ تمامًا، إنه قويٌّ مثل حصان عربة نقل، وعنيف مثل الشيطان. لقد كاد أن يبتر إبهام داونينغ مضغًا قبل أن يتمكنوا من السيطرة عليه. لا يعرف أي كلمة بالإنجليزية، ولم نستخرج منه سوى الهمهمات.

– وأنت تظنُّ أنك تملك دليلًا على قتله لسيده الراحل؟

– لم أقُل هذا يا سيد هولمز؛ لم أقُل هذا. لكل منا سُبُله الصغيرة، اسلك سُبُلك وسأسلك سُبُلي، هذا اتفاقنا.

هز هولمز كتفيه بينما مشينا مبتعدَين معًا. «لا يُمكنني إقناع الرجل، يبدو أنه سيجلب لنفسه المتاعب. حسنٌ، كما قال، على كل منا تجربة طريقته الخاصة، ليرى إلامَ توصله، لكن ثمة شيئًا في المفتش باينز لا يمكنني فهمُه تمامًا».

قال هولمز وقتما عُدنا إلى غرفتنا في نُزُل ذه بول: «اجلس على الكرسي يا واتسون، أريد أن أطلعك على مجريات الوضع، فقد أحتاج إلى مساعدتك الليلة. دعني أعرض عليك تطور هذه الحالة إلى الآن بحسب ما استطعتُ متابعتها. لقد ظهرت عراقيل مفاجئة فيما يتعلق بإجراء اعتقال، وثمة ثغرات في ذلك المنحى ما زال علينا سدُّها.

سنرجع إلى الخطاب الذي سُلم إلى جارسيا عشية وفاته. يمكننا تجاوز فكرة باينز القائلة إنَّ خادمي جارسيا كانا متورطين في المسألة، وإثبات هذا يكمن في حقيقة أنه هو مَن رتَّب لوجود سكوت أيكلس، الأمر الذي لا يُمكن أنه أُجريَ إلا لغاية تأمين حجة غياب. هذا يعني إذن أن جارسيا هو مَن كان لديه مشروع إجراميٌّ في تلك الليلة، وقد لاقى حتفه في غضونه، وأقول «إجرامي» لأن رجلًا لديه مشروع إجرامي هو فقط من يرغب بحجة غياب. من على الأرجح قتلهُ إذن؟ الشخص الذي كان المشروع الإجرامي موجهًا ضده بالتأكيد. حتى الآن يبدو أننا على بر الأمان.

يمكننا الآن رؤية سببٍ لاختفاء آل بيت جارسيا، فقد كانوا جميعهم شركاء في الجريمة المجهولة ذاتها، ولو أنها نجحت وقتما عاد جارسيا، لرُدت أي شبهة محتملة بشهادة الرجل الإنجليزي، وكل شيء كان على ما يرام. لكن المحاولة كانت محاولةً خطرة، وإن لم يعُد جارسيا بحلول ساعة محددة؛ فمن المحتمل أنه قد ضحى بحياته، وهكذا كان مرتبًا له، أنه في حالة كهذه على خادميه الاثنين المضي إلى نقطة مرتبة مسبقًا، حيث يمكنهما الفرار من التحقيقات والتجهز لتجديد محاولتهما لاحقًا، ما من شأنه تفسير الحقائق بأكملها، أليس كذلك؟»

بدا التشابك كلُّه يتضح أمامي، وتساءلتُ، كالعادة، كيف لم يكن ذلك واضحًا لي قبلُ؟

– لكن لماذا عاد أحد الخادمَين؟

– يمكننا تصوُّر أن شيئًا ما ثمينًا قد نُسي في معمعة الفرار، شيء لا يمكنه الابتعاد عنه، وهذا سيفسر حرصه، أذلك صحيح؟

– حسنًا، ما الخطوة التالية؟

– الخطوة التالية هي الخطاب الذي تلقاه جارسيا على العشاء، إنه يشير إلى وجود حليف في الطرف الآخر. والآن، أين كان الطرف الآخر؟ لقد أريتكَ مسبقًا أنه لا يمكن أن يكون إلا في منزل ضخم ما، وأن عدد المنازل الضخمة محدود. كانت أيامي الأولى في القرية مكرسة لسلسلة من المشاوير استكشفت في طياتها أثناء أبحاثي في علم النباتات كل المنازل الضخمة وعاينت تواريخ عائلات الساكنين. ثمة منزل واحد، وواحد فقط، اجتذب انتباهي، وهي العزبة اليعقوبية القديمة الشهيرة في هاي كيبل، البعيدة نحو ميل على الطرف القصي لأوكسشوت، وأقل من نصف ميل عن مسرح المأساة. بقية القصور ملك لأشخاص محترمين عاديين يعيشون بمعزل بعيدًا عن الرومانسيات. لكن كل الروايات دلَّت على كون السيد هندرسون القاطن في هاي كيبل رجلًا غريب الأطوار تحدث له مغامرات غريبة، وبناء على ذلك ركزت انتباهي عليه وعلى آل بيته.

إنهم مجموعة غريبة من الناس يا واتسون، والرجل نفسه هو الأغرب بينهم. تدبرتُ رؤيته بعذرٍ مقبول، لكن بدا لي أني قرأت في عينيه الداكنتين الغائرتين إدراكه التام لغرضي الحقيقي. هو رجل في الخمسين، قوي ونشط وذو شعر كثيفٍ أشيَب، وحاجبان أسودان كثيفان مجتمعان، يخطو كغزال، ويتصرف كإمبراطور، رجل ضار مستبدٌّ له روحٌ مشتعلة خلف وجهه الرقيق، وإما أنه أجنبي، وإما أنه عاش وقتًا طويلًا في المناطق الاستوائية، فهو أصفر وشاحب، لكنه شديد مثل وتر القوس. صديقه وسكرتيره، السيد لوكاس، أجنبي بلا ريب؛ فهو بني داكن، وخبيث، لبقٌ وشبيه بالقط، وذو كياسة

خطابٍ سامة. كما ترى يا واتسون، لقد صادفنا مجموعتين من الأجانب حقًّا، واحدة في بنسيون ويستيريا، وواحدة في هاي كيبل، وهكذا تبدأ فجواتنا بالانغلاق.

هذان الرجلان صديقان مقربان وموثوقان، وهما لبُّ الأسرة؛ لكن ثمة شخصًا واحدًا آخر قد يكون أكثر أهمية لغرضنا. لهندرسون ابنتَان: واحدة في الحادية عشرة، وواحدة في الثالثة عشرة، ومربيتهما هي الآنسة بورنيت، سيدة إنجليزية في الأربعين أو نحو ذلك، وثمة أيضًا خادم مؤتمن واحد. تشكل هذه المجموعة الصغيرة العائلة الحقيقية، فهم يسافرون معًا. والسيد هندرسون كثير السفر دائم الحركة. لم يرجع إلى هاي كيبل إلا في الأسابيع الماضية بعد عام من الغياب، أضفْ إلى ذلك أنه فاحش الثراء، وقادر على تلبية نزواته بسهولة شديدة مهما كانت. أما عن البقية، فمنزله يعجُّ بالسقاة والخدم والخادمات، والطاقم المعتاد المتخم قليل العمل لمنزل إنجليزي ريفيٍّ ضخم.

عرفت كل هذا جزئيًّا من شائعات القرية، وجزئيًّا من مراقبتي الخاصة، ولا توجد أدوات أفضل من الخدم المسرَّحين ذوي المظلَمَة، وقد حالفني الحظ في إيجاد واحد منهم. أدعوه حظًا، لكنه ما كان ليعبُر طريقي لو لم أكن أبحث عنه، فكما علَّق باينز، لكل منا نظامه، وقد كان نظامي ما مكنني من إيجاد جون وارنر، البستاني الأخير في هاي كيبل، مطرودًا جراء نوبة انفعال أصابت ربَّ عمله المستبدَّ، وكان له بدوره أصدقاء بين الخدم في الداخل الذين يوحدهم بغض سيدهم وخشيته؛ وهكذا حصلتُ على مدخلي إلى أسرار المبنى.

قوم غريبون يا واتسون! لستُ أدَّعي أني قد فهمت كل شيء بعد، لكنهم قوم غريبون بأي حال. المنزل مزدوج الأجنحة، يعيش الخدم في جانب، والعائلة في الآخر، ولا توجد صلة بين الاثنين إلا خادم هندرسون الخاص، الذي يقدم وجبات العائلة. كل شيء يأتي من باب معيَّن وهو الصلة الوحيدة. نادرًا ما تخرج المربية والطفلتان إلا إلى الحديقة. لا يمشي هندرسون مطلقًا وحده، فسكرتيره الداكن مثل ظله. تقول الشائعة بين الخدم إن سيدهم مذعور بشدة من شيء ما، ويقول وارنر: «باع روحه للشيطان مقابل المال، ويتوقع أن يأتي دائنه، ويطالب بما هوَ له». أما عن هويَّتهم أو أصولهم، فلا أحد يملك أدنى فكرة. إنهم عنيفون للغاية، فقد جلَد هندرسون قومه مرتين بسوط كلابه، ولم يقف بينه وبين المحاكم إلا ماله الطائل وتعويضاته الوافرة.

حسنًا، والآن يا واتسون، دعنا نحكم على الوضع وفق المعلومات الجديدة هذه. يمكننا تصوُّر أن الرسالة قد صدرت عن هذه العائلة الغريبة وكانت دعوة لجارسيا ليشرع بمحاولة ما خُطط لها مسبقًا، لكن من كتب الخطاب؟ شخص ضمن القلعة بالطبع، وهي امرأة. من إذن سوى الآنسة بورنيت المربية؟ يبدو أن كل استنتاجنا يشير إلى هذا الاتجاه. على أي حال، يمكننا اعتبار الأمر فرضية ثم نرى ما يترتب عليها من عواقب. أضف إلى ذلك أن سن الآنسة بورنيت وشخصيتها يجعلان فكرتي الأولى القائلة إن علاقة حب قد تكون متدخلة في قصتنا غير واردة على الإطلاق.

إذا كانت قد كتبت الخطاب فيُفترض أنها صديقة جارسيا وحليفته. ماذا يُتوقع إذن أنها قد تفعل إذا ما سمعت بوفاته؟ لو أنه لاقى حتفه في خضم مشروع شرير ما فقد تُبقي شفتيها مطبقتين، لكنها رغم ذلك، ستحمل في قلبها مرارة وكرهًا للذين قتلوه ويُفترض أنها ستساعد بكل استطاعتها لتحصل على

انتقامها منهم، فهل يمكننا لقاؤها إذن، ومحاولة الاستفادة منها؟ هذه كانت فكرتي الأولى، لكن هنا نواجه حقيقة مشؤومة؛ إذ لم تلمح عينٌ بشرية الآنسة بورنيت منذ ليلة الجريمة، فقد اختفت تمامًا مذ تلك الأمسية. فهل هي حية؟ أم هل عساها لاقت حتفها في ذات الليلة مثل الصديق الذي استدعته؟ أم أنها أسيرة؟ هذه هي النقطة التي ما زال علينا تقريرها.

أنت تعي صعوبة الوضع يا واتسون، فلا نملك شيئًا يمكننا طلبُ مذكرةٍ على أساسه، ومخططنا قد يبدو تخيليًّا إذا ما عُرض على قاضٍ. لا يعني اختفاء المرأة شيئًا، فأي فرد قد يختفي أسبوعًا في ذاك المنزل غير العادي، وقد تكون حياتها الآن في خطر. جلَّ ما يمكنني فعله هو مراقبة المنزل والإبقاء على عميلي، وارنر، في وضعية الحراسة عند البوابة، وإذا ما كان القانون عاجزًا فعلينا المخاطرة بنفسينا.

– ماذا تقترح؟

– أعرف أي واحدةٍ هي غرفتها، ويمكن الوصول إليها من فوق سطح المرحاض الخارجي. أقترح أن نذهب معًا الليلة ونرى ما إذا كان بمقدورنا إصابة صميم اللغز تمامًا.

لا بدَّ أن أعترف أنها لم تكن بادرة وجذابة جدًّا، فقد اجتمع على إخماد شعلة حماسي كلٌ من المنزل القديم، وجو القتل الذي يكتنفه، وسكانه الغريبين المرعبين، والأخطار المجهولة للاقتراب منه، وحقيقة أننا كنا نضع أنفسنا في موقف خاطئ قانونيًّا. لكن ثمة شيئًا ما في استنتاج هولمز البارد جعل التقاعس عن أي مغامرة قد يقترحها أمرًا مستحيلًا. فإن المرء ليعرف أنه هكذا، وهكذا فقط، يمكن إيجاد حل، فقبضتُ على يده بصمت، وقُضي الأمر.

لكن لم يكن مقدرًا أن يلاقي تحقيقنا نهاية مُغامِرة، فقد كانت الساعة قرابة الخامسة، وظلال مساء مارس قد بدأت في الحلول، وقتما هرع قرويٌّ منفعل إلى غرفتنا.

«لقد رحلوا يا سيد هولمز، لقد غادروا على متن القطار الأخير. لكن السيدة قد فرَّت منهم، وها هيَ معي في عربة أجرة في الأسفل».

فهتف هولمز واثبًا على قدميه: «رائع يا وارنر! الثغرات تنغلق بسرعة يا واتسون».

كان ثمة امرأة جالسة في العربة، نصف منهارة جراء الإجهاد العصبي، تحمل على وجهها المنهك علامات مأساة حديثة، ورأسها متدلٍ بخمول فوق صدرها، لكن حينما رفعَتْه رأيتُ أن بؤبؤ عينيها كانا نقطتين داكنتين في مركز القزحية الرمادية الواسعة، لقد كانت مُخدَّرة باستخدام الأفيون.

قال المندوب، البستاني المطرود: «راقبتُ البوابة، مثلما أوصيتني يا سيد هولمز، وعندما خرجت العربة تبعتُها إلى المحطة. كانت كمَن يمشي في نومه، لكن حينما حاولوا حملها على ركوب القطار دبَّت الحياة فيها وقاومت، فدفعوها إلى المقصورة، لكنها قاتلتْ وخرجت مجددًا، ففصلتها عنهم وأدخلتها إلى عربة أجرة، وها نحن هنا. لن أنسى الوجه الذي رأيته على نافذة المقصورة وأنا أقودها بعيدًا، وستكون حياتي قصيرة إذا ما سنحت له الفرصة. ذاك الشيطان الأصفر الكالح أسود العينين».

حملناها إلى الطابق العلوي، ومددناها على الكنبة، وسرعان ما رفع قدحان من أقوى أنواع القهوة الغشاوة والمخدِّر عن دماغها. كان هولمز قد استدعى باينز، وشرح له الوضع بسرعة.

قال المفتش بحرارة وهو يصافح صديقي: «عظيم يا سيدي، لقد حصلتَ على الدليل الذي أريده بذاته، فقد كنتُ أقتفي الأثر نفسه منذ البداية».

– ماذا! أكنتَ تلاحق هندرسون؟

– نعم يا سيد هولمز، وقتما كنتَ تزحفُ بين شجيرات هاي كيبل، كنتُ متسلقًا إحدى الشجرات في المزرعة ورأيتكَ تحتي. كان الأمر حول من سيحصل على الدليل أولًا فقط.

– إذن لمَ اعتقلت الهجين؟

ضحك باينز ضحكة خافتة.

«كنتُ متيقنًا أن هندرسون، كما يدعو نفسه، راوده شعور بأنه مشتبه به، وأنه سيتوارى عن الأنظار ولن يُقدم على أي حركة ما دام يظن أنه في خطر من أي نوع، فاعتقلت الرجل الخاطئ لأحمله على الظن أننا لا نراقبه. عرفتُ أنه في الغالب سيغادر بسرعة حينها؛ مانحًا إيانا فرصة للإمساك بالآنسة بورنيت».

وضع هولمز يده على كتف المفتش.

وقال: «ستصل في عملك إلى مراتب عليا، إنك تمتلك الغريزة وسرعة البديهة».

تورَّد وجه المفتش بهجةً.

«لقد زرعتُ رجلًا يرتدي ملابس عادية لينتظر في المحطة طوال الأسبوع، وسيُبقي قوم هاي كيبل تحت نظره أينما ذهبوا. لكن لا بدَّ أنه وجد الأمر عسيرًا عليه وقتما فرَّت الآنسة بورنيت. على كلٍ، لقد التقطها رجلُكَ وانتهى كل شيء نهاية جيدة. فلا يمكننا تنفيذ اعتقال دون شهادتها، وهذا واضح، لذا كلما تعجَّلنا في الحصول على إفادتها كان أفضل».

فقال هولمز وهو ينظر إلى المربية: «إنها تزداد قوة في كل دقيقة، لكن أخبرني يا باينز، من هو هذا الرجل هندرسون؟»

أجاب المفتش: «هندرسون هو دون موريلو، الذي كان يُدعى سابقًا نمر سان بيدرو».

نمرُ سان بيدرو! عاد تاريخ الرجل بأكمله إلى ذهني في لمحة بصر. كان قد ذاع صيته بصفته أكثر الطغاة الذين حكموا أي بلاد مُتظاهرين بالتمدُّن إقذاعًا وتعطُّشًا للدم. قويٌّ، وجسور، ونشط، ولديه ما يكفي من الخصال ليستطيع فرض رذائله الكريهة على أُناس جُبناء لعشر أو اثنتي عشرة سنة. كان اسمه يسبب الذُعر على امتداد أمريكا الوسطى بأسرها. قامت في نهاية ذلك الزمن ثورة عارمة ضده، لكنه كان داهيةً مثلما كان وحشيًّا، وعند أول همسة حول شغبٍ مُحدق نقل كنوزه سرًّا على متن سفينة يحرسها أتباعه المخلصون. كان القصرُ فارغًا حينما اقتحمه المتمردون عليه في اليوم التالي، فقد أفلتَ الدكتاتور وابنتاه وسكرتيره وكل ثروته منهم، ومنذ تلك اللحظة اختفى من العالم، وكانت هويته مادة أخبار متكررة في الصحافة الأوروبية.

قال باينز: «أجل يا سيدي، دون موريلو، نمرُ سان بيدرو، وإذا ما بحثتَ ستجد أن ألوان سان بيدرو هي الأخضر والأبيض، كما ذُكر في الخطاب يا سيد هولمز. أطلق على نفسه اسم هندرسون، لكني اقتفيت

أثره من جديد، إلى باريس وروما ومدريد وصولًا إلى برشلونة، حيث رسَت سفينته في عام 1886. كانوا يبحثون عنه طوال الوقت سعيًا وراء انتقامهم، لكن لم يستطيعوا اكتشافه حتى الآن».

قالت الآنسة بورنيت، التي كانت قد جلستْ وصارت تستمع إلى المحادثة باهتمام شديد: «لقد اكتشفوا أمره منذ سنة، وحاولوا قتله مرة قبل ذلك، لكن روحًا شريرة ما حمَته. والآن مرة أخرى، سقط هذا النبيل الشهم جارسيا، بينما خرج منها الوحش سالمًا. لكن سيأتي غيره، ثم غيره، حتى تتحقق العدالة يومًا ما؛ وهذا مؤكد مثل إشراقة شمس الغد». وانقبضت يداها، وابيضَّ وجهها المرهق من حرارة كراهيتها.

فسأل هولمز: «لكن كيف انخرطتِ في المسألة يا آنسة بورنيت؟ كيف يمكن لسيدة إنجليزية الاضطلاع في أمر دموي كهذا؟»

«شاركتُ لأن لا طريقة أخرى في العالم يمكن إحقاق الحق بها، فماذا يهمُّ القانون الإنجليزي في أنهار الدم المهروقة منذ سنوات في سان بيدرو، أو في حمولة السفينة من الكنوز التي سرقها الرجل؟ هي عندكم بمكانة جرائم ارتُكبت في كوكب آخر، لكننا نعلم، لقد عرفنا الحقيقة في الألم والبؤس. أما عندنا فلا يوجد شيطان في الجحيم مثل خوان موريلو، ولا يوجد سلام في الحياة ما دام لا يزال ضحاياه يطالبون بالانتقام».

قال هولمز: «لا شكَّ أنه كان مثلما تقولين، فقد سمعتُ أنه كان شنيعًا، لكن ما أثرُ هذا عليك؟»

«سأخبرك بكل شيء. كانت سياسة هذا المجرم تقتضي قتل كل رجل يُظهر أملًا في أن يصير لاحقًا منافسًا خطرًا له بذريعة أو بأخرى، وكان زوجي – أجل، اسمي الحقيقي السنيورة فيكتور دوراندو – ممثل سان بيدرو في لندن، قد التقينا وتزوَّجنا هناك. لم يعِش على هذه الأرض رجل أكثر منه نبلًا، ولسوء الحظ، سمع موريلو عن امتيازه، واستدعاه ليرجع بحجة ما، ثم أمر بإطلاق النار عليه. كان مستشعرًا مصيره لذا رفض أن يأخذني معه، وصُودرت أملاكه ولم يبقَ لي إلا مرتب ضئيل وقلب مكسور.

ثم سقط الطاغية، وهربَ كما شرَحتَ، لكن لم يكن الكثيرون ممن خرَّب حيواتهم، وممن عانى أقرباؤهم وأحبابهم العذاب والموت على يديه، ليتركوا المسألة تمرُّ بسلام، ووحدوا أنفسهم في جماعة لن تُحلَّ حتى تنقضي الغاية. كان دوريَ –بعد اكتشافنا أن الباغي الساقط قد بدَّل مظهره إلى هندرسون– هو إلصاق نفسي بأسرته وإبقاء البقية على دراية بتحركاته، وتمكنت من فعل هذا بتأمين منصب المربية في عائلته. لم يكُن يعرف أن المرأة التي تجلس وجهًا لوجه أمامه عند كل وجبة طعام، هي المرأة التي أرسلَ زوجها إلى العالم الآخر. كنت أبتسم في وجهه، وأقوم بواجباتي تجاه بناته، وأنتظر الفرصة المناسبة. أُجريت محاولة في باريس وفشلت، فسِرنا في خطوط متعرجة حثيثة هنا وهناك عبر أوروبا للتخلص من المُطاردين، وعُدنا في نهاية المطاف إلى هذا المنزل، الذي قد اتخذه عقب وصوله الأول إلى إنجلترا.

لكن سُفراء العدالة كانوا بانتظاره هنا أيضًا، فقد كان جارسيا، وهو ابن كبير أعيان سان بيدرو السابق –لعلمه أنه سيرجع إلى هنا– ينتظره برفقة شريكين موثوقين من منزلة متواضعة، وثلاثتهم

تؤججهم دوافع الانتقام ذاتها. لم يكن قادرًا على فعل الكثير خلال النهار، إذ كان موريلو محتاطًا جدًّا ولم يخرج قط إلا مع مرافقه لوكاس، أو لوبيز كما كان يُدعى في أيام عزِّه. أما في الليل، فقد كان ينام وحيدًا، ويمكن للمنتقم إيجاده. وذات مساء مخطط له مسبقًا، أرسلتُ التعليمات النهائية لصديقي، فقد كان الرجل متأهبًا دائمًا ويغير غرفته باستمرار. كانت مهمتي مراقبة ما إذا كانت الأبواب مفتوحة أم مغلقة وإرسال إشارة من ضوء أبيض أو أخضر من نافذة مواجهة للطريق للدلالة على ما إذا كان الطريق آمنًا أم من الأفضل تأجيل المحاولة.

لكن كل شيء سار على نحو خاطئ معنا، فقد أثرتُ شك السكرتير لوبيز بطريقة ما، فتسلَّل من خلفي، ووثب عليَّ بمجرد انتهائي من كتابة الخطاب. فجرَّني وسيده إلى غرفتي وحكما عليَّ باعتباري خائنة مُدانة، وكانا ليغرزا سكينيهما فيَّ لو أمكنهما تدبّرُ أمر التملّص من عواقب الفعلة. أخيرًا، وبعد الكثير من الجدال، توصلا إلى أن قتلي أمر خطير جدًّا، لكنهما عزما على التخلص من جارسيا إلى الأبد، فقاما بخنقي، ولوى موريلو ذراعي حتى أعطيتهما العنوان، وأقسم أني ما كنتُ لأفعل ذلك، حتى لو لواها حد تمزيقها، لو أني فهمتُ ما عاقبة ذلك على جارسيا. وجَّه لوبيز الخطاب الذي كتبتُه، وختمه بختمه الأسطواني، وأرسله بيد الخادم خوسيه. لا أعرف عن قتلهم له إلا أن يد موريلو هي التي صرعته، لأن لوبيز قد بقي لحراستي. أعتقد أنه كَمَنَ منتظرًا بين شجيرات القُندُولِ التي ينعطف الطريق خلالها، وأرداه حينما عبَر. التقى رأيهما في البداية على أن يتركاه يدخل المنزل، ثم يقتلاه على أنه لصٌّ قُبض عليه؛ لكنهما تجادلا حول كون انخراطهما في تحقيق سيؤدي إلى إعلان هويتهما الحقيقية جهارًا، ما سيعرضهما إلى هجمات إضافية، لكن المطاردة قد تتوقف بعد موت جارسيا، بما أن موتًا كهذا قد يُفزع الآخرين عن المضيِّ في المهمة.

لولا معرفتي بما اقترفاه لكان كل شيء يسير على ما يرام. لا شكَّ لديَّ أن أوقاتًا قد مرَّت كانت حياتي فيها على المحكِّ، فقد كنتُ مقيدة في غرفتي، مُروَّعة بأبشع التهديدات والوحشيَّة وسوء المعاملة؛ لتحطيم إرادتي – انظر إلى هذه الطعنة على كتفي والكدمات من أدنى ذراعيَّ حتى أقصاها – وقد حُشرت كِمامة في فمي في المرة الوحيدة التي حاولت فيها الصراخ من النافذة. استمرَّ هذا الحبسُ الوحشي لخمسة أيام، بكميات من الطعام بالكاد تكفي لتماسُك جسدي وروحي، وفي هذه الظهيرة أُحضرت لي وجبة غداء جيدة، لكن في اللحظة التالية لتناولي إياها عرفتُ أنني قد خُدِّرت. أتذكر في شيء يشبه الحلم أنِّي دُفعت إلى العربة نصفُ مساقة نصف محمولة؛ ونُقلت إلى القطار في الحالة نفسها، وآنذاك فقط، وقتما كادت العجلات تتحرك، أدركتُ فجأة أن حريتي في يديَّ وحسب، فقفزت خارجًا، وحاولا جرِّي إلى الداخل مجددًا، ولولا مساعدة هذا الرجل الطيب، الذي قادني إلى عربة الأجرة، لما كنت قد فررتُ البتة. والآن، حمدًا لله، لقد صرت بعيدة عن سطوته إلى الأبد».

كنا جميعنا منصتين باهتمام شديد لهذه الإفادة الاستثنائية، وكان هولمز مَن كسَر الصمت.

فقد عقَّب وهو يهز رأسه: «لم تنتهِ متاعبنا، فعملنا الشرطيُّ قد انتهى، لكن بدأ عملنا القانونيُّ».

قلتُ: «بالضبط، فإن محاميًا قيِّما قادر على إثبات كون الأمر دفاعًا عن النفس. ربما ثمة مئة جريمة مستترة، لكن لا يمكن محاكمتهما إلا على هذه».

قال باينز بمرح: «رويدكَ، رويدكَ، إن ظني بالقانون أحسن من هذا، فالدفاع عن النفس شيء، واستمالة رجلٍ بدم بارد بغية قتله شيء آخر مهما كان الخطر الذي تخشاه من طرفه. لا، لا يجب أن نكون كلنا معفيين قانونيًا حينما نرى نزلاء هاي كيبل في محاكمة غيلدفورد أسيزيس التالية.

صارت مسألة في ذمة التاريخ، ومع ذلك، ما يزال على بعض الوقت الانقضاء قبل أن يلاقي نمرُ سان بيدرو المصير الأسود الذي ينتظره. بخُبث وجراءة، تخلصا من مطاردهما بدخولهما نُزُلًا في شارع إدمونتون ثم الخروج من بابه الخلفي إلى ساحة كورزون. بعد نحو ستة أشهُر، قُتل كل من مَركيز مونتالفا وسكرتيره السنيور رولي، في غرفهما في فندق إسكوريال في مدريد. أُعزيت الجريمة إلى الحركة العدمية، ولم يُعتقل القتَلَة قط. زارنا المفتش باينز في بيكر ستريت حاملًا تصويرًا مطبوعًا لوجه السكرتير الداكن، وملامح سيده السلطوية، وعينيه الساحرتين، وحاجبيه المزججين، فعرفنا أن العدالة لا شك أخذت مجراها وإن كانت متأخرة.

قال هولمز أثناء تدخينه غليونًا مسائيًّا: «إنها قضية فوضوية يا عزيزي واتسون، ولن يكون بإمكانك سردها بهذا الأسلوب المتماسك العزيز إلى قلبك. إنها تمتدُّ إلى قارتين، وتخص مجموعتين من الأشخاص الغامضين، ويزيد من تعقيدها الحضور الكريم جدًّا لصديقنا سكوت أيكلس، الذي يُظهر لي إدخاله في القصة أن الراحل جارسيا كان ذو عقل ماكرٍ وغريزة حفظ جيدة الإعداد. الاستثنائي في الأمر هي حقيقة أننا وفي خضمِّ غيضٍ وافرٍ من الاحتمالات، تمكنَّا ومعاوننا المفتش الجديد، من إبقاء قبضتنا محكمة على الأساسيات؛ وهكذا وُجهنا على طول الطريق المائل المتعرِّج. هل هناك أي نقطة ليست واضحة تمامًا لك؟»

– ما الغرض من عودة الطباخ الهجين؟

– أعتقد أن المخلوق الغريب في المطبخ قد يفسر ذلك، فالرجل كان بربريًّا بدائيًّا من غابات سان بيدرو النائية، وكان ذلك طقسه الوثني. وقتما فرَّ ورفيقه إلى ملجأ مجهز مسبقًا، يسكنه حليف ما دون شك، أقنعه رفيقه بضرورة التخلي عن هذا الشيء الريشي المشبوه، لكن قلب الهجين بقي معه، وسيَّره في اليوم التالي لاسترجاعه فوجد آنذاك –أثناء استطلاعه عبر النافذة– الشرطي والترز في المكان، فانتظر ثلاثة أيام إضافية حتى دفعه ولاؤه أو معتقده الخرافي إلى المحاولة ثانية. أما المفتش باينز، الذي بفطنته المعتادة، قد قلل من قيمة الحادثة أمامي، كان في الحقيقة يدرك أهميتها، لذا نصبَ فخًّا ليسير إليه المخلوق برجليه. أثمة نقطة أخرى يا واتسون؟

– الطير الممزق، وجردل الدم، والعظم المحروق، وكل غموض المطبخ الشاذ؟

ابتسم هولمز بينما بحث عن تدوينة في مفكرته.

«أمضيتُ صباحًا في المتحف البريطاني أقرأ حول ذاك، وحول نقاط أخرى، وإليك اقتباس من كتاب «الودونية والديانة الزنجية» بقلم إكرمان:

«لا يحاول عابد الودونية الحقيقي فعل أي شيء دون القيام بتضحيات معينة؛ بنية استرضاء آلهته القذرة. في الحالات المستفحلة تأخذ هذه الشعائر شكل تضحيات بشرية يعقبها أكل للحوم البشر.

الضحية الأكثر شيوعًا هي ديك أبيض، تُجتث أطرافه حيًّا، أو معزاة سوداء تُحزُّ رقبتها وتُحرق عظامها».

وهكذا ترى أن صديقك البربريَّ كان تقليديًّا جدًّا في طقوسه. إن الأمر جروتيسكيٌّ يا واتسون»، وأضاف هولمز بينما ربط مذكرته بأناة، «لكن ومثلما عقَّبتُ ذات مرة، لا تفصل بين الجروتيسكيِّ والفظيع إلا خطوة!».

مغامرةُ الصندوقِ الكرتونيِّ

عندما يتعلق الأمر بانتقاء بضع قضايا تقليدية، تظهر قدرات صديقي شيرلوك هولمز الذهنية الاستثنائية، لطالما سعيتُ إلى اختيار تلك القضايا التي تقدم الحد الأدنى من المبالغة في الإثارة، بينما تمنح مواهبه الحيِّز الذي ينصفها، لكن فصلَ ما هو مثير عمَّا هو إجراميٌّ أمرٌ مستحيل تمامًا ومؤسف جدًّا، ما يضع المؤرخ أمام معضلةٍ ما إن كان عليه التضحية بتفاصيل جوهرية في روايته، فيعطي بذلك انطباعًا مغلوطًا عن المسألة، أو أن عليه استخدام المحتوى الذي يمدُّه به الحظ لا الخيار. بهذه المقدمة الموجزة، سأنتقل إلى ملاحظاتي حول ما تبيَّن كونه سلسلة أحداث نادرة، وإنْ كانت مروعة على نحو غريب!

كان يومًا ملتهب الحرارة من أيام أغسطس، وكان شارع بيكر ستريت أشبه بفرن! ووهج الشمس على القرميد الأصفر للمنزل المقابل موجع للعيون. يصعب تصديق أن تلك الجدران هي ذاتها التي كانت تلوح بكآبة عبر ضباب الشتاء. كانت ستائرنا نصف منسدلة، وأنا وهولمز راقدان على الأريكة نقرأ رسالة تلقاها عبر البريد الصباحي مرارًا وتكرارًا. فأما عن نفسي، فقد روَّضتني مدة خدمتي التي قضيتها في الهند على تحمل الحرارة أكثر من البرودة، ولم يكن في ميزان حرارة يُشير إلى تسعين درجة أي مشقة! الصحيفة الصباحية كانت مُضجرة، فقد انفضَّ البرلمان، وغادر الجميع البلدة، كنتُ أتوق إلى فُسحة في حديقة نيو فوريست أو شواطئ ساوث سي الحصويِّة، لكنَّ حسابي المصرفيَّ الناضب جعلني أؤجل إجازتي، أما عن رفيقي، فلم يستهوِه الريف ولا البحر ولو قليلًا، إذ كان يعشق الترقب وسطَ خمسة ملايين شخص، مرسلًا قرونَ استشعاره؛ لتتخللهم، فيستجيب لكل إشاعة أو شُبهة صغيرة تشير إلى وجود جريمة غير محلولة. لم يجد تقدير الطبيعة مكانًا بين مواهبه المتعددة، وكان التغيُّر الوحيد الذي طرأ عليه عندما حوَّل انتباهه عن أشرار البلدة؛ ليقتفي أثر أخيه في الريف.

رأيت هولمز مستغرقًا في أفكاره؛ فأدركت أنه غير مستعد لإجراء محادثة، فألقيت الصحيفة الجدباء جانبًا، واسترخيت في جلستي على الكرسي مستغرقًا في التفكير. وفجأة، جاء صوت صديقي قاطعًا حبل أفكاري:

«أنت محق يا واتسون، إنها تبدو حقًّا أكثر الطرق تعذرًا لتسوية جدال».

هتفت: «حقًّا، الأكثر تعذرًا!»، ثم أدركت بغتة أنه قد ردد أعمق أفكار نفسي، اعتدلت في جلستي وحدقت إليه في ذهول تامٍّ.

وصحت: «ما هذا يا هولمز؟! هذا يفوق أي شيء كنت لأتخيله».

ضحك ملء قلبه من ارتباكي.

وقال: «أتتذكر عندما قرأتُ عليك فقرة من إحدى قصص «إدجار آلان بو» حيث يستقرئ مفكر دقيق أفكار صديقه الباطنة، كُنتَ حينها ميالًا إلى اعتبار الموضوع كله مجرد خيال ابتدعه المؤلف، وعندما علقتُ بأني معتادٌ على فعل ذات الشيء طوال الوقت أظهرتَ عدم تصديقك».

– لا، لا أذكر ذلك!

– ربما لم ينطق لسانك بذاك يا عزيزي واتسون، لكنَّ حاجبيك قد فعلا ذلك؛ لذا حينما رأيتك ترمي صحيفتك وتغرق في حبل أفكارك، أسعدني جدًّا أن أحظى بفرصة لقراءتها واقتحامها في النهاية، كإثبات لك على انسجامنا.

لكنني كنت غير مقتنع، وقلت: «في المثال الذي قرأته عليَّ، استلهم المفكِّر استنتاجاته من أفعال الرجل الذي كان يراقبه، وإن لم تخُني الذاكرة، فقد تعثر بكومة من الحجارة، ونظر إلى النجوم، وهلمَّ جرًا. لكني كنتُ جالسًا بهدوء على كرسيّ، فأيَّ أفكار قد منحتُك؟»

– أنت تظلم نفسك، فإن ملامح الإنسان جُعِلَت ليُعبر عن انفعالاته، وملامحك تخدمك في ذلك تمامًا.

– أتقصد القول إنك قرأت حبل أفكاري من ملامحي؟

– من ملامحك وعينيك خاصة. ربما أنت ذاتك عاجز عن تذكر كيف بدأ حلم يقظتك.

– هذا صحيح.

– إذن سأخبرك.. بعد أن ألقيتَ صحيفتك، وهو الفعل الذي شدَّ انتباهي إليك، جلستَ نصف دقيقة صفرَ التعابير، ثم حدَّقت إلى صورة الجنرال غوردون –خاصتك– المؤطَّرة حديثًا، ورأيتُ من تبدُّل وجهك أن سلسلة أفكارٍ قد بدأت. لكنها لم تذهب بك بعيدًا جدًّا، فقد مرت عيناك على صورة هنري وارد بيتشر الشخصية غير المؤطرة التي كانت منتصبة فوق كتبك، ثم ألقيت نظرة على الحائط، وكان مقصدك واضحًا بالتأكيد، إذ كُنتَ تفكر في أنه لو أُطِّرت الصورة؛ فستملأ الفسحة الخالية وتتناغم مع صورة غوردون هناك.

هتفتُ: «لقد استقرأتني استقراءً مذهلًا!».

«إلى هذا الحد بالكاد أمكنني أن أضل الطريق، لكن رجعتْ أفكارك بعدها إلى بيتشر، وكنتَ تُحدق إليه بتمعُّن كما لو أنك تدرس الشخصية الكامنة خلف ملامحه. ثم اختفى تغضُّن عينيك، لكنك تابعت النظر، وبدا على وجهك الاستغراق في التفكير. كنتَ تستذكر وقائع سيرة بيتشر، وكُنتُ مدركًا أنك عاجز عن فعل هذا دون التفكير في المهمة التي قامَ بها لمصلحة الشمال في زمن الحرب الأهلية، لأنني أذكر تعبيرك عن سخطك المتَّقد إزاء الطريقة التي استقبله بها أكثر شعبنا عصفًا، وكنت أعرف أن قوة مشاعرك تجاه القصة ستمنعك من التفكير ببيتشر دون التفكير بها أيضًا. وبعد هنيهة رأيتُ عينيك تبتعد عن الصورة، فشككت أنك بتَّ تفكِّر في الحرب الأهلية، وحينما لاحظت تصلُّب شفتيك، وتلألؤ عينيك، وانقباض يديك تأكَّد شكِّي في أنك تفكِّر حقًّا في البسالة التي أبداها كلا الطرفين في ذلك القتال الطاحن. لكن بعد ذلك، تعاظم الحزن على وجهك، وهززت رأسك. كنتَ ساهمًا في الحزن والذعر وضياع الحياة دون جدوًى. انسلَّت يدك ناحية إصابتك القديمة واختلجت شفتاك بابتسامة، ما أظهر لي أن الجانب السخيف من نهج تسوية القضايا العالمية هذا قد طغى قسرًا على تفكيرك، وفي هذه النقطة وافقتكَ في أنها كانت طريقة متعذرةً وسرَّني معرفة أن جلَّ استنتاجاتي كانت صحيحة».

قلت: «بالتأكيد! والآن بعدما فسرتَ الأمر، أعترف بأني مذهول بقدر ما كنتُ قبلًا».

– أؤكد لك أن هذا كان سطحيًّا جدًّا يا عزيزي واتسون، ولم أكن لأتطفل على انتباهك لو لم تُظهر بعض الشكِّ في ذلك اليوم. لكني ممسكٌ بيدي هنا بقضية صغيرة قد يتبيَّن أن حلها أكثر صعوبة من تجربتي الضئيلة في قراءة الأفكار. ألاحظت في الصحيفة مادةً صغيرةً تَذكُر محتويات غريبة أُرسلت في طرد عبر البريد للآنسة كوشينج، القاطنة في كروس ستريت كرويدون؟

– كلا، لم أرَ شيئًا.

– آه! إذن لا بد أنك قد أغفلتها. اقذفها إليَّ، ها هيَ ذي، في العمود الماليِّ. عسى أن تتكرَّم وتقرأها بصوت مرتفع.

التقطتُ الصحيفة التي ألقى بها إليَّ مرة أخرى وقرأت المادة التي أشار إليها. كان عنوانها: «طردٌ مروِّعٌ».

«كانت الآنسة سوزان كوشينج، القاطنة في كروس ستريت، كرويدون، ضحية لما لا بدَّ من اعتباره مقلبًا مقززًا على نحو غريب، في حال لم يثبت ارتباط غاية ما أكثر خبثًا بالحادثة. ففي الساعة الثانية من ظهر الأمس، سلَّمها ساعي البريد طردًا صغيرًا مغلفًا بورق بنِّي. كان بداخله صندوق كرتونيِّ مملوء بالملح الخشن. وعندما فرَّغته، ذُعرت الآنسة كوشينج لرؤية أذنَين بشريَّتين يبدو أنهما بُترتا حديثًا. كان الصندوق قد أُرسل من دائرة الطرود البريدية في بلفاست صباح اليوم السابق. لم يكن ثمة ما يدل على المرسِل، وما يزيد الأمر غموضًا أن الآنسة كوشينج سيدة عزباء في الخمسين من عمرها تعيش حياة في قمة الانعزال، وليس لديها إلا قلة قليلة من المعارف، وجهات التراسل مما يجعل تلقيها أي شيء عبر البريد حدثًا نادرًا. لكنها أجَّرت غرفًا من منزلها وقتما أقامت فيه منذ بعض السنوات في بنغ لثلاثة طلاب طبٍّ يافعين، اضطرت لاحقًا إلى التخلص منهم، لضجيجهم وعاداتهم الشاذة. يعتقد الشرطة أن هؤلاء الشباب ربما يكونون مرتكبي هذه الفظاعة في حق الآنسة كوشينج، لأنهم يكنُّون ضغينة لها، وأرادوا إفزاعها بإرسال مخلفات غرف التشريح هذه إليها. تدين النظرية ببعض رجحانها لحقيقة أن واحدًا من هؤلاء الطلاب من أصول أيرلندية شمالية، ومن بلفاست تحديدًا بحسب اعتقاد الآنسة كوشينج. يجري في هذه الأثناء تحقيق نشط حول المسألة، والسيد لستراد، وهو واحد من ألمع ضباطنا المحققين، مسؤول عن القضية».

قال هولمز بعد أن أنهيت القراءة: «هذا قدر ما أوردته صحيفة الديلي كرونيكل، والآن ننتقل إلى صديقنا لستراد، فقد تلقيت خطابًا منه هذا الصباح يقول فيه»:

«أعتقد أن هذه القضية ضمن مجالك إلى حد كبير. كلنا أمل في استيضاح المسألة، لكننا نواجه بعض المشقة في العثور على أي خيط نستهل العمل منه. لقد أبرقنا إلى مكتب بريد بلفاست بالطبع، لكن عددًا كبيرًا من الطرود قد سُلم في ذاك اليوم، ولا وسيلة لديهم للتعرف على هذا الطرد بعينه، أو لتذكر مرسله. الصندوق صندوق تبغ بنكهة العسل من

وزن نصف رطل ولا يحمل أي فائدة لنا. ما زالت نظرية طلاب الطب تبدو بالنسبة لي الأكثر ملائمة، لكن إن كنت تملك بضع ساعات شاغرة؛ فسيفرحني جدًا أن أراك هنا. سأكون إما في المنزل وإما في مركز الشرطة طوال النهار.

– ما قولك يا واتسون؟ أيمكنك مقارعة الحرِّ والمجيء معي إلى كرويدون فهناك احتمال ضئيل أن نلقى قضيةً تضيفها إلى مذكراتك؟

– أتوق إلى إيجاد شيء نفعله.

– لك ذلك إذن، اقرع جرس البوابين واسألهم طلب عربة أجرة. سأعود بعد أن أبدِّل ملابس نومي، وأملأ علبة سجائري.

انهمرت الأمطار أثناء ركوبنا القطار، كانت الحرارة أخفَّ كثيرًا في كرويدون منها في البلدة، وقد أرسل هولمز ببرقية قبل وصولنا، لذا انتظَرَنا لستراد كما عهدناه دائمًا بنحوله ورشاقته ومظهره النمسيِّ في المحطة. مشينا خمس دقائق حتى بلغنا كروس ستريت، حيث تقيم الآنسة كوشينج.

كان شارعًا بالغ الطول يضمُّ منازل طوبيّة أنيقة مؤلفة من طابقين، أمامها درجات من حجارة مبيَّضة، ومجموعات صغيرة من نساء يلبسن المرايل ويثرثرن على الأبواب. توقف لستراد في منتصف الطريق ودقَّ على أحد الأبواب، ففتحته خادمة ضئيلة الحجم. كانت الآنسة كوشينج جالسة في الغرفة الأمامية، التي قادتنا الخادمة إليها، امرأة رائقة الوجه لها عينان كبيرتان رقيقتان، وشعرٌ أشهبُ يتموج فوق صدغيها على الجانبين، وثمة غطاء مشغول منبسط في حجرها، وسلة من خيوط الحرير الملونة موجودة فوق مقعد بجوارها.

قالت عند دخول لستراد: «إن تلك الأشياء المريعة في الغرفة الخارجية أتمنى أن تأخذها بعيدًا».

– هذا ما سأفعله يا آنسة كوشينج، إنما أبقيت عليها هنا كي يتسنَّى لصديقي السيد هولمز معاينتها في حضرتكِ.

– ولمَ في حضرتي يا سيدي؟

– في حال أراد أن يسألك سؤالًا ما.

– ما نفع سؤالي وقد أخبرتك أني لا أعرف أي شيء عن الموضوع؟

قال هولمز بأسلوبه المهدئ: «أوافقك الرأي يا سيدتي، لا شك عندي أن هذه المسألة قد سببت لك إزعاجًا أكثر من اللازم حقًّا».

«أجل يا سيدي، فأنا امرأة هادئة تعيش حياة منعزلة، ومن الجديد عليَّ رؤية اسمي في الصحف ووجود الشرطة في منزلي. لن أدخل تلك الأشياء إلى هنا يا سيد لستراد، وإذا ما رغبت برؤيتها عليك الذهاب إلى الغرفة الخارجية».

كانت الغرفة الخارجية عنبرًا صغيرًا في الحديقة الضيقة الممتدة خلف المنزل. دخل إليها لستراد وأخرج صندوقًا كرتونيًّا أصفر، عليه قطعة من الورق البني وخيط. كان ثمة دَكَّة في آخر الممر جلسنا عليها جميعنا، بينما فحص هولمز الأغراض التي أعطاه إياها لستراد واحدة تلو الأخرى.

علَّق هولمز بعد أن رفع الخيط إلى الضوء وشمَّه: «الخيط أشد ما يكون إثارة للاهتمام. ما رأيك به يا لستراد؟»

– لقد جرت قطرنته.

– بالضبط. إنه جزء من خيط مجدول مقطرن، وقد لاحظتَ بلا ريب أن الآنسة كوشينج قد قصت الحبل مستخدمة مقصًّا، هذا ما تظهره النسلات المزدوجة على الطرفين، وهذا مهم.

قال لستراد: «لا أرى أهمية ذلك»

«تقبع الأهمية في حقيقة أن العقدة لم تُمسَّ، وأن هذه العقدة من صنف مميز».

قال لستراد قانعًا: «إنها معقودة بدقة بالغة، وقد كتبتُ ملاحظة بهذا الصدد حقًّا».

قال هولمز باسمًا: «هذا كافٍ فيما يخص الخيط، والآن لننظر إلى غلاف الصندوق، إنه مغلف بورقة بنيِّة لها رائحة قهوة بارزة. ماذا؟ ألم تلاحظها؟ أعتقد أن لا مجال للشك في ذلك. أما العنوان فهو مكتوب بأحرف مبعثرة إلى حد ما: «الآنسة س. كوشينج، كروس ستريت، كرويدون.» وباستخدام قلم ذي رأس عريض، من سلسلة جيه غالبًا، وحبر رخيص جدًّا. كُتبت كلمة «كرويدون» بحرف "آي" في الأصل ثم بُدِّل إلى 'واي'. إذن فموجِّه الطرد رجل – لأن الكتابة ذكورية كما هو واضح – محدود التعليم وجاهل ببلدة كرويدون. هذا جيد حتى الآن! الصندوق أصفر، وهو صندوق تبغ بنكهة العسل من وزن نصف رطل، لا يُميِّزه شيء سوى علامتي إبهام على زاويته السفلى اليسرى، ومملوء بالملح الخام من الصنف المستخدم في حفظ الجلود وبقية أغراض التخشين التجارية، وُضعت في داخله هذه المرفقات الشاذة للغاية».

أخرج الأذنَين بينما قال ذلك، وفحصهما بإسهاب واضعًا إياهما على لوح فوق ركبتيه، بينما انحنينا أنا ولستراد إلى الأمام من كلا جانبيه ننظر إلى هذه البقايا المروعة تارة، وإلى وجه رفيقنا المفكِّر الشغوف تارة أخرى. أعادهما إلى الصندوق مجددًا في نهاية المطاف وجلس حينًا يتأمل بعمق.

قال أخيرًا: «لقد لاحظتَ بالتأكيد أن الأذنين ليستا زوجًا».

– بلى، لقد لاحظت ذلك. لكن إن كان هذا مقلبًا صنيعة بعض طلاب غرف التشريح، فإرسال أذنين مفردتين، هو أمر بنفس سهولة إرسال زوج.

– بالضبط، لكن هذا ليس مقلبًا.

– أأنت متأكد؟

– الافتراض يعارض ذلك بشدة، إذ يجري حقن الجثث في غرف التشريح بسائل حافظ، ولا يظهر على هاتين الأذنين أي دليل على هذا، وهما غضَّتان أيضًا. جرى بترهما بأداة مُثلَّمة، ومن الصعب حدوث ذلك لو أن طالبًا قد فعلها. وأيضًا الكحوليات الكربوليكية أو المكررة هي المواد الحافظة التي سيختارها فكرٌ طبيٌّ، وبالتأكيد ليس الملح الخشن. أقول مجددًا، لا يوجد مقلب هنا، بل إننا نتحرَّى عن جريمة جدية.

سرَت بي رعشة غامضة وقتما سمعت كلمات رفيقي ورأيت الجدية الحازمة التي صلَّبت ملامحه. بدا أن هذا التمهيد الوحشيَّ يخبئ خلفه رعبًا شاذًا وغير بيِّن. لكن لستراد قد هز رأسه مع ذلك هِزَّة رجل

نصف مقتنع.

وقال: «ثمة اعتراضات على نظرية المقلب دون شك، لكن ثمة حجج أقوى ضد النظرية الأخرى. نحن نعرف أن هذه المرأة قد عاشت حياة في قمة الهدوء واللياقة في بنغ وهنا في العشرين عامًا الأخيرة، وبالكاد ابتعدت عن منزلها مدة يوم خلال هذا الوقت. فلماذا إذن بحق السماء قد يرسل لها مجرم أدلة على جريمته، لا سيما وأنها... إلا إذا كانت ممثلة على أقصى درجة من الكمال، لا تعرف عن القضية إلا القليل الذي نعرفه؟»

أجاب هولمز: «هذا هو الإشكال الذي علينا حله، وعن دوري في الأمر، فسأشرع بافتراض أن استنتاجي صحيح، وأن جريمة قتل مزدوجة قد ارتُكبت. تعود إحدى هاتين الأذنين لامرأة، فهي صغيرة، وناعمة التكوين، ومثقوبة ثقب قرط. والأخرى أذن لرجل، فقدت لونها، ومثقوبة ثقب قرط أيضًا. يُفترض أن هذين الشخصين ميتان، وإلا لكنا سمعنا بقصتهما آنفًا. اليوم الجمعة، والطرد قد أُرسل صباح الخميس، هذا يعني أن المأساة قد وقعت يوم الأربعاء أو الثلاثاء أو قبل ذلك. إذا كان هذان الشخصان قد قُتلا، فمن غير قاتلهما أرسلَ الدليل على فعلته إلى الآنسة كوشينج؟ إذن علينا اعتبار مرسل الطرد رجلنا المطلوب. لكن لا بدَّ أن لديه سببًا قويًّا لإرسال هذا الطرد للآنسة كوشينج، فما السبب إذن؟ يجب أن يكون ذلك لإخبارها أن الفعلة قد تمَّت، أو ربما لإيلامها. لكنها في هذه الحالة تعرف الفاعل. فهل تعرف؟ أشك في ذلك. إذا كانت تعرف، فلماذا طلبتْ الشرطة؟ كان بوسعها دفن الأذنين وستكون بذلك أعقل الناس. هذا ما كانت لتفعله إذا ما رغبتْ في حماية المجرم، ولو أنها لم تُرد حمايته لصرَّحت باسمه. ثمة عقدة هنا يجب حلها». قال ما قاله بصوت عالٍ سريع، محدقًا بلا اهتمام من فوق سياج الحديقة، ثم وثب واقفًا على قدميه بنشاط ومشى باتجاه المنزل.

وقال: «لديَّ بعض الأسئلة لأطرحها على الآنسة كوشينج».

فقال لستراد: «في هذه الحال عليَّ أن أترككما هنا، فلديَّ عمل صغير آخر عليَّ متابعته، ولا أظن أن هناك المزيد يمكنني معرفته من الآنسة كوشينج. سأكون في مركز الشرطة».

«سنمرُّ على القسم في طريقنا إلى القطار»، أجاب هولمز، وبعد دقائق كنا في الغرفة الأمامية، حيث كانت السيدة لا تزال تعمل في هدوء على الغطاء. أنزلته في حجرها وقتما دخلنا ونظرت إلينا بعينين فاحصتين.

وقالت: «أنا مقتنعة يا سيدي أن هذه المسألة غلطة، ولم يكن مقصودًا إرسال الطرد إليَّ البتَّة. لقد قلت هذا مرات عدة للسيد الذي قدِم من سكوتلاند يارد، لكنه سخر مني ببساطة. ليس لديَّ عدو واحد في هذا العالم، على حد علمي، فلماذا قد يمازحني أحدهم مزحة كهذه؟»

قال هولمز بعد أن قعَد بجوارها: «إني أميل إلى الرأي ذاته يا آنسة كوشينج، وأعتقد أنه أكثر من ممكن...» ثم توقف، وتفاجأتُ عندما التفتُّ ورأيته يحدق بنيِّة غريبة إلى صورة السيدة للحظة واحدة. بدا كل من الدهشة والرضا على وجهه الشغوف، وعندما تلفتَتْ حولها لتعرف سبب سكوته كان قد عاد إلى رزانته المعهودة. بالغتُ في التحديق بنفسي إلى شعرها الأملس الأشهب، وقبعتها المُرتبة، وقرطيها

المذهبين الصغيرين، وملامحها الساكنة؛ لكن لم يكن بمقدوري رؤية أي شيء من شأنه تفسير حماسة صديقي البادية.

«عندي لكِ سؤال أو سؤالان..»

صاحت الآنسة كوشينج بنفاد صبر: «أوه، لقد أرهقتني الأسئلة!»

– لديك أختان، كما أعتقد.

– كيف أمكنك معرفة ذلك؟

– لاحظتُ في ذات اللحظة التي دخلتُ فيها الغرفة وجود صورة شخصية لمجموعة من ثلاث سيدات على رف الموقد أنتِ إحداهنَّ بلا ريب، والباقيات يشبهنك أشدَّ الشبه لدرجة لا تترك مجالًا للشك في قرابتكن.

– أجل، إنك محق تمامًا. إنهما أختاي، سارة وماري.

– وهنا بقربي ثمة صورة أخرى التُقِطت في ليفربول لأختك الصغرى بصحبة رجل يبدو أنه مضيف بالنظر إلى بزَّته، وألاحظ أنها كانت عزباء آنذاك.

– إن ملاحظتك لحادَّة للغاية!

– إنها مهنتي.

– حسنًا، كلامك صحيح تمامًا، لكنها تزوجت من السيد براونر بعد ذلك بعدة أيام، كان يعمل على خط أمريكا الجنوبية وقتما التُقطت تلك الصورة، لكنه كان متعلقًا بها جدًّا ولم يطِق هجرها لوقت طويل، فانتقل للعمل في قوارب ليفربول ولندن.

– آه، على متن قارب كونكيرر ربما؟

– كلا، فآخر ما وصلني أنه على ماي داي، جاء جيم لزيارتي مرة واحدة. كان ذلك قبل أن ينكث العهد؛ لكن بعد ذلك دائمًا ما كان يحتسي مشروبًا عندما يكون في البرِّ، ومشروب صغير كفيل بأن يفقده عقله تمامًا. آه! كان يومًا ذميمًا ذلك اليوم الذي حمل فيه كأسًا مرة أخرى. هجرني في البداية، ثم تشاجر مع سارة، والآن لا نعرف شيئًا عن أحوالهم بعد أن توقفت ماري عن الكتابة.

كان جليًّا أن للموضوع تأثيرًا عميقًا في باطن الآنسة كوشينج، ومثل معظم الأشخاص الوحيدين، كانت خجولًا في البداية، لكن انتهى الأمر بتحولها إلى منتهى الصراحة. أخبرتنا بتفاصيل كثيرة عن صهرها المضيف، ثم خرجت عن الموضوع لتخبرنا عن مستأجريها السابقين، طلاب الطب، وحدثتنا حديثًا طويلًا عن جُنحهم، ذاكرةً أسماءهم وأسماء مستشفياتهم. أنصت هولمز بانتباه إلى كل التفاصيل، طارحًا سؤالًا بين الفينة والأخرى.

وقال: «ماذا عن أختك الثانية، سارة، أتساءل لمَ لا تتشاركان منزلًا بما أنَّ كلتيكما سيدتان عزباوان؟»

– آه! لو كنت تعرف طباع سارة لما تساءلت. لقد حاولتُ وقتما جئتُ إلى كرويدون، وعشنا معًا حتى اضطررنا إلى الفراق منذ شهرين. لا أريد أن أذمَّ أختي، لكنها دائمًا ما كانت متطفِّلة وصعبة الإرضاء.

– لقد قلتِ أنها تشاجرت مع أقاربك في ليفربول.

– نعم، وقد كانوا أعز الأصدقاء فيما مضى، بل إنها قد انتقلت للعيش هناك لتكون بقربهما، والآن لا تملك كلامًا سيئًا بالحد الكافي لوصف جيم براونر. لم تكن تتكلم في الستة أشهر التي أمضتها هنا إلا عن شربه وعاداته، وأشكُّ أنه قد ضبطها تتطفَّل عليه فوبَّخها، وكان ذلك بداية الأمر.

قال هولمز وهو ينهض وينحني: «شكرًا لك يا آنسة كوشينج. قلتِ إن أختك سارة تعيش في نيو ستريت، والينغتون كما أظن، صحيح؟ إلى اللقاء، وآسف جدًّا لإزعاجكِ بقضية لا علاقة لك بها البتة كما تقولين».

كان ثمة عربة أجرة مارةٌ حينما خرجنا، فأوقفها هولمز.

وسأل: «كم تبعد والينغتون؟»

– نحو ميلٍ فقط يا سيدي.

– جيد جدًّا، اركب يا واتسون، علينا ضرب الحديد حاميًا، فمع بساطة القضية، إلا أن هناك نقطة أو اثنتين مفيدتين جدًّا ومتصلتين بها. توقف عند مكتب للتلغراف في طريقك أيها السائق.

أرسل هولمز برقية قصيرة واستلقى في السيارة بقية الرحلة وقبعته مائلة على أنفه تحجب الشمس عن وجهه. توقفت سيارتنا عند منزل شبيه بالذي خرجنا منه توًّا. طلب صديقي من السائق الانتظار، وكان ممسكًا الدقاقة بيده وقتما فُتح الباب وظهر سيد شابٌ رزين يرتدي السواد وقبعة شديدة اللمعان على العتبة.

سأله هولمز: «هل الآنسة كوشينج في المنزل؟»

أجابه: «الآنسة كوشينج مريضة جدًّا، إنها تعاني من أعراض دماغية شديدة منذ البارحة، وبصفتي مستشارها الطبي، لا يمكنني تحمل مسؤولية السماح لأي شخص برؤيتها. أنصحكم بالزيارة مرة أخرى بعد عشرة أيام»، ثم ارتدى قفازاته وأغلق الباب، ومشى متجهًا إلى الشارع.

قال هولمز مرحًا: «حسنًا، إذا كان لا يمكننا، فهوَ كذلك».

– ربما لم يكن بوسعها أو لم تكن لتخبرك الكثير.

– لم أُرِد أن تخبرَني شيئًا، كنتُ أريد النظر إليها فحسب. على كلٍ، أعتقد أني حصلت على كل ما أريد. قُد بِنا إلى فندق محترم أيها السائق، حيث يمكننا تناول الغداء، وبعدها سنمر على صديقنا لستراد في مركز الشرطة.

تناولنا وجبة شهيَّة، لم يتكلم هولمز خلالها إلا عن الكمانات، ساردًا بغبطة شديدة كيف اشترى كمان ستراديفاريوس خاصته، الذي كان يساوي خمسمئة جنيه على الأقل، من متجر سمسار يهودي في شارع توتنهام كورت مقابل خمسة وخمسين شلنًا، ما قاده إلى الحديث عن باجانيني. جلسنا لساعة نتناوب على زجاجة من نبيذ كلاريت بينما حدثني عن نوادر هذا الرجل الاستثنائي الواحدة تلو الأخرى. انقضى شوط كبير من الظهيرة ورقَّ الوهج الحار إلى تورُّد لطيف قبل أن نجد أنفسنا في مركز الشرطة، وكان لستراد ينتظرنا على الباب.

استقبلنا وهو يقول: «ثمة برقية لك يا سيد هولمز».

قال هولمز: «ها! إنها الإجابة!» ومزَّق المظروف ملقيًا نظرة على البرقية، ثم كمشها ووضعها في جيبه.

وقال: «هذ حَسَن».

– اكتشفتَ أي شيء؟

– اكتشفتُ كل شيء!

حدَّق إليه لستراد مذهولًا وقال: «ماذا؟ هل تمزح؟!».

– لم أكن أكثر جديةً في حياتي. لقد ارتُكبت جريمة فظيعة، وأظن أنني الآن قد عرَّيتُ كل تفاصيلها.

– والمجرم؟

خربش هولمز بضع كلمات على ظهر إحدى بطاقات الزيارة خاصته وقذفها إلى لستراد.

وقال: «هذا هو الاسم، لا يمكنك تنفيذ اعتقال قبل مساء الغد على أقل تقدير، وأفضِّل ألا تذكر اسمي مطلقًا في كل ما يتعلق بالقضية، فأنا أفضِّل أن يرتبط اسمي بالجرائم صعبة الحل فقط. هيا بنا يا واتسون»، ثم تمشينا معًا إلى المحطة، تاركين لستراد يحدق بوجه مبتهجًا إلى البطاقة التي رماها هولمز إليه.

قال هولمز بينما كنا نتحادث وندخن سجائرنا تلك الليلة في غرفنا في بيكر ستريت: «هذه القضية واحدة من القضايا التي تضطرنا إلى التحليل عكسيًّا بدءًا من النتائج ورجوعًا إلى الأسباب، كما في التحقيقات التي أرَّختَها تحت اسم «دراسة في اللون القرمزي» و «علامة الأربعة». لقد كتبتُ إلى لستراد أطلب منه تزويدنا بالتفاصيل الناقصة حاليًّا، والتي لن يحصل عليها إلا بعد أن يقبض على رجله المنشود، وهذا أمر يوثق به لأدائه بأمان، فمع كونه مجردًا تمامًا من المنطق، لكنه عنيد مثل كلب الصيد وقتما يفهم ما يتوجب عليه فعله، وفي الواقع، عِندُهُ هذا هو ما جعله الرجل الأول في سكوتلاند يارد».

سألته: «إذن قضيتك ليست مكتملة؟»

– إن أُسسها مكتملة بوضوح، فنحن نعرف مرتكب هذا العمل المقزز، مع أن أحد الضحايا ما زال غير معروف لنا. لقد رسمتَ استنتاجاتكَ الخاصة بالطبع.

– أفترض أن المدعوَّ جيم براونر، مضيف قارب ليفربول، هو الرجل الذي تشتبه فيه؟

– أوه! الأمر أكثر من شُبهة.

– ومع ذلك، لا أرى إلا المؤشرات المُبهمة.

– على عكسكَ، دماغي يرى كل شيء بوضوح تام. دعني أراجع معك الخطوات الأولية. لقد تناولنا القضية دون أن تكون لدينا أدنى فكرة مسبقة. كما تعلم، ما يُعتبر أفضلية دائمًا. ثم لم نكوِّن أي نظرية، بل ذهبنا لنعاينَ ونستمد الدلائل من ملاحظاتنا، وماذا رأينا أولًا؟ سيدة رائقة ومحترمة جدًّا، تبدو بريئة تمامًا من أي سر، وصورةً أرَتني إياها لأختين لها أصغر منها. مرَّ بخاطري في الحال أن الصندوق قد يكون مُرسلًا لواحدة من تانك الأختين، فوضعت الفكرة جانبًا باعتبارها فكرة يمكننا تفنيدها أو تأكيدها على راحتنا، ثم ذهبنا إلى الحديقة كما تتذكر، ورأينا مكنونات الصندوق الأصفر الصغير الغريبة جدًّا.

كان الخيط من الصنف الذي يستخدمه صنَّاع الأشرعة على متن السفن، وفاحت رائحة البحر في تحقيقاتنا من فورها. حينما لاحظت أن العقدة واحدة من العقد الشائعة بين البحارة، وأن الطرد أُرسل من مرفأ، وأن الأذن المذكَّرة مثقوبة ثقب قرط وهو أمر شائع بين البحارة أكثر بكثير من رجال البر. كُنت متأكدًا تمامًا أن بإمكاننا إيجاد كل ممثلي هذه التراجيديا بين طبقات شعبنا المتصلة بالبحر.

وقتما صرت إلى معاينة عنوان الطرد وجدته موجهًا للآنسة س. كوشينج، والآن، الأخت الكبرى هي الآنسة كوشينج بالطبع، ومع أن حرف اسمها الأول «س»، لكن قد يكون ذلك منطبقًا على إحدى الأخوات أيضًا، وفي تلك الحالة كان علينا بدء مجمل تحقيقنا على أُسس جديدة، لذا دخلت إلى المنزل بنيِّة استيضاح هذه النقطة، وكنتُ على وشك التأكيد للآنسة كوشينج أني كنت مقتنعًا بأن خطأً ما قد ارتُكب وقتما صمتت فجأة كما قد تذكُر. الحقيقة أنني رأيت شيئًا ما أدهشني جدًّا وفي ذات الوقت ضيق نطاق تحقيقنا جدًّا.

باعتبارك رجل طبٍّ يا واتسون، أنت تعرف أن لا جزء من الجسد البشري يختلف من شخص لآخر بقدر الأذن، تُعتبر كل أذن بمكانة مقياس خصوصي جدًّا، وتختلف عن بقية قريناتها. ستجد في المجلة الأنثروبولجية خاصة العام المنصرم دراستين قصيرتين بقلمي عن الموضوع؛ لذا تفحصت الأذنَين في الصندوق بعين خبير ولاحظت خواصهما التشريحية بدقة، فتخيَّل دهشتي إذن، وقتما أدركتُ بالنظر إلى أذن الآنسة كوشينج أنها مطابقة تمامًا للأذن الأنثوية التي كنت قد فحصتها للتوِّ. كان الأمر يفوق المصادفة كليًّا، فلهما صِوان الأذن القصير نفسه، ونفس الانحناء الداخلي الواسع لشحمة الأذن العليا، ونفس استدارة الغضروف الداخلي. كانت الأذنَ نفسها بكل عناصرها الأساسية.

بادئ ذي بدء، اسم أختها سارة، وكانت تقطن في العنوان نفسه حتى وقت قريب، لذا كان واضحًا جدًّا كيف ارتُكب الخطأ ولمن كان الطرد مرسلًا، ثم سمعنا عن هذا المُضيف المتزوج من أختها الثالثة، ثم عرفنا أنه كان مقربًا جدًّا من الآنسة سارة فيما مضى لدرجة أنها انتقلت بالفعل إلى ليفربول لتكون على مقربة من آل براونر، لكن شجارًا نشب عقب ذلك سبَّب فراقهم. وضع هذا الشجار حدًّا لكل أنواع التواصل بينهم لبضعة أشهُر، لذا إذا ما احتاج براونر إرسال طردٍ للآنسة سارة، فسيرسله إلى عنوانها القديم دون شك.

والآن بدأت المسألة تتضح اتِّضاحًا رائعًا، فقد عرفنا بوجود هذا المضيف، رجل مندفع شديد الشغف – أنت تذكر أنه تخلى عن وظيفة لا بدَّ أنها كانت رفيعة للغاية ليكون أقرب لزوجته – ويخضع لنوبات شرب مسرف بين الحين والآخر. لدينا ما يدفعنا إلى التفكير في أن زوجته قد قُتلت، وأن رجلًا – يُفترض أنه بحَّار – قد قُتل في الوقت نفسه. تتجلى الغيرة في الحال كدافع للجريمة، ولمَ توجَّب إرسال هذه الأدلة على الفعلة إلى الآنسة سارة كوشينج؟ ربما لأنها وأثناء إقامتها في ليفربول كان لها يد في التسبب في الأحداث التي قادت إلى المأساة. ستلاحظ أن خط القوارب هذا يمر ببلفاست، ودبلن، ووترفورد؛ لذا وعلى فرض أن براونر قد ارتكب الفعلة وغادر مباشرة على متن باخرته، ماي داي، ستكون بلفاست أول محطة يمكنه إرسال هذا الطرد المريع منها.

في هذه المرحلة، كان ثمة حل آخر ممكن، ورغم اعتقادي أنه مستبعد تمامًا، كنت عازمًا على استيضاحه قبل المضيِّ قدمًا. ربما قتل عاشقٌ خائبٌ ما السيد والسيدة براونر، والأذن الذكورية هي أذن الزوج. تواجه هذه النظرية العديد من الانتقادات البليغة، لكنها واردة. لذا أبرقتُ لصديقي ألغار في قسم شرطة ليفربول، وسألته أن يكتشف ما إذا كانت السيدة براونر في المنزل، وإذا ما غادر السيد براونر على متن ماي داي، ثم مضينا إلى والينغتون لزيارة الآنسة سارة.

كنتُ أشعر بالفضول في المقام الأول لرؤية مقدار ما ورثَتْه من خصائص أذن العائلة، ثم ربما نحصل منها على معلومات مهمة جدًّا بالطبع، لكن لم أكن واثقًا أنها ستفعل ذلك. لا بدَّ أنها سمعت بالقضية في اليوم السابق، فكلُّ كرويدون تتحدث عنها، وهي الوحيدة التي يمكن أن تعرف لَمن أُرسل الطرد حقًّا، فلَو كانت راغبة في مساعدة العدالة لكانت قد تواصلت مع الشرطة حقًّا. مع ذلك، كان من واجبنا لقاؤها فذهبنا، فعرفنا من تزامن مرضها مع أنباء وصول الطرد، أن الأنباء قد تركت أثرًا ثقيلًا عليها؛ سبب لها حمًى دماغية. كان أكثر وضوحًا من أي وقت مضى أنها أدركتْ كامل خطورته، وبنفس الوضوح كان علينا انتظار أي مساعدة منها لبعض الوقت.

مع ذلك.. لم نكن في الحقيقة بحاجة لمساعدتها، لأن إجاباتنا كانت تنتظرنا في مركز الشرطة حيث وجهتُ ألغار ليرسلها. كانت الإجابات في منتهى الحسم، فمنزل السيدة براونر مغلق منذ أكثر من ثلاثة أيام، والجيران يعتقدون أنها سافرت إلى الجنوب لزيارة أقاربها، وأكدت مكاتب النقل البحري أن براونر قد غادر على متن ماي داي، ووفق حساباتي أنها ستصل إلى نهر التمز مساء الغد. وقتما يصل سيلقاه لستراد الحازم -إن تجاهلنا بلادته- ولا شك عندي أننا سنملأ كل ثغرات التفاصيل التي لدينا.

لم يخب أمل شيرلوك هولمز في توقعاته، وتلقى بعد يومين مظروفًا كبيرًا، يحتوي ملاحظة وجيزة من المحقق ومستندًا مطبوعًا على الآلة الكاتبة امتدَّ على عدة ورقات من القطع الكبير.

قال هولمز رافعًا نظره إليَّ: «لقد تمكَّن منه لستراد، ربما يهمك سماع ما يقول:

«عزيزي السيد هولمز:

تماشيًا مع المخطط الذي وضعناه لاختبار نظرياتنا «نا الجماعة» لطيفة بعض الشيء يا واتسون، أليس كذلك؟ نزلت إلى رصيف آلبرت البارحة في السادسة مساءً، وركبت سفينة س.س. ماي داي، المملوكة لشركة ليفربول ودبلن ولندن ستيم باكيت. ووجدت أثناء التحقيق أن ثمة مضيفًا على متنها اسمه جيمس براونر وأنه كان يتصرف بطريقة غريبة؛ ما جعل القبطان يُضطر إلى إعفائه من واجباته. وحينما هبطت إلى قُمرته وجدته جالسًا على صندوق دافنًا وجهه بين يديه، يتأرجح جيئة وذهابًا. هو رجل ضخم قويٌّ حليق الوجه شديد السُّمرة، يُشبه آلدريج الذي ساعدنا في مسألة المصبغة الوهمية بعض الشيء. وثب واقفًا حينما سمع بالعمل الذي أقوم به، وكنت معلقًا صفَّارتي بين شفتي استعدادًا لطلب اثنين من شرطة النهر الواقفين خارجًا، لكنه بدا يائسًا ومدَّ يديه بهدوء كافٍ لتضمهما الأصفاد. جلبناه وصندوقه معنا إلى الزنزانة، فقد ظننا أننا قد نجد شيئًا ما يجرمه؛ لكن لم نجد شيئًا سوى سكين حادَّة طويلة كالتي يحملها معظم البحارة. مع

ذلك، وجدنا أننا لسنا بحاجة لأدلَّة إضافية، فقد طلب الإذن عند إحضاره أمام المفتش في المركز للإدلاء بإفادة، والتي ثبتها كاتبنا المُختزِل بمجرد أن أدلى بها بالطبع. جعلنا منها ثلاث نسخ مطبوعة، أدرجتُ لك واحدة منها. اتضح أن القضية شديدة البساطة كما ظننت منذ البداية، لكنني ممتنٌّ لمساعدتك إياي في تحقيقي.

مع أطيب التمنيات.

ــــــ المخلص جدًّا، ج. لستراد.

علَّق هولمز: «همم! لقد كان التحقيق بسيطًا جدًّا حقًّا، لكن لا أظن أنه كان يراه بهذه الصورة وقتما استدعانا. على كلٍ، دعنا نرى ماذا في جعبة جيم براونر ليدافع به عن نفسه. هذه إفادته التي أدلى بها أمام المفتش مونتجومري في مركز شرطة شادويل، ومن ميزتها أنها حرفية».

«ألديَّ شيء أقوله؟ نعم، لديَّ الكثير. عليَّ أن ألقي بهذه الأوزار عن صدري. يمكنك شنقي، أو تركي وشأني، لا أبالي البتَّة بما ستفعله. أقول لك، لم يغمض لي جفنٌ مذ فعلتُها، ولا أظن أنه سيغمض مجددًا في حياتي. وجهُه أحيانًا، ومعظم الأحيان وجهها، لا تمر لحظة دون رؤية أحدهما قابعًا أمامي. هو يبدو عابسًا ومسودًّا، لكن وجهها يعتليه ما يشبه علائم الدهشة. إيه، ذاك الحمل الوديع، لها الحق في الاندهاش حينما رأت الموت على وجهٍ قلَّما نظر إليها إلا بحُبٍ فيما مضى.

لكنه كان إثم سارة، وعسى أن تحلَّ عليها لعنة رجل محطّم فتُهلك جسدَها الآفات ويتعفَّن الدم في عروقها! لا أقول هذا لأبرئ نفسي، أعرف أنِّي عاودتُ شربي وعُدت الوحشَ الذي لطالما كُنتُه، لكنها كانت لتُسامحني؛ وكانت لتلزم جانبي كما يلزم الحبلُ البكرة لو لم يُعتّم ظل تلك المرأة بابنا. لأن سارة كوشينج أحبَّتني، وهذا هو جذر المسألة، أحبَّتني إلى أن استحال حبُّها بُغضًا سامًّا حينما علمَتْ أنني أُثمِّن طبعة قدم زوجتي في الطين أكثر منها جسدًا وروحًا.

كان ثمة ثلاث أخوات إجمالًا، كُبراهن مجرد امرأة طيبة، وأوسطهن شيطانًا، والثالثة ملاك. كانت سارة في الثالثة والثلاثين، وماري في التاسعة والعشرين وقتما تزوجنا. لم تكُن الأيام تتسع لسعادتنا ونحن نجهِّز منزلنا معًا، ولم يكن في كل ليفربول امرأة أحسنُ من عزيزتي ماري. ثم دعونا سارة لتزورنا أسبوعًا، فصار الأسبوع شهرًا، وتوالت الأحداث إلى أن صارت واحدة منا.

كُنتُ ملتزمًا بالابتعاد عن الشرب آنذاك، وكنا ندَّخر بعض المال، كل شيء كان برَّاقًا كورقة دولار جديدة. يا إلهي! من كان ليعتقد أن الأمور قد تصل إلى هنا؟ من كان ليحلم بهذا؟

اعتدتُ الوجود في المنزل معظم عطلات نهاية الأسبوع، وفي بعض الأحيان كنت أبقى في المنزل أسبوعًا كاملًا إذا ما تأخرت السفينة لحمولة ما، وهكذا كنت أرى أخت زوجتي،

سارة، كثيرًا. كانت امرأة طويلة جميلة، سمراء وذكية وشرسة، يرتفعُ رأسها بعجرفة وتقدحُ عيناها شررًا كحجر الصوان، لكن في وجود ماري الصغيرة لم أفكر فيها قط، وأقسم على ذلك مثلما آملُ أن يرحمني الله.

بدا لي أنها تحُب أن نكون وحدنا في بعض الأوقات، أو أنها تتملَّقني لأخرج لأتمشى معها، لكنِّي لم أعتقد أن للأمر أبعادًا أخرى قط. حتى أُزيلت الغشاوة عن عينيَّ في إحدى الأمسيات، كنتُ قد رجعت من السفينة ووجدت زوجتي في الخارج بينما كانت سارة في المنزل. سألتها: «أين ماري؟»، فأجابت: «أوه، لقد خرجت لتدفع بعض الحسابات». هلعتُ وصرتُ أذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، فقالت: «ألا يمكنك السعادةُ لخمس دقائق دون ماري يا جيم؟ أمرٌ مهينٌ أنك عاجز عن الرضى بصحبتي لوقت قصير». «لا بأس في ذلك يا آنستي»، قلتُ ذلك وأنا مادٌّ يدي تجاهها بلطف، لكنها أمسكت بها بكلتا يديها على الفور، وكانتا تلتهبان كما لو أنهما محمومتان. نظرتُ في عينيها وقرأت فيهما كل شيء، لم يكن أي منا بحاجة إلى الكلام، فعبستُ وسحبتُ يدي بعيدًا، فوقفتْ بجانبي صامتة لوهلة، ربتتْ على كتفي بعدها قائلة: «جيم الثابت!»، وخرجت من الغرفة مطلقةً ما يشبه ضحكة سُخرية.

حسنًا، لقد كرهتني سارة مذ ذاك الوقت من صميم قلبها وروحها. كنتُ أحمق لسماحي لها بالإقامة معنا، أحمق ثمل، لكنِّي لم أنطُق بحرفٍ لماري، فقد كنتُ أعرف أن ذلك كان ليغُمُّها. استمرت الأمور كما كانت عليه فيما سبق تقريبًا، لكني بدأتُ أحيانًا ألاحظ شيئًا من التغيُّر في ماري نفسها. لطالما كانت مستوثقة وبريئة، لكنها صارت غريبة وشكاكة، تريد أن تعرف أين كنتُ، وماذا كنتُ أفعل، ومن مرسلُ رسائلي، وماذا في جيوبي، وألفًا من هذه الحماقات. يومًا بعد يومٍ تزايدت غرابتها واضطرابها، وأصبحنا ندخل في شجارات لا تنتهي وبلا سبب.

كنتُ محتارًا من كل هذا، وكانت سارة تتجنبني، لكنها وماري كانتا لا تفترقان. يمكنني الآن فهم كيف كانت تكيدُ وتخطط لتسمم عقل زوجتي ضدي، لكني كنتُ كخنفساء عمياء عاجز عن فهم الأمور آنذاك. ثم حنثتُ بعهدي وعدتُ للشرب مجددًا، وأظن أني لم أكن لأفعلها لو أن ماري بقيتْ كما عهدتُها. كان لديها سببًا ما لتشمئز مني الآن، وأخذت الفجوة بيننا تتسع وتتسع، ثم دخل هذا المسمَّى أليك فيربيرن، وصارت الأمور أسودَ ألف مرة.

جاء في البداية لرؤية سارة، وسرعان ما صار يجيء لرؤيتنا، كان رجلًا له أساليبه الفعالة، يقيم الصداقات أينما أراد. مختال مفعم بالحيوية، ذكيٌّ وملتوٍ، رأى نصف العالم ويمكنه الحديث عما رأى. كانت صحبته حسنةً لا أنكر ذلك، وكانت تصرفاته رائعة ومهذبة كونه بحَّارًا، لذا أظن أن زمنًا لا بدَّ مرَّ عليه كان يعرف فيه عن الكوثل أكثر مما يعرفه عن عنبر البحارة. ظل يتردد شهرًا على منزلي، ولم يخطر ببالي ولو مرة

أن سُبُلَه اللينة المخادعة قد تسبب أيَّ أذًى. حدث شيء ما أخيرًا أثار شكوكي، وضاع سلامي مؤبدًا مذ ذاك اليوم.

لم يكن إلا شيئًا حقيرًا أيضًا، فقد دخلتُ إلى الرَّدْهَة بغتة، وبينما كنت أسير في مدخل الباب رأيتُ نظرة مرحِّبة على وجه زوجتي، لكن ما إن رأتْ من القادمَ تلاشت تلك النظرة، وأشاحت نظرها عني، تعلو وجهها علائم الخيبة. كان هذا يكفيني، فلم يكن ثمة غير أليك فيربيرن لتخلطَ بين خَطوي وخطوِه. لو أمكنني رؤيته وقتها لقتلته، فلطالما كنتُ مجنونًا وقتما أفقد أعصابي. رأت ماري نار الشيطان في عينيَّ، وركضت تمسكُ كُمّي بيديها قائلةً: «لا يا جيم، لا تفعلها!» سألتها: «أين سارة؟» فأجابت: «في المطبخ»، فقلت وأنا أدخله: «سارة، لن يطأ الرجل المدعوُّ فيربيرن عتبة بابي ثانية»، فقالت: «لمَ لا؟» فقُلت: «لأنِّي آمر بذلك»، قالت: «أوه! إذا لم يكن مرحبٌ بأصدقائي في هذا المنزل، فليس مرحبٌ بي أيضًا»، فقلت: «يمكنك أن تفعلي ما يحلو لك، لكن إذا ما أطلَّ وجه فيربيرن هنا مرة أخرى، فسأرسل لك إحدى أذنيه تذكارًا»، وأعتقدُ أن تعابير وجهي أفزعتها، لأنها لم تُجب بأي كلمة قط، وغادرت منزلي في المساء ذاته.

حسنًا، لستُ أدري ما إذا كان ذلك شيطنة بحتة من طرف تلك المرأة، أم أنها اعتقدت بقدرتها على تأليب زوجتي ضدي عبر تشجيعها على إساءة التصرف. بأي حال، لقد اتخذت لنفسها منزلًا يبعُد شارعين فقط وأجَّرت مساكن للبحارة. اعتاد فيربيرن على الإقامة هناك، وكانت ماري تزورهم لتحتسي الشاي مع أختها ومعه. لا أعرفُ كم مرة كانت تتردد إلى هناك، لكني لحقتها في أحد الأيام، ووقتما اقتحمت الباب هرب فيربيرن من فوق سور الحديقة الخلفية، كما كان ليفعل حثالة رعديد مثله. أقسمت لزوجتي أني سأقتلها إذا ما رأيتها بصحبته مجددًا، وأرجعتها معي تنشِجُ وترتعش وهي شاحبة كقصاصة من ورق. ضاع أثر أي حب بيننا، وصرتُ أرى أنها باتت تكرهني وتخشاني، وعندما دفع بي التفكير إلى الشرب، باتت تحتقرني أيضًا.

حسنًا، وجدت سارة أنها عاجزة عن كسب عيشها في ليفربول، لذا عادت للعيش مع أختها في كرويدون كما فهمت، ومشت الأمور كما كانت دائمًا في المنزل. ثم حلَّ ذاك الأسبوع وحلَّت معه التعاسة والخراب.

كان الأمر على هذه الشاكلة، كنا قد ذهبنا في رحلة على متن ماي داي مدتها سبعة أيام، لكن أحد البراميل الضخمة انفلتَ وثقبَ إحدى صفائح السفينة، فاضطررنا إلى العودة للميناء لاثنتي عشرة ساعة، فغادرتُ السفينة عائدًا إلى المنزل أفكر في المفاجأة التي ستشعر بها زوجتي، آملًا أنها قد تسعد لرؤيتي بهذه السرعة. كانت الفكرة في رأسي وأنا أنعطف لأدخل شارعي، وفي تلك اللحظة عبرتني عربة أجرة، وكانت هيَ فيها، جالسة بجوار فيربيرن، يثرثران ويضحكان دون أن يفكرا في وجودي، وأنا واقفٌ أشاهدهما من على الرصيف.

أقول لك، وأقسم لك، أنني مذ تلك اللحظة لم أكن سيد نفسي، كل شيء يبدو كحلم خافت وقتما أستذكره. كُنت أسرف في الشرب مؤخرًا، وأفقدني الأمران معًا عقلي تمامًا. ثمة شيء يضرب في رأسي الآن، شيء أشبه بمطرقة عامل ميناء، لكن في ذاك الصباح بدا أن شلالات نياجارا تأزُّ وتطنُّ في أذنيَّ.

فخلعت حذائي، وركضت خلف العربة. كنتُ أحمل عصا بلوطٍ ثقيلة في يدي، وأقول لك إني كنتُ مستشيطًا غضبًا منذ البداية؛ لكن بعد أن ركضت صرتُ ماكرًا أيضًا، تلكأت قليلًا لأراهما دون أن يرياني. توقفا بعد وقت قصير عند محطة القطار، وكان ثمة حشد لا بأس به حول مكتب حجز التذاكر، فاقتربت منهما بهدوء خفيٍّ. اشتريا تذكرتين إلى نيو برايتون، ففعلت مثلهما، لكني ركبت ثلاث عربات بعيدًا عنهما. عندما وصلناها مشَيَا على طول المنتزه، ولم أبعد عنهما أكثر من مئة ياردة فقط. رأيتهما أخيرًا يستأجران قاربًا ليذهبا في جولة قصيرة، فقد كان يومًا حارًا جدًا، ولا شكَّ أنهما اعتقدا أن الجو سيكون ألطف فوق الماء.

كان الأمر كما لو أنهما سُلِّما إليَّ، إذ كان ثمة بعض الغشاوة ولم يكن بالإمكان الرؤية أكثر من بضع مئات من الياردات. استأجرت قاربًا وذهبت في أعقابهما، كان بإمكاني رؤية بقعة مركبهما، لكنهما كانا يسيران بنفس السرعة التي أسير بها، ولا بدَّ أنهما كانا يبعدان ميلًا عن البرِّ وقتما أمسكت بهما. كانت الغشاوة مثل ستارة تحيط بثلاثتنا ونحن في مركزها. يا إلهي! أسأنسى يومًا ما وجهيهما وقتما رأيا مَن في القارب الآخذ في الاقتراب منهما؟ شرعت هي في الصراخ، وهو في السُّباب كالمجنون، وقفز عليَّ يضربني بمجداف، فقد رأى الموت في عينيَّ لا محالة. تجاوزته وأصبته بضربة هشمت رأسه كبيضة. ربما كنتُ لأصفح عنها رغم كل جنوني، لكنها ألقت بذراعيها حوله تصرخ عليه وتناديه «أليك». فضربتُ ثانية، ورقدتْ ممددةً بجواره. كنتُ حينها مثل وحش بريٍّ تذوق طعم الدم، ولو أن سارة كانت هناك، قسمًا بالله لأرقدتها بجانبهم. سحبت سكيني، و.. حسنًا، هاك! لقد قلتُ ما يكفي. شعرتُ بنوع من المتعة الوحشية وقتما فكرت بالشعور الذي سينتاب سارة عندما تحصل على أدلة تريها ما أودى إليه تدخُّلها. ثم ربطتُ الجثتين بالقارب وأشعلتُ بطانية، ووقفتُ جانبًا إلى أن غرقا. عرفتُ حق المعرفة أن مالك القارب سيعتقد أنهما أضاعا الاتجاه بسبب الغشاوة، وانجرفا إلى البحر. نظفت نفسي وعدتُ إلى البر، والتحقتُ بسفينتي دون أن يشك أحدٌ فيما قد حدث. جهزتُ في تلك الليلة الطرد لسارة كوشينج، وأرسلته في اليوم التالي من بلفاست.

ها قد صارت الحقيقة كاملة في جعبتك، يمكنك شنقي، أو فعل ما يحلو لك فعله بي، لكن لا يمكنك عقابي، فقد تلقيته حقًّا. لا يمكنني إغلاق جفنيَّ دون رؤية ذانك الوجهين يحدقان إليَّ، التحديقة ذاتها التي ارتسمت على وجهيهما وقتما شق قاربي الغشاوة. قتلتُهما متعجلًا لكنهما قتلاني على مهل؛ وإذا ما راودني هذا لليلة أخرى فإما سأُجن أو

سأموت قبل بزوغ الصباح. لن تضعني في زنزانة وحدي، أليس كذلك يا سيدي؟ أرجوك بحق الرحمة ألا تفعل ذلك، وعسى أن تُعامل في يوم ضيقكَ كما ستعاملني اليوم».

قال هولمز بكآبة وهو يضع الورقة جانبًا: «ما معنى هذا يا واتسون؟ أي غرض تخدمه حلقة التعاسة والعنف والذعر هاته؟ لا بدَّ أن ينتهي هذا، وإلا سيكون كونُنا محكومًا بالصدفة، وهذا محال. لكن أي نهاية؟ تلك هي المسألة الخالدة القائمة التي ما زال العقل البشري بعيدًا بعده الأزليَّ عن حلها».

مغامرة الدائرة الحمراء

الفصل الأول

«حسنًا يا سيدة ووِرن، لا أرى أن ثمة سببًا محددًا يدفعكِ للقلق، ولا أرى سببًا يدفعني أنا ذو الوقتِ الثمين نوعًا ما، إلى التدخل في المسألة، فأنا فعلًا لديّ أشياء أخرى أشتغل بها»، قال هذا شيرلوك هولمز، وعاد إلى سجلّ قصاصاته العظيم الذي كان يُرتّب ويفهرس فيه بعضًا من موضوعاته الأخيرة.

لكن صاحبة السكن كانت عنيدة ومحتالة كبناتِ جنسِها، وأصرّت على موقفها إصرارًا حازمًا.

وقالت: «لقد سوّيت شأنًا يخص أحد المستأجرين لديّ في العام المنصرم، السيد فيرديل هوبز».

– آه، نعم، كان موضوعًا بسيطًا.

– لكنه لم يترُك الحديثَ عن لطفك يا سيدي، وعن الطريقة التي أنَرت بها ظُلمته. تذكرتُ كلماته وقتما ساورني الشكّ وأحاطتْ بيَ العتمة، وأعرفُ أنك قادرٌ إذا ما أردتَ ذلك.

كان هولمزُ ضعيفًا أمام المديح، ولأعطيه حقّه، كان قلبه رؤوفًا أيضًا، فجعله هذا يضع فرشاة صمغه جانبًا ويدفع كرسيه إلى الخلف مطلقًا تنهيدة استسلام.

– حسنًا حسنًا يا سيدة ووِرن، فلنسمع ما عندكِ إذًا. لا مشكلة لديكِ مع التبغ، صحيح؟ أشكركِ، ناولني الثقاب يا واتسون! أفهم أنكِ قلقةٌ من بقاء المستأجر الجديد لديك في غرفته وعدم رؤيتك إياه، ولكن لماذا، باركك الله يا سيدة ووِرن؟ فلو كنتُ مستأجرًا لديكِ لمضت أسابيع طويلة في الغالب دون أن تريني.

– من دون شكٍّ يا سيدي؛ لكن الحال هنا مختلف. إنه يرعبني يا سيد هولمز، لا أنام من الفزع، فسماع خطواته الحثيثة تتحرك هُنا وهناك منذ الصباح الباكر حتى آخر الليل دون أن أتمكن من لمحه أمرٌ فوق طاقة تحملي، وزوجي متوتّر مثلي بسبب ذلك، لكنه يقضي كل نهاره في عمله، بينما لا أحصلُ على استراحة. لماذا يختبئ؟ ماذا اقترف؟ إنني، باستثناء الفتاة، وحيدة معه في المنزل، وهذا أكثر مما تطيقه أعصابي.

انحنى هولمز إلى الأمام ووضع أصابعه الطويلة النحيلة على كتف المرأة. كان يتمتع بقدرة تسكين شبه تنويمية وقتما يريد، فتلاشت نظرة الخوف من عينيها، وسكنتْ ملامحها المرتبكة إلى صورتها المألوفة، ثم جلستْ على الكرسي الذي أشار إليه.

وقال: «إذا كنتُ سأتولى المسألة فلا بدّ أن أفهم كل التفاصيل، خذي وقتك بالتفكير، فأصغر نقطة قد تكون أكثرها أهمية. تقولين إن الرجل جاء منذ عشرة أيام ودفع إيجار إقامة وإعاشة لأسبوعين؟»

– سألني عن شروطي يا سيدي، قلت له خمسون شلنًا في الأسبوع مقابل غرفة جلوس صغيرة وغرفة نوم، كاملتي الخدمات على سطح المنزل.

– ثم؟

– قال: «سأدفع لكِ خمسة جنيهاتٍ في الأسبوع إذا وافقتِ على نزولي بشروطي»، وأنا امرأة فقيرة يا سيدي، ودخْلُ السيد ووِرن قليل، والمال يعني لنا الكثير، ثم أخرج ورقة من فئة الجنيهات العشرة،

وأراني إياها في ذلك الزمان والمكان قائلًا: «يمكنكِ أن تحصلي على مثلها كل أسبوعين لوقت طويل قادم إذا ما التزمتِ بالشروط، وسأوقف التعامل بيننا إذا لم تفعلي».

– ما كانت الشروط؟

– أن يملك مفتاحًا للمنزل يا سيدي. ولا بأس بهذا، فغالبًا ما يملك المستأجرون مفاتيح، وأن ندعه وشأنه تمامًا دون أن يتعرض لإزعاج مهما كان السبب.

– ولا شيء غريب في ذلك بالطبع، صحيح؟

– ليس في حدود المنطق يا سيدي، لكن الأمر خارج عن أي منطق، فهو يمكث هناك منذ عشرة أيام، لم يلمحه السيد ورِن، ولا أنا، ولا الفتاة ولو مرّة واحدة. يمكننا سماع خطواته الحثيثة جيئةً وذهابًا، جيئةً وذهابًا، ليلًا وصباحًا وظهرًا؛ لكنه لم يخرُج من المنزل بعد الليلة الأولى البتة.

– أوه، لقد خرج في الليلة الأولى، أليس كذلك؟

– بلى يا سيدي، وعاد متأخرًا جدًّا، بعد أن خلد جميعنا إلى الفراش. أخبرني بعد أن استأجر الغرف أنه سيخرج، وطلب منّي ألا أُزلجَ الباب، وسمعته يصعد السلالم بعد منتصف الليل.

– وماذا عن وجبات طعامه؟

– كانت توجيهاته الدقيقة تنصّ على أن علينا دائمًا تركَ وجبته على كرسيّ أمام بابه وقتما يرنّ الجرس، وعندما يرنّه مرة أخرى بعد انتهائه نُنزلها عن الكرسي نفسه، وإذا ما أراد أي شيء آخر يكتبه بأحرف الطباعة على وريقة ويتركها خارجًا.

– يكتبه بأحرف الطباعة؟

– أجل يا سيدي؛ يطبع بالريشة الكلمة فقط ولا يزيد عليها، هاكَ واحدة جلبتها لأريك إياها: ـــــ صابون، وهاك أخرى: ـــــ ثقاب، وهذه واحدة تركها في الصباح الأول: ـــــ ديلي غازيت. أتركُ له تلك الجريدة كل صباح مع وجبة فطوره.

قال هولمز وهو يحدق بفضول عظيم إلى جذاذات الورق التي أعطته إياها: «يا سلام يا واتسون، هذا غريب بعض الشيء بالتأكيد. يمكنني فهمُ العُزلة؛ لكن لمَ الكتابة بأحرف الطباعة؟ الكتابة بأحرف الطباعة عملية خرقاء، لمَ لا يكتب بخط يده؟ بمَ يوحي ذلك يا واتسون؟

– بأنه يرغب بإخفاء خط يده.

– لكن لمَ؟ بمَ قد يهمّه ما إذا كانت صاحبة السكن تحوز كتابةً بخط يده؟ ربما يكون الأمر كما تقول. ثم، مجددًا، لماذا هذه الرسائل المقتضبة؟

– لا فكرة لديّ.

– هذا يفتح مجالًا سارًّا من التخمينات الذكية. الكلمات مكتوبة بقلم ريشة عريض الرأس مخضّب بالبنفسجيّ من نوع غير غريب، ويمكنك ملاحظةُ أن الورقة قد مُزقت من جانبها هنا بعد أن تمت الطباعة، لذا حرف «ص» من كلمة صابون شبه زائل. هذا موحٍ بشيء يا واتسون، أليس كذلك؟

– بالاحتراس؟

– بالضبط، من الواضح أنه كان ثمة علامة ما، بصمة ما، شيء ما من شأنه الدلالة على هوية الشخص. والآن يا آنسة ووِرن، تقولين إن الرجل أسمر مُلتحٍ متوسط الحجم، فما تقديرك لعمره؟

– صغير إلى حد ما يا سيدي، لا يُجاوز الثلاثين.

– حسنًا، أيمكنكِ تزويدي بالمزيد من الدلائل؟

– كانت لغته الإنجليزية جيدة يا سيدي، لكني ظننتُ من لهجته أنه أجنبيّ رغم ذلك.

– أكان حسَن الملبس؟

– كان ملبسه مرتبًا جدًّا يا سيدي، سيد محترم بحق. ملابسه سوداء، لا شيء فيها يجذب الانتباه.

– ألم يُقدم اسمًا؟

– لا يا سيدي.

– ولم ترده رسائل أو زوار؟

– أبدًا.

– لكن بالتأكيد تدخلين أنتِ أو الفتاة لترتيب غرفته صباحًا، صحيح؟

– لا يا سيدي؛ فهو يعتني بنفسه كليًّا.

– حقًّا! هذا غريب بالتأكيد، وماذا عن أمتعته؟

– كان يحمل حقيبة بنية كبيرة معه فحسب، ولا شيء آخر.

– حسنًا، لا يبدو أن لدينا مادةً كثيرة لتساعدنا، تقولين لا شيء قد خرج من تلك الغرفة، لا شيء إطلاقًا؟

سحبت صاحبة السكن مظروفًا من حقيبتها؛ وهزته مخرجةً منه عودي ثقابٍ محروقَين وعقب سيجارة على الطاولة.

«كانت في صينيّته هذا الصباح، وجلبتُها لأني سمعتُ أن بمقدورك اكتشاف كبائر الأمور من صغائر الأشياء».

هزّ هولمز كتفيه.

وقال: «لا شيء لأكتشفه هنا، فالثقاب قد استُخدم لإشعال السجائر بالطبع، وهذا واضح من قِصر الطرف المحترق. نصف أعواد الثقاب تُستهلك في إشعال الغليون أو السيجار، لكن يا إلهي! عقب السيجارة هذا غريب بالتأكيد. قلتِ إن السيّد ملتحٍ وله شاربان أليس كذلك؟»

– بلى يا سيدي.

– لستُ أفهم هذا، أعتقد أن من دخنها لا يمكن إلا أن يكون حليق الوجه تمامًا، لمَ يا واتسون؟ لأن حتى أبسط الشوارب كان ليحترق.

اقترحتُ: «استخدمَ مبسمًا ربما؟»

– لا، لا؛ فالعقب متلبّد. أفترض أن لا احتمال لوجود شخصين في غرفك يا آنسة ووِرن، صحيح؟

– لا يا سيدي، وهو يأكل قدرًا قليلًا، حتى إني أَعجبُ إذا ما كان يكفي لإبقاء شخص واحد حيًّا.

– حسنًا، أعتقد أن علينا الانتظار حتى تظهر بعض المواد الجديدة، وبأي حال، ليس لديكِ ما تشتكين منه، فقد تسلّمتِ أجرك، وهوَ نزيل غير مزعج، برغم أنه بالتأكيد ليس اعتياديًّا. إنه يدفع لكِ مبلغًا جيدًا، وإذا ما كان خياره الرقود متخفيًا فهذا ليس من شأنك الصريح. لا عذر لدينا لانتهاك خصوصيته حتى نجد مبررًا يدفعنا للاعتقاد أن ثمة سببًا إجراميًّا خلفها. لقد تسلّمتُ زمام المسألة ولن أدعه يغيب عن ناظري، أبلغيني إذا ما حدث أي شيء جديد، واعتمدي على مساعدتي إذا ما كانت مطلوبة.

وعقّبَ بعد أن غادرتنا السيدة: «ثمة بعض النقاط المثيرة للاهتمام في هذه القضية بالتأكيد يا واتسون، وبالطبع قد تكون أمرًا تافهًا، كمجرد غرابة فردية؛ ولكن قد تكون أعمق بكثير مما يبدو ظاهرها أيضًا. أول شيء يدركه المرء هو الاحتمال البدهي بأن الرجل الموجود في الغرف الآن مختلفٌ تمامًا عن الشخص الذي استأجر المكان أول الأمر».

– لمَ قد تعتقد هذا؟

– حسنًا، بصرف النظر عن عقب السيجارة هذا، ألا يوحي لك بشيء أن المرة الوحيدة التي خرج فيها النزيل كانت مباشرة بعد أن استأجر الغرف؟ ثم عاد، أو عاد شخص آخر، بعد ابتعاد كل الشهود عن طريقه؟ لا إثبات لدينا على أن الشخص الذي عادَ هو ذاته الذي خرج، ثمّ مجددًا، كانت إنجليزية الرجل الذي استأجر الغرف جيدة، أما الثاني فيكتب «ثقاب» بصيغة مفرد في حين ينبغي أن تكون «أعواد ثقاب» بالجمع، ما يجعلني أفترض أن الكلمة مأخوذة من قاموس يُعطي الاسم ولا يعطي جمعه، وربما يكون الأسلوب المقتضب مُتعمَّدًا، لإخفاء الجهل باللغة الإنجليزية، بلى يا واتسون، ثمة أسباب تكفي للشك بأن المستأجر قد استُبدل.

– لكن لأيّ غاية قد يكون هذا؟

«آه! هنا تكمن مشكلتنا. ثمة مسار تحرٍّ واحد بدهيّ بعض الشيء»، وأنزل الكتاب الكبير الذي كان يصنّف كل يوم فيه أعمدة الآلام من مختلف جرائد لندن، وقال وهو يقلّب الصفحات: «يا إلهي! يا لها من جوقة أنين وبكاء وثغاء! يا لها من حاوية وقائع نادرة! لكنها بالتأكيد أثمن ميدان قنص مُنحَ لصياد نوادر على الإطلاق! هذا الشخص وحيد ولا يمكن التواصل معه برسالة دون خرق سريته المطلقة التي يرغب بها، لذا كيف ستصله أنباء أو رسائل من الخارج؟ عبر إعلان منشور في جريدة بالطبع. لا يبدو أن ثمة طريقة أخرى، ومن حسن الحظ أنّ علينا حصر اهتمامنا بهذه الجريدة فقط. ها هيَ مقتطفات الديلي غازيت من الأسبوعين الماضيين: «سيدة ترتدي وشاحًا أسود في نادي برينس للتزلج»، يمكننا تجاوز هذه، «بالتأكيد لن يكسر جيمي قلب أمه»، هذا يبدو غير ذي صلة. «إذا كانت السيدة التي أُغمي عليها في باص بريكستون»، إنها لا تهمني. «قلبي يحن كلّ يوم...» ثغاء يا واتسون، ثغاء تام! آه، هذا يحمل احتمالًا أكثر، اسمع: «اصبر. سنجد وسيلة مضمونة للتواصل. في هذه الأثناء، هذا العمود. ج.»، هذا بعد وصول نزيل السيدة ورِن بيومين. يبدو معقولًا، أليس كذلك؟ فالشخص الغامض قادر على فهم الإنجليزية، حتى لو لم يكن قادرًا على كتابتها. دعنا نرى إذا ما كان بمقدورنا نبشُ أثر آخر. بلى، ها هوَ بعد ثلاثة أيام. «إنني أُجري ترتيبات ناجحة. صبرًا وحذرًا. ستنقشع السحب. ج.»، ثم لا شيء

لأسبوع، ثم يظهر شيء أكثر حسمًا بكثير: «الطريق يخلو. إذا وجدتُ فرصةً لرسائل إشارة تذكر الشيفرة المتفق عليها: 1 أ، 2 ب وهكذا دواليك. ستعرفُ قريبًا. ج»، هذا كان في جريدة البارحة، ولا شيء في جريدة اليوم. كل هذا موافق جدًّا للمستأجر لدى السيدة ووِرن، وإذا ما انتظرنا قليلًا يا واتسون، فلا أشكّ أن المسألة ستصير أكثر وضوحًا.

وهكذا بُرهن الأمر؛ فقد رأيت صديقي في الصباح واقفًا على بساط الموقد وظهره للنار تعلو وجهه ابتسامة رضًا تام.

وهتف وهو يلتقط الجريدة عن الطاولة: «ما رأيك بهذا يا واتسون؟ «منزلٌ أحمر مرتفع ملبّس بحجارة بيضاء. الطابق الثالث. ثاني نافذة إلى اليسار. بعد الغروب. ج.» هذا قاطع بدرجة كافية، وأعتقد أن علينا الذهاب في جولة استكشافية صغيرة في حيّ السيدة ووِرن بعد الفطور. آه يا سيدة ووِرن! بأي أخبار ستأتينا هذا الصباح؟»

اندفعت عميلتنا إلى الغرفة فجأة بطاقةٍ تنمّ عن حدوث تطوّرٍ جديدٍ وخطرٍ نوعًا ما.

صاحت: «إنها مسألة تخص الشرطة يا سيد هولمز! لن أتحمل المزيد من هذا! عليه حزم أمتعته والخروج. كنت لأذهب إليه وأخبره مباشرة، لكني فكرتُ أن من العدل مشاورتك أولًا. لكن صبري قد نفد، وحينما يصل الأمر إلى إبراح زوجي العجوز ضربًا...»

– ضرب السيد ووِرن؟

– معاملته بخشونة على أي حال.

– لكن من عامله بخشونة؟

– آه! هذا ما نريد معرفته! حدث الأمر هذا الصباح يا سيدي. السيد ووِرن يعمل مراقب حضورٍ لدى شركة مورتون ووايلايت على طريق توتنهام كورت، وعليه الخروج من المنزل قبل الساعة السابعة، وما لبثَ أن مشى عشر خطوات في الشارع هذا الصباح حتى جاءه رجلان من خلفه، ورميا معطفًا على رأسه، ودفعاه بسرعة إلى سيارة أجرة واقفة بجوار الرصيف. قادا به نحو ساعة، ثم فتحا الباب وقذفاه خارجًا. كانَ راقدًا على قارعة الطريق يرتعدُ خوفًا لدرجة أنه لم يرَ أين ذهبت السيارة، وعندما تمالك نفسه وجدَ أنه كان في مرج هامبستيد هيث؛ فاستقل حافلةً إلى المنزل، وهو هناك الآن مستلقٍ على الكنبة، بينما جئتُ مباشرة إليك لأخبرك بما حدث.

قال هولمز: «شائق جدًّا، هل انتبه إلى مظهر هؤلاء الرجال؟ هل سمعهم يتكلمون؟»

– لا؛ فهو دائخ تمامًا، ولا يعرف إلا أنه رُفع عن الأرض كما لو كان بفعل سحر ورُمي كما لو كان بفعل السحر، وأن رجُلين على الأقل كانا بها، ربما ثلاثة.

– وأنتِ تربطين هذا الاعتداء بالمستأجِر لديك؟

– حسنًا، نحن نسكنُ هناك منذ خمسة عشر عامًا ولم نتعرض لحادث كهذا قط. لقد ضقت ذرعًا به، فالمال ليس كل شيء، وسأطرده من منزلي قبل انقضاء اليوم.

– انتظري قليلًا يا سيدة وورِن، ولا تُقدمي على أي فعل طائش. لقد بدأت الاعتقاد أن هذه القضية قد تكون أهمّ بكثير مما بدت عليه للوهلة الأولى. صار واضحًا الآن أن خطرًا ما يتربّص نزيلَك، وبنفس الوضوح أن أعداءه الكامنين له قرب بابكم قد أخطؤوا بينه وبين زوجكِ في ضوء الصباح الأغبش، وعندما اكتشفوا خطأهم أطلقوا سراحه، فماذا كانوا سيفعلون لو لم يخطئوا؟ لا يمكننا إلا التكهّن.

– حسنًا، ماذا أفعل يا سيد هولمز؟

– لدي رغبة عظيمة بلقاء مستأجركِ يا سيدة وورِن.

– لست أدري كيف يمكن تدبير ذلك دون أن تكسرَ بابه، فدائمًا ما أسمعه يفتح القفل وأنا هابطة السلالم بعد أن أترك له الصينية.

– عليه إدخال صينيته، ولا شكّ يمكننا الاختباء لرؤيته وهو يدخلها.

فكّرَتْ صاحبة المُلك للحظة.

«في الواقع يا سيدي، ثمة غرفة مخزن مقابلة لبابه، ربما يمكنني وضع مرآة، ثم إذا وقفتَ خلف الباب...»

قال هولمز: «ممتاز! ومتى يتناول غداءه؟»

– نحو الساعة الواحدة يا سيدي.

– إذًا سنأتي أنا والدكتور واتسون نحو هذا الوقت، والآن إلى اللقاء.

وجدنا نفسينا في الساعة الثانية عشرة ونصف على أعتاب منزل السيدة وورِن، مبنًى رفيع مرتفع مكسو بالحجارة الصفراء في شارع جريت أورم؛ شارع عام ضيق على الجانب الشمالي الشرقي للمتحف البريطاني، ويشرف من منصبه القريب من زاوية الشارع على شارع هاو ومنازله المتغطرسة. أشار هولمز ضاحكًا إلى واحد من هذه المنازل، وكان صفًّا من الشقق السكنية البارزة لا تفشل في لفت النظر.

وقال: «انظر يا واتسون! «منزل أحمر مرتفع ملبس بالحجارة»، ها هوَ الموقع المشار إليه بالتمام والكمال. إننا نعرفُ المكان، ونعرف الشيفرة؛ لذا ستكون مهمتنا سهلة بالتأكيد. ثمة بطاقة «برسم الإيجار» على تلك النافذة، فهي شقة خالية وشريك المؤامرة قادرٌ على الوصول إليها بالتأكيد. حسنًا يا آنسة وورِن، ماذا سنفعل الآن؟

«لقد جهزتها لكما، وإذا أتى كلاكما وتركتما حذاءيكما على بسطة الدرج، فسأدخلكما هناك الآن».

رتبت لنا مخبأً ممتازًا، إذ كانت المرآة مثبتة في موضع يسمح لنا برؤية الباب المقابل بوضوح تامّ من مجلسنا في الظلام، وبالكاد كنا قد استقررنا فيه وغادرتنا السيدة وورِن، حتى سمعنا رنينًا بعيدًا يُعلن أن جارنا الغامض قد ضرب الجرس، ثم ظهرت صاحبة المنزل فورًا حاملة صينية، وضعتها على كرسي بجوار الباب المغلق، وغادرت بخطوات ثقيلة. جثمنا معًا على زاوية الباب، وأبقينا نظرنا مثبتًا على المرآة، ثم فجأةً، مع تلاشي وقع أقدام صاحبة المنزل، سمعنا صوت طقطقة تدوير المفتاح، ثم المقبض، ثم اندفعت يدان نحيلتان وحملتا الصينية عن الكرسي، وأعادتاها بسرعة بعد لحظة. تمكنتُ من لمح وجه

أسمر جميل مذعور يحدّق إلى فجوة غرفة المخزن الضيقة، ثُم صُفق الباب، وأُدير المفتاح مجددًا وعمّ الصمت، فشدني هولمز من كُمّي وانسللنا هبوطًا على الدرج.

وقال للسيدة المترقبة: «سآتي مجددًا في المساء. أعتقد يا واتسون أننا سنناقش هذا الأمر بصورة أفضل في مقرنا».

قال متحدثًا من عُمق مقعده الوثير: «ثبت أن ظني كان صحيحًا كما رأيتَ، فقد حدث استبدال للنزلاء، لكن ما لم أخمنه، أننا سنجد امرأة، وليست امرأة عادية يا واتسون».

– لقد رأتنا.

– حسنًا، لقد رأت شيئًا ما أفزعها، وهذا أكيد. إن التسلسل العام للأحداث واضح جدًّا، أليس كذلك؟ يستجير زوجان بلندن من خطر فظيع ومباشر، وحدّة احتياطاتهما هي مقياس ذاك الخطر. يرغب الرجلُ، الذي لديه عمل ما يجب القيام به، بترك المرأة في أمان مطلق بينما ينجز عمله، وهذه ليست مشكلةً سهلة، لكنه حلّها بأسلوب بديع وفعّال لدرجة أن صاحبة الملك التي تمدّها بالطعام حتّى لا تدري بوجودها، وقد صار جليًّا الآن أن غاية الرسائل المكتوبة بأحرف الطباعة هي منع اكتشاف جنسها عبر خط يدها. ليس بمقدور الرجل الاقتراب من المرأة، وإلّا سيدلّ أعداءهما إليها، وبما أنه عاجز عن التواصل المباشر معها، فهو يستعين بعمود الآلام في الجريدة. كل شيء واضح حتى الآن.

– لكن ما جذرُ المسألة؟

– آه، بلى، واتسون العمليّ جدًّا، كعادته! ما جذر هذا كله؟ إن مشكلة السيدة ورِن المتقلبة تتضخم قليلًا وتتخذ جانبًا أكثر خبثًا كلما تقدمنا، وهذا قدرُ ما يمكننا قوله: إنها ليست رعونة عشّاق اعتيادية، فقد رأيتَ صورة وجه المرأة عندما أحسّت بالخطر. سمعنا أيضًا عن الهجوم على صاحب المنزل، ولا شكّ أن المستأجر هو المقصود. إن هذه التحذيرات، والحاجة الماسّة للسرية، تدل على أن القضية مسألة حياة أو موت، ويُظهر الهجوم على السيد ورِن أن العدو نفسه، أيًّا كان، ليس عارفًا باستبدال المستأجرة الأنثى بالذكر. الأمر غريب ومعقد جدًّا يا واتسون.

– لمَ عزمُكَ على التعمّق فيه؟ ماذا يمكن أن تجني منه؟

– أيجب أن يكون ثمة شيء؟ إنه الفن من أجل الفن يا واتسون. أفترض أنك حين درست الطب وجدت نفسك تدرس حالات دون التفكير في أجر، صحيح؟

– ذلك من أجل تعليمي يا هولمز.

– التعليم لا ينتهي يا واتسون، إنه سلسلة دروسٍ أعظمُها آخرُها، وهذه قضية تعليمية ليس فيها مالٌ ولا مفخرة، لكن المرء ليرغب في حلها رغم ذلك، ويجب أن نتقدم خطوةً في تحقيقنا مع حلول الغسق.

وقتما عدنا إلى غرف السيدة ورِن، كانت ظُلمة شتاء لندن قد حاكت ستارة رمادية، وعمّت رتابة لونية باردة لا تعكّرها إلا مربعات النوافذ الصفراء الصارخة وهالات مصابيح الغاز الغبشاء، وحينما نظرنا من غرفة الجلوس المعتمة في النُزل، لمع ضوء خافت آخر عاليًا في الظلمة.

قال هولمز هامسًا، وقد اندفع وجهه النحيل المتلهف ناحية زجاج النافذة: «ثمة شخص ما يتحرك في تلك الغرفة، بلى، يمكنني رؤية ظله. ها هوَ مجددًا! إنه يحمل شمعة في يده، والآن يحدق إلى الجانب الآخر، يريد التأكد من كونها منتبهة. لقد بدأ يومض الآن، سجل الرسالة أيضًا يا واتسون حتى يتسنى لنا مطابقة ما سجلناه. ومضة واحدة، تعني أ بالتأكيد، والآن إذًا، كم مرة كررتَها؟ عشرين. هذا يجب أن يعني أ ت . ت، وهو واضح بما يكفي، والآن ت أخرى، هذه بداية كلمة ثانية بالتأكيد، والآن صارت أ ت ت ي ن، وتوقف. لا يمكن أن يكون هذا كل شيء يا واتسون! أ ت ت ي ن ت ا.. لا تعني أي شيء، ولا حتى إذا جزأناها إلى ثلاث كلمات، أ ت، ت ي ن، ت ا، إلا إذا كانت ت. أ هي أحرف اسم الشخص. ها هوَ يبدأ مجددًا! ما هذا؟ أ ت ت ي، لماذا؟ إنها الرسالة نفسها مجددًا. هذا غريب يا واتسون، غريب جدًّا، وها قد بدأ مجددًا! أ ت، لماذا يُكرر الرسالة للمرة الثالثة؟ أ ت ت ي ن ت ا ثلاث مرات! كم سيكررها؟ لا، هذه تبدو الخاتمة. لقد تراجع عن النافذة، ماذا تفهم من ذلك يا واتسون؟»

«رسالة مشفرة يا هولمز».

أطلق رفيقي ضحكة استيعاب مفاجئة وقال: «وليست شيفرة مُلغزة جدًّا يا واتسون، لم؟ لأنها بالإيطالية بالطبع! حرف ا يعني أنه يخاطب امرأة. احذري[1]! احذري! احذري! ما رأيك بهذا يا واتسون؟»

– أعتقد أنك فككتها.

– لا شك في هذا. إنها رسالة عاجلة جدًّا، وكررها ثلاث مرات للتشديد على ذلك، لكن احذري من ماذا؟ انتظر لحظة، إنه يطل من النافذة مجددًا.

رأينا مجددًا شبحًا خافتًا لرجل جاثم وحركة لهب صغير عبر النافذة بينما أُرسلت الإشارات مرة أخرى، لكنها جاءت أسرع من ذي قبل، سريعة لدرجة تصعب متابعتها.

«ب ي ر ي ك و ل و، بيريكولو[2]، ها؟ ماذا يعني يا واتسون؟ «خطر» أليس كذلك؟ بلى وحق الله، إنها إشارة خطر. ها هوَ يبدأ مجددًا! ب ي ر ي، يا إلهي، ماذا بحق السماوات...».

انطفأ الضوء فجأة، واختفى مربع النافذة الومِض، وصار الطابق الثالث مثل حزام داكن حول البناية السامقة بطوابقها ذات النوافذ البابية البراقة. اختُصرت صيحة التحذير الأخيرة تلك فجأة، كيف؟ وعلى يد من؟ خطرت الفكرة نفسها في بال كلينا مباشرة، ووثب هولمز واقفًا من مكان جثومه بقرب النافذة.

وصاح: «هذا خطير يا واتسون، ثمة فعل شيطاني ما يجري! لماذا تتوقف رسالة مثل تلك بطريقة كهذه؟ يجب أن أتواصل مع سكوتلانديارد بخصوص هذا الأمر، ومع ذلك، من الضروري جدًّا أن نغادر الآن».

– أأذهب وأبلغ الشرطة؟

– علينا استيضاح الوضع بصورة أكثر قليلًا بعد، فربما يحمل تفسيرًا ما أكثر بساطة. هيا يا واتسون، فلنذهب إلى هناك بنفسينا ونرى ما بمقدورنا فهمه.

تعني كلمة Attenta الإيطالية: احذري.
وتعني كلمة pericolo الخطر.

الفصل الثاني

بينما كنا نحث الخطى في شارع هاو، ألقيتُ نظرة على البناء الذي خرجنا منه، ورأيت هناك في النافذة العلوية ظلًّا ذا حدودٍ خافتة لرأس امرأة تحدق بقلقٍ وتصلبٍ خارجًا في ظلمة الليل، وتنتظر في ترقّب تجددَ الإشارة التي انقطعت. كان ثمة رجل متلفّع يرتدي ربطة عنق ومعطفًا يتكئ على الدرابزين في مدخل شقق شارع هاو، وقد أجفلَ وقتما هبط ضوء المدخل على وجوهنا.

وصاح: «هولمز!»

قال رفيقي وهو يصافح تحرّي قسم سكوتلانديارد: «جريجسون! «إن لقاء العشاق نهاية الرحلات»، ما الذي جاء بك إلى هنا؟»

قال جريجسون: «أتوقع أنه نفس ما جاء بك، ولا يمكنني تصوّر كيف انخرطت فيه».

– خيوطٌ مختلفة، لكنها تقود إلى العقدة نفسها. كنتُ أسجل الإشارات.

– الإشارات؟

– أجل، الإشارات المنبعثة من تلك النافذة، وقد انقطعت في منتصفها، لذا قدِمنا لنعرف السبب، لكن بما أن الأمر في أيديكم الأمينة لا أرى غاية من الاستمرار في هذه المسألة.

هتف جريجسون بتلهف: «انتظر لحظة! سأنصفك يا سيد هولمز، وأقول لك أنني لم أتولّ قضية حتى الآن إلا وزادني وجودك إلى جانبي قوة، لا يوجد إلا هذا المخرج للشقق، لذا ما زال في قبضتنا».

«من يكون؟»

«حسنًا حسنًا، لقد تغلبنا عليك يا سيد هولمز، وعليك أن تقرّ بذلك هذه المرة»، وضرب الأرض بعصاه ضربة قوية، ظهر على إثرها حوذي وسوطه في يده من عربة رباعية العجلات كانت تقف على الجانب البعيد من الشارع، وتقدم ناحيتنا، ثم قال للحوذي: «هل لي أن أعرفك بالسيد شيرلوك هولمز؟ هذا السيد ليفرتون، من وكالة بينكرتون الأميركية».

قال هولمز: «بطل لغز كهف لونج آيلاند؟ سُررت بلقائك يا سيدي».

احمرّ وجه الأمريكي، على وقع كلمات المديح، وهو شاب هادئ جدّي حليق اللحية والشاربين، نحيل الوجه وحادّ الملامح، وقال: «إنني في أهم عملية تعقُّب في حياتي الآن يا سيد هولمز، إذا تمكنت من القبض على جورجيانو...».

– ماذا! جورجيانو الدائرة الحمراء؟

– أوه، أبلغ صيته أوروبا؟ حسنًا، لقد عرفنا كل شيء عنه في أمريكا، ونعرف أنه متسببٌ بخمسين جريمة قتل، ومع ذلك لا نملك دليلًا للقبض عليه. تعقبته إلى هنا من نيويورك، وراقبته من كثب لأسبوع في لندن أترصّد عذرًا يوقعه بين يديّ. تتبعناه أنا والسيد جريجسون بعد مطاردة طويلة مضنية إلى ذاك

المنزل السكني الضخم، وليس فيه إلا باب واحد، لذا هو عاجز عن التملص منا. خرج ثلاثة أشخاص منذ أن دخل، لكني أقسم أنه لم يكن واحدًا منهم.

قال جريجسون: «لقد تكلم السيد هولمز عن إشارات، وأنا أتوقع، كما جرت العادة، أنه يعرف الكثير مما لا نعرفه».

شرح هولمز الوضع كما بدا لنا ببضع كلمات واضحة، فصفق الأمريكي يديه مستاءً.

وهتف: «إنه يعرف بأمرنا!»

– لمَ تعتقد هذا؟

– حسنًا، هذا يفسر ما حدث، أليس كذلك؟ فقد كان هنا، يرسل الرسائل إلى شريك ما، وثمة عدة أفراد من عصابته في لندن، ثم كما رويتَ بنفسك، قطع رسالته فجأة وهو يخبرهم بوجود خطر. كيف يمكن تفسير ذلك سوى أنه لمحنا فجأة من النافذة واقفين في الشارع، أو أنه بطريقة ما أدرك أن الخطر قريب، وأن عليه التصرّف فورًا لتفاديه؟ ماذا تقترح يا سيد هولمز؟

– أن نصعد فورًا ونرى بأنفسنا.

قال جريجسون: «إنه مبنًى شاغر في ظروف مثيرة للريبة، وهذا كافٍ للآن، وعندما نمسكه موجودًا سنرى ما إذا كان بوسع نيويورك مساعدتنا في الإبقاء عليه أم لا. سأتحمل مسؤولية اعتقاله حاليًّا».

قد يتخبّط محققونا الرسميون فيما يتعلق بالاستخبارات، أما من ناحية الشجاعة فلا يتراجعون أبدًا. ارتقى جريجسون الدرج ليقبض على هذا القاتل البائس بذات الهدوء المطلق والجدية التي يصعد فيها الدرج الرسمي لقسم سكوتلانديارد. حاول رجل بينكرتون تجاوزه، لكن جريجسون أرجعه بمرفقه بحزم، فأخطار لندن مسؤولية شرطة لندن.

كان باب الشقة اليسرى في الطابق الثالث مواربًا، فدفعه جريجسون فاتحًا إياه. كان داخل الشقة سكونًا وظلمة مطبقين، فقدحتُ ثقابًا وأشعلت فانوس المحقق، وحينما فعلت ما فعلت واستقرّ الوميض لهبًا، أطلقنا كلنا شهقة اندهاش. كان مرسومًا على الألواح الجانبية للأرض العارية خط من الدماء الطازجة، والخطوات الحمراء المتجهة نحونا خارجة من غرفة داخلية كان بابها مغلقًا، فشرّعه جريجسون على مصراعيه ومدّ فانوسه المشتعل بأقصى توهجه أمامه، بينما وقفنا كلنا نحدق بتلهّف من خلفه.

تكوّمت في وسط أرضية الغرفة الفارغة جثة رجل ضخم، وجهه الحليق الأسمر مشوّه بفظاعة وملتوٍ، ورأسه محاط بهالة رهيبة من الدم القاني، مسجًى في دائرة رطبة واسعة على الأرضية الخشبية البيضاء. كانت ركبتاه مرفوعتين، ويداه ممدودتين ألمًا، وتبرُز من منتصف حلقه الواسع البني المقلوب قبضة بيضاء لسكين مغروز عن آخره فيه، ونظرًا لضخامة جسمه، لا بدّ أن الرجل قد انهار مثل ثور ضُرب ببلطة حربية أمام تلك الضربة الشنيعة. إلى جانب يده اليُمنى كان ثمة خنجر ضخم جدًّا ذو مقبض من العاج ونصل بحدّين ملقًى على الأرض، وإلى جواره قفاز جديّ أسود.

صاح المحقق الأمريكي: «يا إلهي! إنه جورجيانو الأسود بعينه! لقد سبقَنا شخص ما هذه المرة».

قال جريجسون: «ها هيَ الشمعة في النافذة يا سيد هولمز، لمَ؟ ما الذي تفعله؟»

تقدم هولمز إلى الجانب الآخر، وأشعل الشمعة، وصار يمررها جيئة وذهابًا عبر زجاج النافذة، ثم حدق عبر الظلمة، وأطفأ الشمعة وألقاها على الأرض.

وقال: «أعتقد أن هذا سيكون مفيدًا»، ثم اقترب ووقف يفكر تفكيرًا عميقًا بينما جثم المحترفان يفحصان الجثة، وقال أخيرًا: «قلتَ إن ثلاثة أشخاص خرجوا من البناية بينما كنتما تقفان أسفل الدرج، هل رأيتهم من كثب؟»

– بلى فعلت.

– أكان بينهم شاب أسمر ثلاثيني تقريبًا، له لحية سوداء ومتوسط الحجم؟

– بلى؛ كان آخر من عبروني.

– يُخيّل إليَّ أنه رجلك المطلوب. يمكنني وصفه لك، ولدينا أثر ممتاز جدًّا لطبعة قدمه. يجب أن يكون هذا كافيًا لك.

– ليس كافيًا بين ملايين اللندنيين يا سيد هولمز.

– ربما لا، لهذا اعتقدتُ أنه من الأفضل استدعاء هذه السيدة لمساعدتك.

استدرنا كلنا مع كلماته، وارتسَمت هناك في المدخل صورة امرأة طويلة وجميلة، هي المستأجرة الغامضة في بلومسبيري. تقدمتْ بأناة، كان وجهها شاحبًا وقد غضنه توجس مخيف، وعيناها ثابتتين محدقتين، ونظرتها المرعوبة راسخة على الجسد الداكن الممدد على الأرض.

وتمتمتْ: «لقد قتلتموه! أوه، يا إلهي، لقد قتلتموه!» ثم سمعتُها تشهقُ شهيقًا قويًّا، وقفزتْ في الجو مطلقةً صيحة بهجة. رقصت ورقصت حول الغرفة، يداها تصفقان، وعيناها الداكنتان تلتمعان في دهشة فرِحة، وألف هتاف إيطالي جميل ينهمر من شفتيها. كانت رؤية امرأة كهذه تنتفض فرحًا لهذه الدرجة أمام مشهد كهذا أمرًا مريعًا ومدهشًا، ثم توقفت فجأة وحدقت إلينا كلنا تحديقةً مساءَلة.

– لكن أنت! أنت شرطي، ألست كذلك؟ لقد قتلت جوزيبي جورجيانو، أليس هذا ما حدث؟

– نحن شرطيون يا سيدتي.

نظرَتْ إلى الظلال في الغرفة حولها.

وسألت: «لكن أين جينارو إذًا؟ إنه زوجي، جينارو لوكا، وأنا إيميليا لوكا، وكلانا من نيويورك. أين جينارو؟ لقد استدعاني للتو من هذه النافذة، فهرعت بأقصى سرعتي».

قال هولمز: «أنا من استدعاكِ»

– أنت! كيف أمكنك ذلك؟

– شيفرتكما ليست صعبة يا سيدتي، ووجودك هنا مرغوبٌ فيه. عرفتُ أن ما عليّ إلا ومضُ كلمة «تعالي» وستأتين من غير ريب.

نظرت الإيطالية الجميلة نظرة احترام إلى رفيقي.

وقالت: «لستُ أفهمُ كيفية معرفتك هذه الأشياء، جوزيبي جورجيانو، كيف...»، وتوقفت، ثم أشرق وجهها فجأة اعتزازًا وبهجة، «الآن فهمت! إنه جينارو! حبيبي جينارو العظيم الجميل الذي أبقاني في مأمن عن كل أذًى، هو مَن فعلها، هوَ من قتل الوحش بيده القوية! أوه يا جينارو، كم أنت رائع! وأي امرأة قد تكون جديرة تمامًا برجل كهذا؟»

قال جريجسون المبتذل، واضعًا يده على كم السيدة بقليل من العاطفة كما لو كانت أحد مشاغبي نوتينج هيل: «حسنًا يا سيدة لوكا، ما زلت غير متأكد تمامًا مَن أنتِ أو ما تكونين؛ لكنكِ قد قلتِ ما يكفي لإيضاح أننا سنرغبُ بوجودك في سكوتلانديارد».

فقال هولمز: «لحظة يا جريجسون، يُخيل إليّ أن هذه السيدة تتوق إلى تزويدنا بالمعلومات بقدر ما نتوق إلى الحصول عليها، أتدركين يا سيدتي أن زوجك سيُعتقل ويُحاكم بتهمة قتل الرجل المُسجى أمامنا؟ قد يُستخدم ما تقولينه ضمن الأدلة، لكن إذا كنتِ تعتقدين أن فعله نابع من دوافع غير إجرامية، فأفضل ما يمكنك فعله لصالحه هو إخبارنا القصة بأكملها».

قالت السيدة: «الآن وقد مات جورجيانو لم يعد ثمة ما نخشاه، فقد كان شيطانًا ووحشًا، ولا يمكن أن يوجد في العالم قاضٍ قد يعاقب زوجي على قتله».

قال هولمز: «في هذه الحال، فاقتراحي هو أن نقفل الباب، ونترك الأمور كما وجدناها، ونذهب مع السيدة إلى غرفتها، ثم نكوّن رأينا بعد أن نسمع ماذا لديها لتخبرنا».

بعد نصف ساعة، كان أربعتنا جالسين في غرفة جلوس السنيورة لوكا الصغيرة، نستمع إلى حكايتها الاستثنائية لهذه الأحداث المشؤومة، التي صادف أن شهدنا خاتمتها. تكلمت بلغة إنجليزية سريعة وطليقة لكنها غير مألوفة أبدًا، لكني سأوردها بعد تصحيحها لغويًّا بغية الإيضاح.

قالت: «لقد وُلدتُ في بوزيليبو، قرب نابولي، ابنةً لأوجوستو باريلي، الذي كان النائب العام وشغل كرسيًّا في مجلس النواب مرة عن تلك المنطقة. كان جينارو يعمل لدى والدي، ووقعت في حبه مثلما ينبغي لأي امرأة، لكنه لم يكن يملك مالًا ولا منصبًا، لا يملك إلا جماله وقوته وحيويته، لذا رفض والدي الزواج، فهربنا وتزوجنا في باري، بعتُ مجوهراتي لنحصل على المال ونذهب به إلى أمريكا. كان هذا منذ أربع سنوات، وأقمنا في نيويورك منذ ذلك الوقت.

كان الحظ حليفًا جيدًا لنا في البداية، فقد أسدى جينارو لسيد إيطالي معروفًا، إذ أنقذه من بعض الأشرار في المكان الذي يُدعى باوري، وهكذا كسب صديقًا قويًّا. كان اسمه تيتو كاستالوتي، وكان الشريك الأكبر في شركة كاستالوتي وزامبا العظيمة، كبار مستوردي الفاكهة إلى نيويورك. كان السنيور زامبا عاجزًا، وكل السلطة ضمن الشركة بيد صديقنا الجديد كاستالوتي، الذي يعمل لصالحه أكثر من ثلاثمئة رجل، فمنح زوجي وظيفة وجعله رئيس أحد الأقسام، وأظهر حسن النية تجاهه بكل الطرق الممكنة. كان السيد كاستالوتي عازبًا، وأظن أنه كان يعتبر جينارو ابنًا له، وأحبه زوجي وأنا كما لو كان والدنا. أخذنا منزلًا صغيرًا وفرشناه في بروكلين، وبدا أن مستقبلنا كله مؤمن حينما لاحت تلك الغمامة السوداء التي سرعان ما اجتاحت سماءنا.

ذات ليلة، جلب جينارو معه عند عودته من العمل شخصًا ريفيًّا، كان اسمه جورجيانو، وهو من بوزيليبو أيضًا. كان رجلًا هائلًا كما يمكنك أن تشهد، فقد رأيت جثته، لم تكن جثته جثة عملاق فقط، بل كل ما فيه كان مشوهًا، وعملاقًا، ومريعًا. كان صوته يهدر مثل الرعد في بيتنا الصغير، وبالكاد تتسع المساحة الضئيلة للدوامة التي تحدثها يداه العظيمتان وقتما يتكلم. أفكاره، وانفعالاته، وعواطفه، كلها مسرفة وبشعة. كان يتكلم، أو بالأحرى يزأر، بطاقة تجعل الآخرين يجلسون ويستمعون إليه فقط، مذعنين أمام دفق كلماته الجبار، وعيناه تستعران في وجهك وتجعلانك رهن رحمته. كان رجلًا رهيبًا ومذهلًا، وأحمد الله أنه ميت!

جاء مرة بعد مرة، ومع ذلك كنت مدركة أن جينارو لم يكن أكثر سرورًا مني بحضوره. كان زوجي المسكين يجلس شاحبًا خاملًا، يستمع إلى التخريف اللانهائي حول السياسة والمشكلات الاجتماعية التي تملأ محادثة ضيفنا. لم يقُل جينارو شيئًا، لكني، وأنا التي أعرفه جيدًا، قرأت على وجهه شعورًا لم أكن قد رأيته قبلًا قط، وظننت في البداية أنه بُغض، ثم تدريجيًّا، فهمتُ أنه كان أكثر من مجرد بغض، لقد كان خوفًا، خوفًا عميقًا خفيًّا مُجفلًا. في تلك الليلة، ليلة فهمتُ ذعره، ضممتُه بيديّ واستحلفته بحبه لي وبكل ما هو عزيز عليه ألا يخفي عني شيئًا، وأن يخبرني لماذا يسيطر عليه هذا الرجل الضخم هكذا.

أخبرني، وصار قلبي ينحسر وأنا أستمع، فحبيبي جينارو المسكين، في أيامه الضارية المحتدمة، وقتما بدا أن العالم كله ضده وأفقدته مظالم الحياة نصف عقله، كان قد انضمّ إلى جمعية نابولية اسمها الدائرة الحمراء، وهي حليفة لجمعية كاربونيريا القديمة. كانت أيمانُ هذه الأخوية وأسرارها مرعبة، وبمجرد خضوع الفرد لسلطتها لم يكن ثمة مجال للهروب. وقتما فررنا إلى أمريكا ظن جينارو أنه قد ألقى كل شيء خلفه للأبد، وكم كان ذعره جسيمًا وقتما صادف في الشارع ذات مساء الرجل ذاته الذي أدخله في الجمعية في نابولي، جورجيانو العملاق، رجلٌ اكتسب لقب «الموت» في جنوب إيطاليا، لأنه كان غارقًا في حمرة الدم حتى كوعه من كثرة جرائم القتل! كان قد جاء إلى نيويورك هربًا من الشرطة الإيطالية، وقد زرع بالفعل فرعًا من جماعته المروّعة في موطنه الجديد. أخبرني جينارو بكل هذا وأراني نداءً كان قد تلقاه في ذاك اليوم نفسه، رُسمت على رأسه دائرة حمراء وورد فيه أن محفلًا سيُعقد في تاريخ معين، وأن حضوره إجباريٌّ ومأمور به.

كان هذا سيئًا بالحد الكافي، لكن الأسوأ لم يكن قد حدث بعد، فقد لاحظت أنه وقتما يزورنا جورجيانو، كما كان يفعل على الدوام في المساء، كان يتحدث إليّ كثيرًا، وحتى حينما كان يتحدث إلى زوجي كانت عينا الوحش الرهيبتان الفاحشتان البربريتان راسيتين عليّ دائمًا، وباح بسرّه ذات مساء، فقد أيقظتُ ما سمّاه «حبًّا» بداخله، حبًّا بهيميًّا، متوحشًا. لم يكن جينارو قد عاد حينما أتى، فشق طريقه عنوة، وقبض علي بين ذراعيه الجبارتين، وعانقني عناق الدببة ومرغني بقبلاته، ثم استحلفني الذهاب معه. كنتُ أنازع وأصرخ وقتما دخل جينارو وهاجمه، فضرب جينارو ضربة أفقدته الوعي وفرّ من المنزل الذي لم يدخله بعدها، وكسبنا عدوًّا قاتلًا في تلك الليلة.

عُقد الاجتماع بعد عدة أيام، وعاد جينارو منه بوجه أخبرني أن شيئًا مروّعًا قد حدث. كان الأمر أسوأ مما كان بمقدورنا تصوّر حدوثه، فقد كان تمويل الجمعية يُجمع عبر ابتزاز الإيطاليين الأغنياء

وتهديدهم بالعنف إذا ما رفضوا منح المال، وبدا أنهم قد تواصلوا مع صديقنا الخيّر العزيز كاستالوتي، الذي رفض الخضوع للتهديدات وسلّم الخطابات للشرطة، فعقدوا العزم حينها أن عليهم جعله عبرة كي لا تتمرد أي ضحية أخرى. رُتب الأمر في الاجتماع على أن يُفجر هو ومنزله باستخدام الديناميت، وأجريت قرعة بالسحب بين الكثيرين لتحديد فاعلها. رأى جينارو وجه عدوّنا المتوحش يبتسم له وقتما غمس يده في الكيس، ولا شك أن الأمر مرتب مسبقًا بطريقة ما، فقد كان القرص القاتل ذو الدائرة الحمراء، أمر القتل، هو ما استقر في كفه، وكان عليه إما أن يقتل صديقه العزيز، أو أن يعرض نفسه ويعرضني لانتقام رفاقه، فقد كان جزءًا من نظامهم الشيطاني أنهم يعاقبون أولئك الذين يخافون أو يكرهون بإيذائهم وإيذاء أحبابهم، وكانت معرفته بهذا شبح رُعبٍ جثم فوق رأس حبيبي جينارو المسكين وأودى به إلى مشارف الجنون ذعرًا.

جلسنا طوال تلك الليلة معًا، ذراعا أحدنا ملتفة على الآخر، ويقوّي أحدنا الآخر في مواجهة هذه الأثقال التي تكتنفنا، وكانت الليلة التالية تمامًا الموعد المحدد لتنفيذ العملية، وعند الظهيرة، كنت أنا وزوجي في طريقنا إلى لندن، لكن لم نغادر إلا بعد أن حذر صديقنا الخيّر وأحاطه علمًا بالخطر الذي يتربص به، وأعطى الشرطة أيضًا هذه المعلومات حماية لحياته في المستقبل.

أما البقية يا سادة، فتعرفونها بأنفسكم. كنا متأكدين أن أعداءنا سيتبعوننا، وكانت لجورجيانو أسبابه الشخصية للانتقام، لكننا في جميع الأحوال نعرف كم يمكنه أن يكون بربريًّا وأفّاكًا قاتلًا. إن كلتا إيطاليا وأمريكا تعجّان بقصص عن قدراته الرهيبة، وإذا ما كان له أن يبذلها في وقت ما فالآن هو الوقت الأفضل. استغل حبيبي عِدة الأيام الرائقة التي منحتنا إياها بدايتنا لترتيب ملجأ لي على نحو يمنع أي خطر من بلوغي، وبالنسبة له، فقد رغب بالبقاء طليقًا كي يتسنى له التواصل مع كل من الشرطة الأمريكية والإيطالية. أنا نفسي لم أكن أعرف أين يعيش، ولا كيف، وكل ما عرفته كان عبر أعمدة جريدة. لكن في إحدى المرات بينما كنت أنظر من النافذة، رأيت إيطاليَين يراقبان المنزل، وفهمت بطريقة ما أن جورجيانو قد وجد مخبأنا، وفي النهاية أخبرني جينارو عبر الجريدة أنه سيرسل إشارة لي عبر نافذة معينة، لكن حين جاءت الإشارة لم تكن إلا إنذارات قوطعت فجأة، والآن صار واضحًا جدًّا أنه أدرك اقتراب جورجيانو منه، وأنه والحمد لله! كان مستعدًّا له حين جاء. والآن يا سادة، أريد سؤالكم عما إذا كان ثمة أي سبب يدفعنا لنخشى القانون، أو ما إذا كان أي قاض على وجه الأرض ليدين حبيبي جينارو على ما اقترفه؟»

قال الأمريكي وهو يحدق بالضابط عبر الغرفة: «حسنًا يا سيد جريجسون، لا أدري ما قد تكون وجهة نظركم البريطانية للأمر، لكنني أعتقد أن زوج هذه السيدة سيتلقى كلمة شكر رسمية جدًّا في نيويورك».

أجاب جريجسون: «عليها القدوم معي ومقابلة رئيس الشرطة، وإذا كان ما تقوله مدعومًا بالأدلة فلا أظن أن لديها وزوجها ما يخشيانه، لكن الأمر الذي أعجز عن تفريق رأسه من قدميه، هو كيف، بحق السماء، علّقت نفسك بالمسألة يا سيد هولمز».

«التعلم يا جريجسون، التعلم. ما زلت أبحث عن المعرفة في الجامعة القديمة. حسنًا يا واتسون، لديك نموذج إضافي مأساوي ومدهش تضيفه إلى مجموعتك. بالمناسبة، لم تدق الساعة الثامنة بعد، وثمة أمسية لفاجنر في كوفينت جاردن! إذا ما تعجلنا فقد نصل في وقت عرض الفصل الثاني».

مغامرة مخططات بروس _ بارتينجتون

في الأسبوع الثالث من نوفمبر عام 1895، غَشي ضبابٌ أصفر سميك لندن، وأشك أنه كان ممكنًا رؤية أطياف المنازل على الطرف المقابل من نوافذنا في بيكر ستريت بين يومي الاثنين والخميس. قضى هولمز اليوم الأول في إعداد فهرسة متقاطعة لكتاب مراجعه الضخم، وانكبَّ في اليومين الثاني والثالث بأناةٍ على موضوعٍ شغله مؤخرًا، هو موسيقى القرون الوسطى. لكن وقتما نهضنا عن طاولة فطور اليوم الرابع، ورأينا أن الدوامة الزلجة البنية الثقيلة ما زالت تندفع نحونا وتُكاثف قطرات زيتية على زجاج النوافذ، لم تعد سجية صديقي المُتلهّفة النشطة قادرة على تحمل هذه العيشة الباهتة الرتيبة أكثر من ذلك، وصار يذرع غرفة جلوسنا جيئة وذهابًا باضطراب تشعله حُمًّى من الطاقة المكبوتة، يقضم أظافره، ويخبط الأثاث، مستاءً من هذا الجُمود.

وقال: «أثمة أي شيء مثير للاهتمام في الصحيفة يا واتسون؟»

كُنت مدركًا أنه يقصد في عالم الجريمة. كان ثمة أنباء عن اندلاع ثورة، وعن حرب مُحتملة النشوب، وعن تغيير وشيك في الحكومة؛ لكن لم تكن هذه الأشياء في حيّز اهتمام رفيقي، ولم أرَ خبرًا له شكل الجريمة إلّا وكان اعتياديًّا أو تافهًا، فتأوّه هولمز واستأنف تسكّعه الضَّجِر.

«إن المجرم اللندنيّ شخص أحمق بكل تأكيد»، قال بصوت متذمرٍ لرياضيّ خذلته لعبته، «أرسل نظرك خارج هذه النافذة يا واتسون، انظر كيف تلوح أطياف الأشكال وتُرى بصورة باهتة، ثم تعود لتضيع في السُحب من جديد، يُمكن للصِّ أو قاتل أن يجول لندن في يوم كهذا كما يجول النمر الدغل، لا يُرى حتى ينقضّ، ولا تراه إلا ضحيته حينها».

قلت: «لقد حدثت بعض السرقات التافهة».

ضحك هولمز ضحكة ازدراء.

وقال: «إن هذا المسرح العظيم القاتم مُعدٌّ لأشياء أقيم من ذلك، من حسن حظ هذا المجتمع أنني لست مجرمًا».

قُلت بكل قلبي: «من حسن حظهم فعلًا!»

«لنفترض أني كُنت بروكس أو وودهاوس، أو أيًّا من الخمسين رجلًا أصحاب الأسباب الوجيهة لإنهاء حياتي، لكم من الوقت يمكنني النجاة من مطاردة شيرلوك هولمز؟ مجرد استدعاء أو موعد زائف كفيل بإنهاء الأمر. أمرٌ حسنٌ أن أيام الضباب لا تمرّ على البلدان اللاتينية، بلدان الاغتيال. يا الله! ها قد جاء شيء ليكسر رتابتنا الجامدة أخيرًا».

كان ذلك الشيء هو الخادمة التي أتت وفي يدها برقية. مزّق هولمز المظروف وانفجر ضاحكًا.

قال: «حسنًا، حسنًا! إلامَ سيفضي هذا؟ إن أخي مايكروفت في طريقه إلى هنا».

سألته: «وما الغريب في ذلك؟»

– ما الغريب؟ إن الأمر يُشبه أن ترى عربة ترام تسير في زقاق ريفيّ. مايكروفت له سكة يمشي عليها، فغرفه المستأجرة في شارع بول مول، ونادي ديوجينيس، وشارع وايتهول، هي مسار حياته، ولم يأت إلى هنا إلا مرة، مرة واحدة فقط، فأيّ اضطراب قد حرفه عن مساره؟

– ألم يفسر ذلك؟

مرر لي هولمز برقية أخيه.

يجب أن أراكَ بخصوص كادوجان ويست، قادمٌ الساعة.

ـــــ مايكروفت

– كادوجان ويست؟ سمعتُ بهذا الاسم.

– لا يعيد شيئًا لذاكرتي. لكن اندفاع مايكروفت بهذه الطريقة الجانحة أشبه بخروج كوكب عن مساره! بالمناسبة، أتعرف ماذا يعمل مايكروفت؟

كنت أتذكّر بصورة ملتبسة توضيحًا قدمه لي مرةً وقت مغامرة المترجم اليوناني.

«لقد أخبرتني أنه كان يعمل في مكتب صغير تابعٍ للحكومة البريطانية».

قهقه هولمز.

– لم أكن أعرفك جيدًا في تلك الأيام، وعلى المرء توخي الحذر وقتما يتكلم عن شؤون الدولة العليا. أنت محق في اعتقادك أنه تابع للحكومة البريطانية، وستكون محقًّا أيضًا إلى حد ما إذا ما قلت إنه هو الحكومة البريطانية أحيانًا.

– ماذا تقول يا هولمز العزيز!

– اعتقدت أنني قد أفاجئك. يتقاضى مايكروفت أربعمئة وخمسين جنيهًا في العام، وسيبقى مرؤوسًا دون مطامع من أي نوع، ولن يتلقى أي تكريم أو لقب، لكنه رغم ذلك الرجل الأكثر ضرورة في البلاد.

– لكن كيف؟

– حسنًا، إن منصبه فريد من نوعه، وقد استحدثه لنفسه. لم يكن له نظير قبلًا، ولن يكون فيما بعد. إن له دماغًا أكثر تنظيمًا وتناسقًا، وقدرة أكبر على حفظ الحقائق، من أي شخص على قيد الحياة، وهو يوظف في عمله هذا بالتحديد نفس القدرات العظيمة التي وظفتها أنا في تحرّي الجرائم. تمرّ خلاصات الوزارات كافة إلى مكتبه، ثم هو أشبه بالبنك المركزي، وغرفة المقاصّة التي توازن الأمور. الجميع مختصون في شيء ما، لكن تخصصه هو معرفة كل شيء. لنفترض أن وزيرًا ما بحاجة لمعلومات تتعلق بنقطة تنطوي على البحرية، والهند، وكندا، وقضية نظام المعدنين؛ هو قادر على الحصول على آراء مستقلة حول كل منها من وزارات مختلفة، لكن مايكروفت وحده قادر على جمعها كلها وإخباره فورًا عن تأثير كل عنصر على الآخر. بدؤوا بالاستفادة منه باعتباره مُختصرًا للعمل، ووسيلة راحة؛ لكنه جعل نفسه جوهريًّا الآن. كل شيء مُرتب في كوّات داخل ذاك الدماغ العظيم، ويمكن إخراجه في طرفة عين. لطالما تقررت السياسة الداخلية وفق رأيه، فهو يعيشها، ولا يفكر بشيء آخر، إلا وقتما أطلبه وأسأله

المشورة في إحدى قضاياي الصغيرة، إذ إنه يسترخي بفعل ذلك ويعتبره تمرينًا فكريًّا. لكن جوبيتر قد هبط من عليائه اليوم، ماذا يمكن أن يعني هذا يا تُرى؟ ومن هو كادوجان ويست، وما علاقته بمايكروفت؟

صحتُ وأنا أغوص في كومة الأوراق المبعثرة على الكنبة: «وجدتها، أجل، أجل، ها هو بلا ريب! كادوجان ويست هو الشاب الذي عُثر عليه متوفيًا في نفق المترو صباح الثلاثاء».

اعتدل هولمز في جلسته يشده الاهتمام، وغليونه في منتصف الطريق إلى شفتيه.

«لا بد أن هذا أمر خطير يا واتسون، فلا يمكن لوفاة جعلت أخي يبدّل عاداته أن تكون وفاة اعتيادية، وما علاقته بها بحق السماء؟ كانت القضية روتينية كما أذكرها، إذ بدا أن الشاب قد سقط من القطار وقتل نفسه، لم يتعرض للسلب، ولم يكن ثمة سبب محدد للاشتباه بحدوث عنف، أليس كذلك؟»

قُلت: «أُجريَ استجواب أظهر عددًا لا بأس به من الحقائق الجديدة، وبتفحصها من كثب، عليّ القول إنها كانت قضية غريبة بالتأكيد».

«بالنظر إلى تأثيرها على أخي، أعتقد أنها لا بد أن تكون قضية في غاية الاستثنائية»، قال بينما استكن في كرسيه ذي الذراعين، «والآن يا واتسون، فلنناقش الحقائق».

– كان اسم الشاب آرثر كادوجان ويست، في السابعة والعشرين من عمره، أعزب ويعمل كاتبًا في ترسانة وولويتش.

– موظف حكوميّ، لاحظ صلته بأخي مايكروفت!

– غادر وولويتش بغتة مساء يوم الاثنين. كانت خطيبته، الآنسة فايوليت ويستبري، آخر من رآه، وقد تركها على عجل في الضباب نحو الساعة 7:30 في ذاك المساء. لم يتشاجرا ولم تستطع تسمية دافع لفعلته، ولم تعرف عنه شيئًا حتى اكتشف جثته عامل في السكك الحديدية اسمه ميسون، على مشارف محطة آلدجت لمترو لندن.

– متى؟

– وُجدت الجثة في الساعة السادسة من صباح الثلاثاء، كانت ممددة بعيدًا عن قضبان الخط الأيسر من المسار باتجاه الشرق، في نقطة قريبة من المحطة، حيث يخرج الخطّ من النفق الذي يسير فيه. كان الرأس مهشمًا للغاية، وهي إصابة محتملٌ جدًّا أن سببها وقعةٌ من القطار. لا يمكن للجثة أن تصل إلى المسار إلا بهذه الطريقة، فمن غير الممكن حملها من شارع مجاور دون عبور حواجز المحطة، حيث يقف جامع التذاكر دائمًا. هذه النقطة تبدو أكيدة تمامًا.

– جيد جدًّا، القضية واضحة بالحد الكافي. فإما أن الرجل قد وقع من القطار أو طُوّح به، سواء كان حيًّا أو ميتًا حينها.

– القطارات التي تجتاز خطوط السكة الحديدية التي وُجدت الجثة بجانبها هي القطارات المتجهة من الغرب إلى الشرق، بعضها متروبوليتاني بحت وبعضها من ويلسدن والتقاطعات البعيدة. يمكن

القول بصورة أكيدة إن الشاب كان مسافرًا بهذا الاتجاه في ساعة متأخرة من الليل وقتما لاقى حتفه، لكن من المستحيل تحديد النقطة التي استقل القطار منها.

– تذكرته ستخبرنا بذلك بالطبع.

– لم يكن يحمل تذكرة في جيوبه.

– بلا تذكرة! يا إلهي، إنه لأمر شاذ بحق يا واتسون، فبحسب خبرتي، ليس ممكنًا للمرء بلوغ منصة قطار متروبوليتاني دون إظهار تذكرته. لنفترض أن الشاب كان يحوز تذكرة آنذاك، هل أُخذت منه بُغية إخفاء اسم المحطة التي جاء منها؟ هذا محتمل، أو أنه أوقعها في العربة؟ وهذا ممكن أيضًا. لكن ثمة نقطة غريبة مثيرة للاهتمام، قلت إنه لم تُرَ أي علامات سرقة؟

– لا، على ما يبدو. ثمة قائمة بممتلكاته، تُظهر أن محفظته احتوت جنيهين وخمسة عشر بنسًا، وكان يحمل أيضًا دفتر شيكات من فرع وولويتش لبنك كابيتال آند كاونتيز، وجرى التعرف على هويته عن طريق أغراضه. كان معه أيضًا تذكرتا مقاعد شرفة لمسرح وولويتش يشير تاريخهما إلى ذاك المساء نفسه، وحزمة صغيرة من الأوراق التقنية.

أطلق هولمز آهة رضا.

«فهمنا المسألة أخيرًا يا واتسون! الحكومة البريطانية ووولويتش، الترسانة والأوراق التقنية وأخي مايكروفت، لقد اكتملت السلسلة. لكن ها هوَ قد أتى إن لم أكن مخطئًا، ليشرح الأمر بنفسه».

بعد هُنيهة، أطلّ مايكروفت هولمز بقوامه الطويل والمهيب على الغرفة، كان عملاقًا بدينًا، له هيئة توحي بكسل بدني غريب، لكن فوق ذاك الإطار الثقيل، جثم رأس ذو جبهة مُتسلّطة جدًّا، وعينان حديديّتا اللون غائرتان ويقظتان للغاية، وشفتان شديدتا الحزم، وبراعة عالية في التلاعب بتعابيره، لدرجة أن المرء ما إن يُلقي نظرته الأولى حتى ينسى البدن الإجمالي وينطبع في ذهنه الدماغ المهيمن فقط.

جاء في أعقابه صديقنا القديم لستراد من سكوتلاند يارد، نحيلًا ومتجهمًا كعادته، ترتسم على قسماتهما جديّة تنبئ بوجود مطلب جلل. صافحهما التحرّي دون أي ينطق بكلمة، وصارع مايكروفت معطفه حتى خرج منه وغار في كرسي ذي ذراعين.

وقال: «حدث أمر في قمة الإيذاء يا شيرلوك، إنني أمقت تبديل عاداتي أشد المقت، لكن السلطات المسؤولة لم تكن لتقبل الرفض. إن خروجي من المكتب في وضع سيام الراهن شيء في غاية الخطورة، لكن الأمر كارثة حقيقية، ولم أرَ رئيس الوزراء بهذا الاضطراب قط. وكذلك الأميرالية، إنها مقلوبة رأسًا على عقب كخلية نحلٍ هائجة. أقرأت القضية؟

– لقد قرأناها للتوّ، ما هي الأوراق التقنية؟

– آه، هنا مربط الفرس! ولحسن الحظ أنها لم تظهر، فظهورها سيسبب ثورانًا صحفيًّا. إن الأوراق التي كانت في حوزة هذا الشاب الصعلوك هي مخططات غواصة بروس – بارتينجتون.

تكلم مايكروفت برزانة تُبدي مدى أهمية الموضوع، وجلستُ أنا وأخوه مترقبين.

– لقد سمعتَ بها بالتأكيد أليس كذلك؟ أعتقد أن الجميع قد سمع بها.

– سمعت بالاسم فقط.

– إنها على درجة من الأهمية تصعب المبالغة بها، فقد كانت أكثر سر تحرص الحكومة على حمايته. أقول على كفالتي إن الحرب البحرية تصبح محالًا ضمن مدى عمل غواصة بروس – بارتينجتون. منذ عامين، جرى تهريب مبلغ ضخم جدًّا من المال عبر التقديرات الحكومية وأُنفق في الحصول على احتكار الاختراع، وبُذلت كل جهود ممكنة للحفاظ على السر. المخططات المعقدة للغاية، والتي تنطوي على نحو ثلاثين رخصة مستقلة كل واحدة منها أساسية في عمل الكل، محفوظة في خزانة مُحكمة في مكتب سرّي ملاصق للترسانة ومزود بأبواب ونوافذ مضادة للسرقة، ولم يكن أخذ المخططات من المكتب ممكنًا تحت أي ظروف مُحتملة. حتى رئيس معماريي البحرية ملزم بتحصيل إذن من مكتب وولويتش إذا ما أراد مراجعتها. ومع ذلك، ها نحن نجدها في جيب موظف شاب ميتٍ في قلب لندن. وأقول من وجهة نظر رسمية، إن هذا مروّع ببساطة.

– لكنكم قد استعدتموها، صحيح؟

– كلا يا شيرلوك، كلا! المأزق هو أننا لم نستعدها. أُخذت عشر ورقات من وولويتش، وعُثر على سبعٍ في جيب كادوجان ويست، والورقات الثلاث الأكثر أهمية قد ضاعت، سُرقت، اختفت. عليك أن تترك كل ما تعمل عليه يا شيرلوك، وألا تهتم بألغاز قسم الشرطة التافهة المعتادة. إنها قضية عالمية وعليك حلها. لماذا أخذ كاودجان ويست الأوراق، وأين الورقات المفقودة منها، وما سبب موته، وكيف وصلت جثته إلى حيث وجدوها، وكيف يمكن دفع البلاء؟ جِد جوابًا لهذي الأسئلة، وستكون قد قدمت خدمة قيّمة لبلادك.

– لم لا تحل الأمر بنفسك يا مايكروفت؟ فلديك ذات البصيرة التي أتمتع بها.

– ربما يا شيرلوك، لكنها مسألة جمع تفاصيل. أعطني التفاصيل التي ستحصل عليها، وسأعيدها لك على هيئة رأي خبير ممتاز وأنا جالس على كرسيّي، لكن التنقل هنا وهناك، ونبش المعلومات من حراس السكة الحديدية، والانبطاح واضعًا عدسة على عيني ليس من اختصاصي. كلا، أنت الشخص الوحيد القادر على استجلاء المسألة. إذا كنت راغبًا برؤية اسمك في قائمة الشرف التالية...

ابتسم صديقي وهز رأسه.

وقال: «أنا ألعب حبًّا باللعبة، لكن القضية تطرح بعض النقاط المثيرة للاهتمام بالتأكيد، سيسعدني تحرّيها. زودني بالمزيد من الحقائق من فضلك».

– لقد دوّنت الحقائق الأكثر ضروريةً على هذه الورقة، إلى جانب بعض العناوين التي ستخدمك. الحارس الفعلي الرسمي للأوراق هو الخبير الحكومي الشهير السير جيمس وولتر، الذي يمكن لأوسمته وألقابه أن تملأ سطرين في مرجعٍ ما. لقد شاب شعره في الخدمة، وهو رجل نبيل وضيف مميّز في أرفع البيوت مقامًا، ورجل ذو حس وطني يفوق أي شبهة فوق كل هذا. هو أحد شخصين يملكان مفتاح الخزنة. يمكنني أن أضيف أن الأوراق كانت في الخزانة بلا ريب أثناء ساعات الدوام في يوم الاثنين، وأن السير جيمس قد غادر إلى لندن قرابة الساعة الثالثة تمامًا حاملًا مفتاحه معه، وكان في منزل الأميرال سينكلير في ساحة باركلي طوال الأمسية التي وقعت فيها الواقعة.

– هل جرى التحقق من الأمر؟

– بلى؛ فقد شهد أخوه، الكولونيل فالنتاين وولتر، بمغادرته وولويتش، وشهد الأميرال سينكلير بوصوله إلى لندن؛ لذا لم يعد السير جيمس عنصرًا مباشرًا في القضية.

– من حامل المفتاح الآخر؟

– كبير الكتّاب ورسامي التصاميم السيد سيدني جونسون. هو في الأربعين من عمره، متزوج وله ثلاثة أطفال، رجل صامت كالح، لكنه في المحصلة يتمتع بسجل ممتاز في الخدمة العامة. ليس محبوبًا بين زملائه، لكنه عامل مجدّ، ووفق روايته الشخصية، التي تؤيدها زوجته فقط، فقد كان في المنزل طيلة مساء الاثنين بعد ساعات الدوام، ولم يغادر مفتاحه سلسلة الساعة التي يعلقه بها قط.

– أخبرنا عن كادوجان ويست.

– يشغل وظيفته منذ عشر سنوات وقد قدم عملًا جيدًا. له سمعة في كونه متسلطًا حاد الطباع، لكنه رجل مستقيم وشريف، ولا نملك أي شيء ضده. كان الرجل الثاني بعد سيدني جونسون في المكتب. وضعته وظيفته في تماس يومي وشخصي مع المخططات، ولم يكن متاحًا لغيره التعامل معها.

– من أقفل الخزنة على المخططات في تلك الليلة؟

– السيد سيدني جونسون، كبير الكتّاب.

– حسنًا، يبدو واضحًا وأكيدًا للغاية من الذي أخذها، فقد وُجدت بالفعل مع شخص هذا الموظف الصغير، كادوجان ويست، وهذا يبدو حاسمًا، أليس كذلك؟

– بلى يا شيرلوك، لكن مع ذلك يبقى الكثير دون تفسير، وفي المقام الأول، لِمَ أخذها؟

– أفترض أنها ثمينة، صحيح؟

– كان باستطاعته الحصول على عدة من الآلاف في مقابلها بسهولة بالغة.

– أيمكنك اقتراح أي دافع محتمل لأخذ الأوراق إلى لندن سوى الرغبة ببيعها؟

– كلا، لا يمكنني.

– إذًا علينا اعتبارها فرضيتنا الفاعلة. لقد أخذ ويست الشاب الأوراق، ولا يمكن فعل هذا إلا بامتلاكه مفتاحًا مزورًا...

– عدة مفاتيح مزورة، فعليه أيضًا فتح المبنى والغرفة.

– كان معه عدة مفاتيح مزورة إذًا، وأخذ الأوراق إلى لندن ليبيع السر، وكان ناويًا، دون شكٍّ، أن يعيد المخططات ذاتها إلى الخزنة في الصباح التالي قبل أن يشعر أحد بغيابها، وقد لاقى حتفه أثناء وجوده في لندن في هذه العملية الغادرة.

– كيف؟

– سنفترض أنه كان عائدًا إلى وولويتش عندما قُتل وقُذف من المقصورة.

– إن آلدجيت، حيث وُجدت الجثة، تتجاوز محطة جسر لندن بكثير، والتي يُفترض أن تكون طريقه إلى وولويتش.

– يمكن تخيّل الكثير من الظروف التي قد تكون سببًا في تجاوزه محطة جسر لندن. كأن يكون قد تواجه مواجهةً حماسية مع شخص ما في العربة، وقادت هذه المواجهة إلى مشهد عنيف فقد فيه حياته. ربما حاول الخروج من العربة، فسقط على المسار وانتهى أمره، وأغلق الآخر الباب. ولم يكن ممكنًا رؤية شيء في ظل تلك الضبابة السميكة.

– لا يمكن تقديم تفسير أفضل في ظل معرفتنا الراهنة؛ لكن انتبه يا شيرلوك كم من الأمور تغفلُ رغم ذلك. لنفرض جدلًا أن كادوجان ويست كان قد قرر حمل هذه الأوراق إلى لندن، فمن الطبيعي أن يكون على موعد مع العميل الأجنبي ولا مخططات مسائية لديه، لكنه بدلًا عن ذلك اشترى تذكرتين إلى المسرح، ورافق خطيبته مسافة نصف الطريق إلى هناك، ثم اختفى بغتة.

قال لستراد الذي كان جالسًا يستمع إلى المحادثة ببعض التململ:

«ثمة نقطة عمياء، نقطة غريبة جدًّا. وهي أنه من الاحتجاج الأول والثاني، يمكننا أن نفترض أنه بلغ لندن لرؤية العميل الأجنبي، وعليه إعادة الورقات قبل الصباح أو سيُكتشف غيابها. أخذ عشر الورقات لكن عُثر على سبع في جيبه فقط. ماذا أصاب الثلاث البقية؟ لن يتخلى عنها بإرادته الشخصية قطعًا، إذًا، مرة أخرى، أين ثمن خيانته؟ إن المرء ليتوقع إيجاد مبلغ ضخم من المال في جيبه».

قال لستراد: «يبدو الأمر واضحًا للغاية، ولا أملك أدنى شك فيما حدث. لقد أخذ الأوراق ليبيعها، ثم قابل العميل ولم يتفقا على الثمن. انطلق عائدًا إلى المنزل، لكن العميل ذهب معه، وقتله على متن القطار، وأخذ الأكثر أساسيةً، ثم رمى الجثة من العربة. هذا يشرح كل شيء، أليس كذلك؟

– ولِمَ لم يكن معه تذكرة؟

– من شأن التذكرة أن تدلّ على المحطة الأقرب إلى منزل العميل، ولهذا أخذها من جيب القتيل.

قال هولمز: «جيد يا لستراد، جيد جدًّا، نظريتك متماسكة. لكن إن كان ما تقوله حقيقة فالقضية منتهية. من جهة، الخائن ميت، ومن جهة أخرى، يُفترض أن مخططات غواصة بروس – بارتينجتون قد وصلت إلى القارة بالفعل، فما الذي يمكننا فعله؟»

وثب مايكروفت على قدميه وصاح: «أن نتصرف يا شيرلوك، أن نتصرف! كل غرائزي تعارض هذا التفسير، استخدم قدراتك! اذهب إلى مسرح الجريمة! قابل كل من له علاقة بالأمر واقلب المكان حجرة حجرة! فلم تحظَ في كل مسيرتك المهنية بفرصة عظيمة مثل هذه لخدمة بلادك».

«حسنًا حسنًا!» قال هولمز وهو يهز كتفيه، «هيا بنا يا واتسون! وأنت يا لستراد، أيمكنك مباركتنا بصحبتك لساعة أو اثنتين؟ سنبدأ تحقيقنا بزيارة إلى محطة آلدجيت. إلى اللقاء يا مايكروفت، سأرسل لك تقريرًا قبل حلول المساء، لكني أُنذرك مسبقًا، لا ترفع سقف توقعاتك».

بعد انقضاء ساعة، كنت أنا وهولمز ولستراد واقفين على سكة المترو في النقطة التي يخرج منها من النفق مباشرة قبل أن يدخل محطة آلدجيت، ومعنا سيد عجوز دمث أحمر الوجه يمثل شركة السكك الحديدية.

قال مشيرًا إلى نقطة تبعد نحو ثلاثة أقدام عن القضبان: «هنا كانت ممددةً جثة الشاب، ولا يمكن أن تكون قد سقطت من الأعلى، فكما ترون، هذه الجدران كلها مصمتة. وعليه، لا مجال إلا أنها جاءت عبر

قطار ما، وبحسب ما وصلنا إليه في تعقب ذاك القطار، فلا بدّ أنه قد مرّ قرابة منتصف ليلة الاثنين».

– هل جرت معاينة العربات بحثًا عن أي دليل على حدوث أعمال عنف؟

– لم يُعثر على أدلة كهذه، ولا على تذكرة.

– ألوحظ وجود باب مفتوح؟

– ولا باب.

قال لستراد: «لقد حصلنا على دليل جديد هذا الصباح، فقد أفاد مسافر مرّ في محطة آلدجيت على متن قطار متروبوليتانيّ عاديّ قرابة الساعة 11:40 ليلَ الاثنين أنه قد سمع رطمة ثقيلة كما لو أن جسدًا ما خبطَ على المسار، قبل وصول القطار إلى المحطة مباشرة، لكن كان ثمة ضبابة كثيفة تحجب الرؤية. لماذا؟ ما المسألة التي يبحثها السيد هولمز؟»

كان صديقي واقفًا يعلو وجهه تعبير ينمّ عن أعصاب مشدودة، محدقًا إلى قضبان السكة الحديدية حيث تنحني خارجة من النفق. إن محطة آلدجيت نقطة تقاطع، وهناك شبكة من التحويلات تركزَ بصره المتلهّف الشكّاك عليها، وقد رأيت على وجهه الثاقب اليقظ، زمّة الشفتين تلك، ورعشة المنخرين، وتقطيبة الحاجبين الكثّين البارزين التي كُنت أعرفها جيدًا جدًّا.

دمدم: «تحويلات، التحويلات»

– ماذا عنها؟ ما قصدك؟

– أفترض أن عدد التحويلات على نظام كهذا ليس كبيرًا، أليس كذلك؟

– لا؛ إنها قلة قليلة.

– ومنعطف، تحويلات ومنعطف. يا الله! لو أن الأمر هكذا فقط.

– ما الأمر سيد هولمز؟ هل التقطت طرف خيط؟

– ليس طرف خيط، بل مؤشرًا لا أكثر، لكن القضية تزداد تشويقًا بالتأكيد. إنها فريدة من نوعها، فريدة تمامًا، ومع ذلك، لمَ لا أرى أي آثار نزفٍ على المسار؟

– بالكاد رأينا أي آثار.

– لكن الجثة كانت مصابةً بجرح بالغ كما فهمت.

– كان العظم مهشمًا، لكن دون إصابة خارجية حادة.

– لكن المرء ليتوقع بعض النزيف رغم ذلك، أيمكنني تفحص القطار الذي كان فيه ذاك المسافر الذي سمع خَبطة السقطة في الضباب؟

– أخشى أن ذلك غير ممكن يا سيد هولمز، فقد حُل القطار مُسبقًا وأُعيد توزيع العربات.

قال لستراد: «أؤكد لك أن العربات عوينت بعناية؛ واحدةً واحدة يا سيد هولمز، وقد توليت الأمر بنفسي».

كانت إحدى أكثر نقاط ضعف صديقي وضوحًا، هي نفاد صبره في التعامل مع أصحاب النباهة الأقل يقظة منه.

فقال وهو يستدير مغادرًا: «محتمل جدًّا، لكن لم تكن العربات ما أرغب بمعاينته في الحقيقة. لقد أنهينا عملنا هنا يا واتسون، ولا نريد التثاقل عليك أكثر يا سيد لستراد. أعتقد أن علينا استكمال التحقيقات في وولويتش الآن».

في محطة جسر لندن، كتب هولمز برقية لأخيه مررها إليَّ قبل إرسالها. قال فيها:

> أرى بصيص نور في الظلمة، لكن انطفاءه محتمل. أرجو أن ترسل في هذه الأثناء مع رسول من عندك قائمة كاملة بأسماء كل الجواسيس الأجانب أو العملاء العالميين المعروف أنهم في لندن، مع عناوينهم الكاملة.
>
> ـــــــ شيرلوك

علق قائلًا بينما كنا نستوي في مقاعدنا على قطار وولويتش: «ينبغي أن يكون هذا مفيدًا يا واتسون، إننا مدينون لأخي مايكروفت بالتأكيد لتقديمه لنا ما يبشّر بأن يكون قضية استثنائية جدًّا بالفعل».

كانت علائم الانفعال وضيق الخلق ما زالت بادية على وجهه التوّاق، ما دلّني إلى أن رواية وظرفًا إيحائيًّا ما قد استهلّا مسار فكر جديد، فالتغيّر الذي أصاب هولمز منذ الصباح يشبه مقارنة كلب صيد الثعالب بأذنيه المتدليتين وذيله المجرور خلفه أثناء تكاسله بين بيوت الكلاب، بحالته وقتما يعدو بعضلات مشدودة وعينين لامعتين خلف رائحة ملء صدره. لقد كان رجلًا مختلفًا عن ذاك المُرتخي المتكاسل الذي كان يذرع الغرفة المُطوّقة بالضباب مضطربًا في رداء نومه البنيّ الرماديّ منذ عدة ساعات فحسب.

وقال: «ثمة أشياء مهمة هنا، ثمة فرصة، وأنا أحمق حقيقي لعدم إدراكي احتمالاتها».

– إنها مُبهمة بالنسبة لي حتى الآن.

– النهاية مُبهمة بالنسبة لي أيضًا، لكن لدي فكرة ربما تقودنا إلى مكان بعيد، وهي أن الرجل قد لاقى حتفه في مكان آخر، وكانت جُثته على سطح العربة».

– على السطح!

– عجيب، أليس كذلك؟ لكن تأمل الحقائق. أهي صُدفة أنها وُجدت في النقطة ذاتها حيث ينحدر القطار ويتمايل لاقترابه من نقطة التحويلات؟ أليس هذا المكان الذي يُتوقع سقوط غرض موضوع على السطح فيه؟ لن يكون لنقطة التحويلات أثر على أي غرض داخل القطار، فإما أن الجثة سقطت عن السطح، أو أن مصادفة غريبة جدًّا قد حدثت. والآن تأمل مسألة النزيف، بالطبع لن يكون ثمة نزيف على الخطّ إذا ما كانت الجثة قد نزفت في مكان آخر. كل حقيقة إيحائية بذاتها، ولكلها معًا قوة الدليل التراكمي.

صحت: «والتذكرة أيضًا!»

– تمامًا، لم نستطع تفسير غياب تذكرة، لكن هذا يفسره. كل شيء منسجم.

– لكن لنفرض أن الأمر كذا، ما زلنا لم نقترب البتة من كشف لغز وفاته، ولم يسهُل الأمر حقيقةً، بل غدا أغرب.

قال هولمز بتفكّر: «ربما، ربما». ثم انشغل بحلم يقظة صامت استمر حتى توقف بنا القطار البطيء في محطة وولويتش، وهناك طلب سيارة أجرة وأخرج ورقة مايكروفت من جيبه.

قال: «لدنيا جولة صغيرة من الزيارات المسائية التي يتعيّن القيام بها، وأعتقد أن السير جيمس وولتر يسترعي اهتمامنا الأول».

يقطن الموظف الشهير في فيلا بديعة لها مروج خضراء تمتد وصولًا إلى نهر التايمز، كان الضباب ينقشع وقتما وصلنا، وشعاع شمس رقيق نديّ يخترق الأجواء. فتح خادمٌ الباب استجابة للجرس.

وقال بوجه كئيب: «السير جيمس يا سيدي! لقد توفّي السير جيمس هذا الصباح».

صاح هولمز مذهولًا: «يا للسماوات! كيف توفّي؟»

– أترغبان بالدخول ومقابلة أخيه الكولونيل فالنتاين، يا سيدي؟

– أجل، من الأفضل أن نفعل.

ساقنا الخادم إلى مرسم خافت الإنارة، حيث انضم إلينا بعد قليل الأخ الأصغر للعالِم المتوفّى، وكان رجلًا وسيمًا فارعًا ذا لحية خفيفة في الخمسين من عمره. دّلت عيناه التائهتان، ووجنتاه المُبقّعتان، وشعره الأشعث على البليّة المباغتة التي حلت على العائلة، وبالكاد كان واضحًا وقتما تكلم عنها.

قال: «كان ذلك بسبب هذه الفضيحة الشنيعة. إن أخي السير جيمس رجل ذو شرف رفيع للغاية، ولم يستطع تحمل قضية كهذه، لقد حطمَت قلبه. لطالما كان فخورًا بكفاءة وزارته، وتلك كانت كارثة قاصمة».

– كنا نأمل أن يمنحنا بعض المؤشرات التي من شأنها مساعدتنا في استيضاح المسألة.

– أؤكد لك أن الأمر برمته كان لغزًا بالنسبة له كما هو بالنسبة لك ولنا جميعًا، وقد وضع كل معلوماته تحت تصرف الشرطة بالفعل، وبطبيعة الحال، لم يكن لديه شكٌّ بأن كادوجان ويست هو المذنب. لكن كل ما تبقى لا يُصدق.

– أيمكنك إخبارنا بأي شيء لا نعرفه بخصوص القضية؟

– لا أعرف شيئًا بنفسي إلا ما قرأت أو سمعت. لا أرغب بأن أكون فظًّا، لكن يمكنك أن تتفهّم أننا مشوّشون جدًّا في الوقت الراهن يا سيد هولمز، وعليّ أن أطلب منك التعجّل في إنهاء هذا اللقاء.

قال صديقي بعدما عُدنا إلى سيارة الأجرة: «إن هذا لتطور مفاجئ، وإني لأعجبُ ما إذا كانت الوفاة طبيعية أو أن ذاك العجوز التعس قد انتحر! أيمكننا اعتبارها علامة على تأنيب الضمير بسبب الإهمال في أداء الواجبات إذا ما كان انتحارًا؟ لا بدّ أن نترك إجابة هذا السؤال للمستقبل، والآن علينا الالتفات إلى كادوجان ويست».

كان يؤوي الأمَّ الثكلى منزل صغير لكنه محاط بكمٍّ جيد من العناية في تخوم القرية، فجيعة السيدة العجوز بالأسى قد جعلتها غير نافعة لنا، لكن كان ثمة شابة شاحبة الوجه إلى جانبها، وقد عرّفت عن نفسها بأنها الآنسة فايوليت ويستبيري، خطيبة المتوفّى، وآخر من رآه في تلك الليلة المفجعة.

وقالت: «لا يمكنني فهم ذلك يا سيد هولمز، لم يغمض لي جفن منذ وقوع المأساة، أفكّر وأفكّر وأفكّر ليلًا ونهارًا بما يمكن للمعنى الحقيقي أن يكون. لقد كان آرثر أكثر رجال الأرض إخلاصًا ونبلًا ووطنية، وكان ليقطع يده اليمنى قبل أن يبيع سرًّا من أسرار الدولة ائتُمن على حفظه. إن الأمر سخيف، محالٌ وغير معقول في نظر كل من يعرفه».

– لكن ماذا عن الحقائق يا آنسة ويستبيري؟

– أجل أجل؛ أعترف بعجزي عن تفسيرها.

– هل كان بحاجة للمال؟

– كلا؛ فحاجاته كانت بسيطة جدًّا وراتبه يكفيها، وكان قد ادّخر بضع مئات من أجل زواجنا المقرر في رأس السنة الجديدة.

– هل لاحظت أي علامات تدل على اضطراب عقلي؟ كوني صريحة معنا يا آنسة ويستبيري.

التقطت عين رفيقي الثاقبة بعض التغيّر الذي طرأ على صورتها، فقد تبدّل لونها وتلعثمت.

وقالت أخيرًا: «بلى، انتابني إحساس بأن شيئًا ما كان يشغل تفكيره».

«كم استمر ذلك؟»

«في الأسبوع الفائت أو نحو ذلك فقط، كان قلقًا وكثير التفكير، وعندما ضغطت عليه ليخبرني ما الأمر، أقرّ أن ثمة أمرًا ما، وأنه متعلق بحياته الوظيفية، وقال: «الأمر أخطر من أن أتحدث عنه، حتى إليكِ»، ولم أستطع استنطاقه أكثر من ذلك».

تجهّم وجه هولمز.

– تابعي يا آنسة ويستبيري، استمري حتى لو بدا أن كلامك ليس في صالحه، فلا يمكننا معرفة إلى أين قد يفضي ذلك.

– في الحقيقة، لست أملك ما أضيفه. بدا لي مرة أو مرتين أنه على وشك أن يخبرني شيئًا ما، وتكلم في إحدى الأمسيات عن أهمية السر، وأذكر شيئًا من قوله إن الجواسيس الأجانب سيدفعون مبالغ طائلة مقابل الحصول عليه من غير ريب.

ازداد وجه صديقي تجهمًا.

– أثمة شيء آخر؟

– قال إننا متقاعسون في بعض المسائل لدرجة تسهّل على الخائن الحصول على المخططات.

– هل كانت تعليقاته هذه محصورة في الفترة الأخيرة فقط؟

– أجل، مؤخرًا جدًّا.

– أخبرينا الآن عن الأمسية الأخيرة.

– كنا معتزمَين الذهاب إلى المسرح، وحالت كثافة الضباب دون استقلالنا عربة أجرة، فمشينا، وكان طريقنا يمرّ قريبًا من المكتب، وفجأة انطلق وغارَ في الضباب.

– دون أن يقول شيئًا؟

– أطلق آهةً؛ وكان هذا كل شيء. انتظرته لكنه لم يرجع، فمشيت إلى المنزل، وجاؤوا في الصباح التالي بعد أن فُتح المكتب بغية التحقيق، وسمعنا الخبر المريع قرابة الساعة الثانية عشرة. آه يا سيد هولمز، لو كان بإمكانك تبرئة شرفه فقط! لقد كان يعني له الكثير جدًّا.

هز هولمز رأسه بحزن.

وقال: «هيا بنا يا واتسون، فسبيلنا في مكان آخر. ينبغي أن تكون محطتنا التالية هي المكتب الذي أُخذت منه الأوراق»، وعلّق بينما انطلقت عربة الأجرة متثاقلة: «كانت الأدلة تجرّم هذا الشاب بما فيه الكفاية، لكن تحرياتنا جرمته أكثر. إن زواجه المقبل يمنحه دافعًا للجريمة، فهو بطبيعة الحال بحاجة للمال، والفكرة كانت تراوده أصلًا، بما أنه تكلم عنها، وقد أوشك أن يجعل الفتاة شريكة في الخيانة بإخبارها خططه. الأمر كله في غاية السوء».

– لكن يجب أخذ شخصيته بعين الاعتبار بالتأكيد أليس كذلك يا هولمز؟ ثم مُجددًا، لمَ هجر الفتاة في الشارع وانطلق ليرتكب جريمة؟

– بالضبط؟ هناك اعتراضات دون شك. لكنها حجة جسيمة عليهما مواجهتها.

قابلَنا السيد سيدني، كبير الكتّاب، في مكتبه. لاقانا بالاحترام الذي لطالما فرضته بطاقة رفيقي. كان رجلًا نحيلًا جلفًا في منتصف عمره يرتدي نظارات طبية، وجنتاه مجهدتان ويداه ترتعشان من التوتّر العصبي الذي تعرض له.

– الحال سيئ يا سيد هولمز، سيئ جدًّا! أسمعت بنبأ وفاة الرئيس؟

– لقد جئنا من منزله للتوّ.

– المكان تعمه الفوضى، فالرئيس ميت، وكادوجان ويست ميت، وأوراقنا مسروقة، مع أننا كُنا مكتبًا فاعلًا كأي مكتب في الخدمة الحكومية وقتما أغلقنا أبوابنا مساء الاثنين. يا إلهي، من المروّع التفكير في الأمر! أنّ ويست، من بين كل الرجال، قد فعل شيئًا كهذا!

– أنت متأكد أنه مذنب إذًا؟

– لا أرى أي تفسير آخر، ومع ذلك، كنت لأثق به كما أثق بنفسي.

– في أي ساعة أُغلق المكتب يوم الاثنين؟

– في الخامسة.

– أأنت من أغلقه؟

– أنا دائمًا آخرُ من يخرج.

– أين كانت المخططات؟

– في الخزانة، وضعتها هناك بنفسي.

– ألا يوجد حارس للبناء؟

– بلى، لكن لديه أقسام أخرى ليحرسها. إنه جندي قديم ومن أكثر الرجال جدارة بالثقة. لم يرَ شيئًا ذاك المساء، وكان الضباب كثيفًا جدًّا بالطبع.

– لنفترض أن كادوجان ويست أراد دخول البناء بعد ساعات الدوام؛ فسيحتاج إلى ثلاثة مفاتيح قبل أن يبلغ الأوراق، صحيح؟

– هذا صحيح، سيحتاج مفتاح الباب الخارجي، ومفتاح المكتب، ومفتاح الخزانة.

– وهذه المفاتيح معك ومع السير جيمس وولتر فقط، أليس كذلك؟

– لا أملك مفاتيح للأبواب، مفتاح الخزانة فقط.

– هل كان السير جيمس رجلًا منتظم العادات؟

– بلى، أعتقد أنه كان كذلك. ما أعرفه بخصوص تلك المفاتيح أنه يحتفظ بها معلقة في حلقة واحدة، وغالبًا ما رأيتها على هذا الحال.

– وقد أخذ تلك الحلقة معه إلى لندن؟

– هذا ما قاله.

– ولم تفقد مفتاحك البتة؟

– أبدًا.

– إذًا، لو كان ويست هو الجاني، فلا بدّ أنه يملك نسخة، ومع ذلك لم يُعثر على واحدة مع جثته. ثمة نقطة أخرى: إذا ما أراد موظف ما في هذا المكتب أن يبيع المخططات، ألن ينسخها ببساطة بدلًا من أخذ الأصلية كما حدث بالفعل؟

– يتطلب نسخ المخططات بطريقة فعالة معرفة تقنية كبيرة.

– لكن أفترض أنك أنت والسير جيمس وويست تملكون تلك المعرفة التقنية، صحيح؟

– أجل بلا ريب، لكن أتوسّل إليك ألا تحاول توريطي بالمسألة يا سيد هولمز. ما فائدة تخميننا بهذه الطريقة وقد عُثر على المخططات الأصلية مع ويست؟

– حسنًا، إنه لغريب بالتأكيد أن يجازف بأخذ الأصلية في حين كان قادرًا على أخذ نُسخٍ بطريقة مضمونة، وهو ما كان سيخدم غرضه بنفس الفاعلية.

– غريب دون شك، لكنه فعلها مع ذلك.

– كل تحقيق في هذه القضية يكشف شيئًا متعذر التفسير. الآن ثمة ثلاث ورقات ما زالت مفقودة، وهي، بحسب فهمي، الورقات الأساسية.

– هذا صحيح.

– أتقصد القول إن أي شخص يحوز هاته الورقات الثلاث، يمكنه بناء غواصة بروس – بارتينجتون دون السبع البقية؟

– لقد أرسلتُ تقريرًا إلى الأميرالية بهذا الصدد، لكني كنت أراجع التصاميم مجددًا اليوم، ولست واثقًا جدًّا من ذلك، فالصمامات المضاعفة ذات الشقوق الآلية ذاتية الضبط مرسومة في إحدى الأوراق التي استُرجعت، ولا يمكن للأجانب صناعة المركبِ إلى أن يخترعوا ذلك بأنفسهم، وقد يتغلبون على هذه الصعوبة قريبًا بالطبع.

– لكن التصاميم الثلاثة المفقودة هي الأكثر أهمية؟

– بلا شكّ.

– أعتقد أنني سأذهب في جولة حول المبنى بعد إذنك، فلا يخطر لي أي سؤال آخر أرغب بطرحه عليك.

تفحّص قفل الخزانة، وباب الغرفة، والمصاريع الحديدية للنافذة أخيرًا، ولم يُثِر اهتمامه بشدة إلا حينما كنا في الحديقة بالخارج. كانت ثمة أحراش غار أسفل النافذة، وبدا على عدة أغصان علامات ثني أو تكسّر. عاينها بحذر مستخدمًا عدسته، ثم فحص بعض الآثار المبهمة والملتبسة على الأرض تحتها، وفي النهاية، طلب من كبير الموظفين أن يغلق المصاريع الحديدية، ثم أوضح أنها بالكاد تلتقي في المنتصف، ومن الممكن لأي شخص في الخارج أن يرى ماذا يحدث داخل الغرفة.

«لقد فسدت الأدلة نتيجة ثلاثة أيام من التأخير، لذا قد تحمل معنًى ما وقد لا تحمل. حسنًا يا واتسون، لا أرى أن وولويتش قادرة على مساعدتنا أكثر من ذلك. لم نحصد إلا غلة ضئيلة هنا، لنرَ ما إذا كنا سنحصد أكثر في لندن».

أضفنا رغم ذلك حُزمة أخرى إلى حصادنا قبل مغادرة محطة وولويتش، فقد كان موظف مكتب التذاكر واثقًا من رؤيته كادوجان ويست الذي يعرفه جيدًا بالعيان في ليلة الاثنين، وأنه غادر إلى لندن على متن قطار الساعة 8:15 المتوجه إلى محطة جسر لندن. كان وحيدًا واشترى تذكرة واحدة من الدرجة الثالثة، واندهش الموظف من سحنته المضطربة المحمومة حينها، فقد كان يرتعد إلى درجة بالكاد استطاع التقاط الفكة معها، وأعانه الموظف في ذلك. تبين بعد الرجوع إلى جدول المواقيت أن قطار الساعة 8:15 هو أول قطار يمكن لويست ركوبه بعد أن ترك الآنسة نحو الساعة 7:30.

قال هولمز بعد نصف ساعة من الصمت: «دعنا نعيد بناء القصة يا واتسون، لا أتذكر أننا قد حظينا بقضية صعبة التفسير كهذه في كل أبحاثنا المشتركة قط، فكل تطور جديد نحققه يكشف ثغرة جديدة خلفه، لكننا حققنا بعض التقدم الملحوظ».

– إن حصيلة تحرياتنا في وولويتش تقف إجمالًا ضد الشاب كادوجان ويست؛ لكن العلامات على النافذة قد تدل على نظرية أخرى أكثر ملاءمة. لنفترض مثلًا، أن عميلًا أجنبيًّا ما قد تقرب منه، وربما حدث ذلك في ظل تعهدات ما من شأنها منعه عن التكلم في الأمر، لكنها مع ذلك أثرت على أفكاره بمنحى واضح في تعليقات خطيبته، هذا جيد جدًّا. والآن لنفترض أنه أثناء ذهابه إلى المسرح مع الشابة، لمح فجأة العميل نفسه في الضباب ذاهبًا باتجاه المكتب، وهوَ رجل مندفع سريع اتخاذ القرار، فدفعه كل شيء إلى منح واجبه الأولوية، فلاحق الرجل، وشاهد سرقة المستندات وطارد السارق. بهذه الطريقة نتجاوز حجة أن ما من أحد سيأخذ الأصلية في حين بإمكانه نسخها، لأن الدخيل اضطُر إلى أخذ الأصلية. حتى الآن كل شيء متماسك.

– وما الخطوة التالية؟

– هنا نواجه مشقة، فإن المرء ليتخيل أن أول ما قد يفعله كادوجان ويست الشاب في ظل ظروف كهذه هو أن يحتجز المجرم ويضرب الإنذار. لمَ لم يفعل ذلك؟ أيعقل أن سارق الأوراق واحد من كبار الموظفين؟ هذا قد يفسر سلوك ويست. أو أن هذا المسؤول قد تملص من ويست في الضباب، ثم انطلق

ويست على الفور إلى لندن ليسبقه إلى مكان إقامته الشخصي، على فرض أن الأخير يعرف أين يقع ذلك؟ لا بد أن الحاجة كانت ملحة جدًّا بما أنه ترك الفتاة واقفة في الضباب ولم يبذل أي جهد في التواصل معها. إننا نفقد الأثر هنا، وثمة فجوة شاسعة بين كلتا النظريتين، وتمددُ جثة ويست بسبع ورقات في جيبه على سطح قطار ميتروبوليتاني. إن حدسي يخبرني بأن نتبع المسألة من الجانب الآخر الآن، فإذا منحنا مايكروفت لائحة العناوين قد نتمكن من اختيار رجلنا المطلوب وتقفي أثرين بدلًا من واحد.

كان ثمة خطاب ينتظرنا في بيكر ستريت بالتأكيد، جلبه رسول حكومي على وجه السرعة. ألقى هولمز نظرة عليه وقذفه إليَّ، كُتب فيه:

> ثمة عدد كبير مِمَّن لا يُعتد بهم، لكنّ قليلًا مِمَّن قد يتعاملون مع قضية بهذا الحجم. الرجال الوحيدون الذين يستأهلون التفكير بهم هم آدولف ماير، في 13 شارع غريت جورج، ويستمينستر؛ ولويس لا روثييه، في كامبدن مانشنز، نوتينج هيل؛ وهيوجو أوبرشتاين، في 13 كولفيلد جاردنز، كينسنجتون. عُرف أن الأخير كان في المدينة يوم الاثنين وأبلغت التقارير أنه قد غادر الآن. تسرني معرفة أنك ترى بصيص نور. مجلس الوزراء ينتظر تقريرك النهائي على أحر من الجمر. وصل ممثلون عاجلون من أرفع الأقسام، وكل قوات الدولة تساندك إذا ما احتجتها.
>
> ـــــ مايكروفت

قال هولمز مبتسمًا: «أخشى أن لا طائل من كل خيول الملكة ورجالها في هذه المسألة». ثم نشر خريطة لندن الكبيرة خاصته وانحنى عليها بتلهّف. قال سريعًا بنبرة تنم عن رضًا: «حسنًا حسنًا، الأمور تميل صوبنا بعض الشي أخيرًا. لا أعرف لمَ أعتقد بأمانة يا واتسون أننا سنحل المشكلة رغم كل شيء». ثم صفعني على كتفي تحركهُ دفعة ابتهاج مباغتة، «أنا خارجٌ الآن، سأقوم ببعض الاستكشاف فقط، ولن أفعل شيئًا خطيرًا دون وجود رفيقي ومترجم سيرتي المعتمَد إلى جانبي. ابقَ هنا، ومن المرجح أنك ستراني مجددًا بعد ساعة أو اثنتين. إذا مرّ الوقت ثقيلًا عليك، أحضر ورقة كبيرة وقلمًا، واشرع بكتابة حكاية إنقاذنا الدولة».

شعرت بانعكاس بعض من بهجته عليّ، كوني أعرف جيدًا أنه لم يكن ليهجر سلوكه المتزمت المعهود إلى هذا الحد إلا بوجود سبب وجيه يدعو إلى الغبطة. انتظرته طوال تلك الأمسية النوفمبرية، يتآكلني نفاد الصبر لعودته، وأخيرًا، وصل رسول يحمل خطابًا بعد الساعة التاسعة بقليل.

> أنا أتعشّى في مطعم جولدينيز، في طريق جلوستر، كينسنجتون. أرجو أن تنضم إلي هناك في الحال، واجلب معك عتلة صغيرة، وفانوسًا يمكن تغطية زجاجه، وإزميلًا، وطبنجة.
>
> ـــــ ش. ه.

كانت تلك أغراضًا لطيفةً لأن يحملها مواطن محترم عبر شوارع المدينة المعتمة الضبابية. خبأتها بكل حذر في معطفي وانطلقت مباشرة إلى العنوان المعطى. هناك رأيت صديقي جالسًا إلى طاولة مستديرة صغيرة بجوار باب المطعم الإيطالي المزوّق.

– هل أكلت شيئًا؟ إذًا شاركني احتساء القهوة والكوراسو. جرب واحدًا من سجائر المالك، إنها أقل سمّيةً مما قد يتوقع المرء. هل جلبت الأدوات؟

– إنها في معطفي.

– ممتاز، دعني أوضح لك بصورة مختصرة ما فعلتُ، مع بعض الإشارة لما نحن بصدد فعله. يجب أن يكون جليًّا بالنسبة لك الآن يا واتسون، أن جثة هذا الشاب قد وُضعت على سطح القطار، وهذا كان واضحًا منذ اللحظة التي قررتُ فيها حقيقة أنها سقطت من على السطح، لا من عربة.

– أليس ممكنًا أنها أُلقيت من فوق جسر؟

– عليّ القول إن هذا مستحيل، فإذا ما عاينتَ الأسطح ستجد أنها منحنية انحناءً طفيفًا، ولا يوجد إطار يحيط بها. وعليه، يُمكننا القول قطعًا إن كادوجان ويست الشاب قد وُضع عليها.

– كيف يمكن وضعه هناك؟

– هذا هو السؤال الذي كان علينا الإجابة عنه. ثمة طريقة واحدة ممكنة فقط، أنت تعي أن المترو يسير خارج الأنفاق في بعض النقاط عند ويست إند، وأذكر بعض الشيء كوني سافرت عبره أني كنت أرى نوافذ فوق رأسي مباشرة في بعض الأحيان، والآن، لنفترض أن قطارًا ما توقف تحت نافذة منها، أسيكون إلقاء جثة فوق السطح أمرًا شاقًّا؟

– يبدو ذلك مستبعدًا للغاية.

– علينا التراجع إلى القاعدة البدهية القديمة التي تقول إنه عندما تفشل كل الاحتمالات، فإن الاحتمال الأخير المتبقي مهما كانت ماهيته ومهما كان مستبعدًا لا بدّ أن يكون هو الحقيقة، وها قد فشلت كل الاحتمالات الأخرى. وقتما اكتشفت أن العميل العالمي الأول، الذي كان قد غادر لندن للتو، يعيش في صف من المنازل المتاخمة للمترو، أبهجني جدًّا أنك كنت حائرًا بعض الشيء بخصوص رعونتي المفاجئة.

– أوه، إنه هو، أليس كذلك؟

– بلى، إنه هو. لقد صار السيد هيوجو أوبرشتاين، القاطن في 13 كولفيلد جاردنز ضالتي. بدأتُ عملياتي في محطة طريق جلوستر، حيث مشى معي موظف مفيد للغاية على طول المسار وسمح لي بأن أتحقق بنفسي، لم تكن نوافذ السلالم الخلفية لكولفيلد جاردنز مفتوحة على المسار فحسب، بل الأكثر أهمية من ذلك، وبسبب التصالب مع واحد من خطوط السكك الحديدية الأكبر، فإن قطارات المترو يتكرر إيقافها دون حراك لبضع دقائق في تلك النقطة ذاتها.

– بديع يا هولمز! لقد حللتها!

– حتّى الآن، حتى الآن يا واتسون. لقد تقدمنا، لكن الغاية بعيدة. حسنًا، بعد أن رأيتُ مؤخرة كولفيلد جاردنز، زُرت مقدمتها وتأكدت بأن المطلوب قد اختفى. إنه منزل كبير وغير مفروش بقدر ما

يمكنني الحكم من غرفه العلوية. عاش أوبرشتاين هناك مع خادم وحيد، والذي كان على الأرجح حليفًا يثق به ثقة تامة. يجب أن نأخذ في الاعتبار أن أوبرشتاين قد ذهب إلى القارة ليسلّم غنيمته، وليس في باله الهرب؛ إذ إنه لا يملك سببًا ليخشى وجود مذكرة بحقه، وبالتأكيد لن تخطر بباله فكرة زيارة منزلية غير احترافية، ومع ذلك، هذا على وجه التحديد ما نوشك أن نفعله.

– ألا يمكننا استصدار مذكرة وجعل الأمر قانونيًّا؟

– هذا صعب استنادًا إلى الأدلة.

– وما الذي نأمل فعله؟

– لا نعرف أي مراسلات قد نجدها هناك.

– لا يعجبني الأمر يا هولمز.

– رفيقي العزيز، أنت ستبقى مراقبًا الشارع، وأنا سأقوم بالجزء الإجرامي. ليس الوقت مناسبًا للتمسك بتوافه الأمور. فكر بخطاب مايكروفت، والأميرالية، ومجلس الوزراء، والشخص الرفيع المقام الذي ينتظر الأنباء. إننا مُلزمون بالذهاب.

جاوبته بأن نهضتُ عن الطاولة.

«إنك محق يا هولمز، نحن ملزمون بالذهاب».

وثب على قدميه وصافح يدي.

وقال: «كنت أعرف أنك لن تتراجع في النهاية»، ولبرهةٍ، رأيت في عينيه ما كان أقرب إلى الحنوّ من أي شيء قد رأيته قط، وعاد في اللحظة التالية إلى ذاته المضبوطة العملية من جديد.

قال: «إن المسافة نصف ميل تقريبًا، لكننا لسنا على عجلة من أمرنا، فلنتمشّ، أرجوك ألا تُسقط الأدوات، فالقبض عليك باعتبارك شخصية مشبوهة الآن سيكون أكثر التعقيدات نحسًا».

كانت منازل كولفيلد جاردنز من صنف تلك المنازل ذات الأعمدة المسطحة والأروقة، والتي تُعتبر منتجًا بارزًا من منتجات العصر الفيكتوري الأوسط في ويست إند في لندن. بدا أن حفلة للأطفال كانت مقامة في المنزل المجاور، فقد دوى أزيز الأصوات اليافعة الضحوك وصخب البيانو طوال الليل، وكان الضباب ما يزال مخيمًا فوقنا فاستترنا بظله الأليف. أشعل هولمز فانوسه وأضاء به الباب الثقيل.

وقال: «هذه مسألة خطِرة، فهو بالتأكيد مُقفلٌ ومغلق بمزلاج، وربما من الأفضل سلوك طريق القبو. ثمة ممر مقنطر ممتاز في الأسفل هناك في حال تطفل علينا شرطي متحمس. ساعدني يا واتسون، وسأساعدك».

بعد دقيقة كان كلانا في ممرّ القبو، وبالكاد ولجنا الظلال الداكنة حتى سُمع وقع خطوات الشرطي في الضباب فوقنا، وبعد أن تلاشى إيقاعها الخافت، شرع هولمز بالعمل على فتح الباب السفلي. رأيته ينحني ويشد حتى فُتح مطلقًا دويًّا صارخًا، ثم قفزنا عبره إلى المعبر المظلم، مغلقين باب ممر القبو خلفنا. أضاء هولمز الطريق صعودًا على السلالم المقوّسة غير المفروشة، وسطع الضوء الأصفر الصغير لفانوسه على نافذة منخفضة.

«ها نحن أولاء يا واتسون، لا بدّ أن هذه هي النافذة المنشودة»، فتحها بقوة، ومع فعله ذلك، سمعنا خرخرةً جشّاء منخفضة، تتزايد بثبات إلى هدير صاخب صاحبت تجاوز قطار مسرعٍ في الظلام. مرر هولمز ضوءه على طول عتبة النافذة، كانت مغطاةً بطبقة سميكة من السُّخام الذي تنتجه المحركات المارّة، لكن السطح الأسود كان مغبشًا وممسوحًا في بعض الأماكن.

«يمكنك رؤية مكان وضعهم الجثة، هيه واتسون! ما هذا؟ لا شك أنها علامة دم». كان يشير إلى تحولات في اللون على طول خشب النافذة، «ها هيَ على أحجار الدرج أيضًا، لقد اكتمل البرهان، دعنا نبقى هنا إلى أن يتوقف قطار ما».

لم ننتظر طويلًا، فقد هدر القطار التالي تمامًا من النفق كما سابقه، لكنه أبطأ قليلًا في المنطقة المفتوحة، وأطلق صرير فرامل ثم توقف تحتنا مباشرة. كانت المسافة أقل من أربعة أقدام من حافة النافذة إلى سطح العربات، فأغلق هولمز النافذة برفق.

وقال: «نحن محقان حتى الآن، ما رأيك يا واتسون؟»

– تحفة، لم يبلغ إبداعك مكانةً أعلى من هذه قط.

– لا يمكنني موافقتك في هذا، فمنذ اللحظة التي تخيلتُ فيها فكرة كون الجثة على السطح، والتي لم تكن فكرة ملتبسة جدًّا بالتأكيد، كان كل ما تبقى حتميًّا، ولولا الأهمية الخطيرة التي تلفّ هذه المسألة لكان كل شيء حتى هذه النقطة غير ذي قيمة. ما زالت صعاب الأمور أمامنا، لكن لعلنا نجد شيئًا مفيدًا هنا.

صعدنا درج المطبخ ودخلنا جناح الغرف في الطابق الأول. كانت الأولى حجرة طعام مبالغ في فرشها ولا تحتوي شيئًا مهمًّا، والثانية غرفة نوم لم نوفق بإيجاد شيء فيها أيضًا. بدا أن الغرفة الباقية تبشّر بالخير، وبدأ رفيقي فحصًا منهجيًّا. كانت زاخرة بالكتب والأوراق المبعثرة، ومن الجليّ أنها استُخدمت كحجرة دراسة. قلّب هولمز محتويات الأدراج درجًا درجًا والخزائن واحدة واحدة بسرعة ومنهجية، لكن لم يبتهج وجهه العابس بأي ومضة نجاح، ومضت ساعة دون أن يجد شيئًا.

قال: «لقد أخفى اللعين الماكر آثاره، ولم يترك شيئًا من شأنه أن يجرّمه، فإما أنه أخذ كل مراسلاته المهمة أو أتلفها. هذه فرصتنا الأخيرة».

كان ثمة صندوق نقود مصنوع من الصفيح فوق طاولة الكتابة. خلعه هولمز بإزميله، وكانت بداخله لفائف ورقية عديدة مليئة بالأرقام والحسابات دون أي ملاحظة توضح إلامَ تشير. ألمَحت الكلمات المتكررة: «ضغط الماء»، و«نسبة الضغط في الإنش المربع»، إلى احتمالية أن يكون الأمر متعلقًا بغواصة. ألقاها هولمز كلها جانبًا بنفاد صبر، ولم يبق إلا مظروف بداخله بعض جُذاذات الصحف الصغيرة. هزّ المظروف ناشرًا إياها على الطاولة، وعرفتُ بمجرد رؤيتي وجهه المتلهف أن آماله قد انتعشت.

– ما هذا يا واتسون؟ ها؟ ما هذا؟ أرشيف لسلسلة من الرسائل في قسم الإعلانات من صحيفة ما، وعمود الآلام من صحيفة الديلي تلغراف بحسب الطبعة والعدد، والزاوية العلوية اليمنى من صفحة ما. لا توجد تواريخ، لكن الرسائل ترتب نفسها، لا بدّ أن هذه هي الأولى:

«كنا نأمل أن نسمع في وقت أقرب. جرت الموافقة على الشروط. اكتب بالكامل إلى العنوان المُعطى على البطاقة».

—— بييرو

والتالية:

«عصيّ جدًّا على الوصف. ينبغي الحصول على تقرير كامل، والأغراض تنتظرك عند تسليم البضائع».

—— بييرو

ثم التالية:

«المسألة ملحّة. يجب إلغاء العرض إلا في حال إكمال العقد. حدد موعدًا عبر رسالة. سيجري التأكيد عبر إعلان».

—— بييرو

وأخيرًا:

«ليلة الاثنين بعد التاسعة. نقرتان. نحن فقط. لا تُثر الشكوك. الدفع نقدًا عند تسليم البضائع».

—— بييرو

«إنه سجل مكتمل بوضوح يا واتسون! لو أمكننا الوصول إلى الرجل في الطرف الآخر فقط!». وجلس تائهًا في أفكاره، ينقر بأصابعه على الطاولة، وفي النهاية وثب واقفًا على قدميه.

«حسنًا، ربما لن يكون الأمر شاقًّا جدًّا رغم كل شيء، ليس لدينا ما نفعله أكثر من ذلك هنا يا واتسون، أعتقد أن علينا التوجه إلى مكاتب الديلي تلغراف، وهكذا نختتم عمل يوم جيد».

جاء مايكروفت هولمز ولستراد على الموعد بعد فطور اليوم التالي وأعاد شيرلوك هولمز سرد إجراءاتنا في اليوم السابق عليهم، فهز المُحترف رأسه بخصوص السطو الذي اعترفنا بالإقدام عليه.

وقال: «لا يمكن للشرطة فعل أشياء كهذه يا سيد هولمز، لا عجب أنك تحصل على نتائج تفوق قدرتنا، لكن يومًا ما ستبالغ في تجاوز الحدود وستجد نفسك وصديقك في ورطة».

– من أجل إنجلترا، الوطن والجمال، أليس كذلك يا واتسون؟ شهداء على مذبح بلادنا. لكن ما رأيك بالأمر يا مايكروفت؟

– ممتاز يا شيرلوك! رائع! لكن كيف ستستخدم هذه المعلومات؟

التقط شيرلوك صحيفة الديلي تلغراف الملقاة على الطاولة.

– هل رأيت إعلان بييرو خاصة اليوم؟

– ماذا؟ أثمة واحد آخر؟

– أجل، ها هوَ ذا:

«الليلة. نفس الساعة. نفس المكان. نقرتان. في أقصى الأهمية. سلامتك الشخصية على المحكّ».

—— بييرو

صاح لستراد: «يا إلهي! إذا استجاب لهذا فقد نلنا منه!»

«هذه كانت فكرتي وقتما وضعت الإعلان، وأعتقد أنه ما إذا كان بإمكان كليكما القدوم معنا نحو الساعة الثامنة إلى كولفيلد جاردنز فلعلنا نقترب قليلًا من إيجاد حل».

إن قدرة شيرلوك هولمز على إيقاف عمل دماغه وتحويل تفكيره إلى الأشياء الأكثر بساطة متى اقتنع بأنه عاجز عن تحقيق تقدم؛ واحدة من أعجب سماته. أذكر أنه قد أغرق نفسه طوال ذاك اليوم المأثور في دراسة اضطلع بها حول الموتيه متعدد الأصوات خاصة أولان دي أسوس. أما أنا، فلم أتمتع بقدرة كهذه على الانفصال، وبدا اليوم نتيجة ذلك وكأنه لا ينتهي. كانت الأهمية الوطنية العظيمة للقضية، وترقّب الدوائر العليا، والطبيعة المباشرة للتجربة التي كنا نختبرها، كلها مجتمعة على إجهاد أعصابي، وأراحني انطلاق بعثتنا بعد أن تعشينا عشاءً خفيفًا، لقِيَنا لستراد ومايكروفت على الموعد أمام محطة طريق جلوستر. كنا قد تركنا باب ممر قبو أوبرشتاين مفتوحًا الليلة السابقة، وكان من الضروري أن أعبره وأفتح باب الردهة، فقد رفض مايكروفت هولمز رفضًا قاطعًا وساخطًا تسلق الدرابزون، وبحلول الساعة التاسعة تمامًا، كنا جالسين جميعًا في حجرة الدراسة منتظرين رجلنا بفارغ الصبر.

مرّت ساعة تلتها ساعة أخرى، وعندما دقت الساعة الحادية عشرة، بدا أن صوت ساعة الكنيسة الضخمة الموزون يعزف مرثية أملنا. كان لستراد ومايكروفت متململين في جلستهما ينظران مرتين في الدقيقة إلى ساعتيهما. جلس هولمز صامتًا متّزنًا بأجفان نصف مغلقة، لكن كل حواسه في حالة تأهب، ثم رفع رأسه في انتفاضة مباغتة.

وقال: «إنه قادم».

عبر شخص ما الباب بخطوة متسللة، ثم عاد، وسمعنا صوت جرّ أقدام في الخارج، تلاه نقرتين قويتين بدقاقة الباب. نهض هولمز وأشار لنا بأن نبقى جالسين، وكان مصباح الغاز في الردهة مصدر الضوء الوحيد. فتح الباب الخارجي، ثم أغلقه بعد أن دلف منه جسم معتم متجاوزًا إياه. سمعناه يقول «من هنا!»، وبعد برهة كان رجلنا واقفًا أمامنا، وهولمز خلفه مباشرة، وعندما التفَتَ الرجل مطلقًا زعقة دهشة وارتياع أمسكه من ياقته وقذفه إلى الغرفة مرة أخرى، وقبل أن يستعيد أسيرنا توازنه كان هولمز قد أغلق الباب ووقف مسندًا ظهره إليه. أجال الرجل نظره فيما حوله حائرًا، ثم سقط أرضًا مغشيًّا عليه. مع ارتطامه بالأرض، طارت قبعته عريضة الحافة عن رأسه، وانزلق رباط عنقه عن شفتيه، كاشفًا اللحية الطويلة الخفيفة، والقسمات اللينة الكيّسة الوسيمة للكولونيل فالنتاين وولتر.

صفر هولمز صفرة استغراب.

وقال: «يمكنك أن تكتب أني كنت أبله هذه المرة يا واتسون، فليس هذا الطائر الذي كنت أتصيّده».

سأل مايكروفت بتلهف: «من يكون هذا؟»

«إنه الأخ الأصغر للراحل السير جيمس وولتر، رئيس قسم الغواصات. أجل، أجل؛ أرى الآن تساقط الأوراق. لقد استردّ وعيه، أعتقد أنه من الأفضل أن تترك أمر استجوابه لي».

كنا قد حملنا الجسد الطريح إلى الكنبة، وفي هذه اللحظة جلس أسيرنا، ونظر حوله بوجه ملأه الرُعب، ثم مرر يده على جبهته كمن يعجز عن تصديق حواسه.

وسأل: «ماذا يجري؟ لقد جئت لزيارة السيد أوبرشتاين».

قال هولمز: «كل شيء صار مكشوفًا أيها الكولونيل وولتر. لا يمكنني فهم كيف يمكن لرجل إنجليزي ارتكاب تصرفٍ كهذا، لكننا بتنا نعلم بأمر مراسلاتك وعلاقاتك مع السيد أوبرشتاين كلها، وكذا الظروف المحيطة بوفاة الشاب كادوجان ويست. دعني أنصحك بنَيل فضيلة الندم والاعتراف الضئيلة على الأقل، نظرًا لوجود بعض التفاصيل الباقية التي لا يمكننا معرفتها إلا عن لسانك».

أنّ الرجل وأخفى وجهه بين يديه، وانتظرنا أن يتكلم، لكنه بقي صامتًا.

قال هولمز: «يمكنني أن أؤكد لك أن كل ما هو جوهريّ قد بات معلومًا، فنحن نعلم أنك كنت بحاجة ماسة للمال؛ وأنك طبعت المفاتيح التي كانت بحوزة أخيك؛ وأنك تبادلت المراسلات مع أوبرشتاين، الذي كان يجيب عن رسائلك عبر أعمدة الإعلانات في صحيفة الديلي تلغراف، وإننا عارفون بذهابك إلى المكتب في الضباب ليلة الاثنين، لكن الشاب كادوجان ويست قد رآك ولاحقك، ويرجح وجود سبب سابق لديه يدفعه للاشتباه بك. لقد شاهد سرقتك، لكن لم يكن بمقدوره إطلاق الإنذار، فقد كان محتملًا أنك ستأخذ الأوراق لأخيك في لندن. فهجر كل مشاغله الشخصية، كما كان ليفعل أي مواطن صالح مثله، ولاحقك من كثب في الضباب سائرًا في أعقابك حتى بلغت هذا المنزل بعينه. ثم تدخّل، وهنا أيها الكولونيل وولتر، هي النقطة التي أضفت فيها إلى جريمةِ الخيانة جريمةَ القتل الأشد شناعة».

«لم أفعل ذلك! لم أفعل ذلك! أقسم أمام الله أنني لم أفعل ذلك!» صاح سجيننا البائس.

– أخبرنا إذًا، كيف لاقى كادوجان ويست حتفه قبل وضعه على سطح عربة القطار.

– سأخبرك، أقسم أني سأخبرك، لقد فعلت البقية، وأنا أعترف بذلك. كان الأمر كما تقول تمامًا، كان عليّ دين يجب سداده لسوق البورصة، وكنت بأمس الحاجة للمال. عرض علي أوبرشتاين خمسة آلاف، وفعلت هذا لأنقذ نفسي من الدمار. لكنني بريء من القتل بقدر براءتكَ منه.

– ما الذي حدث إذًا؟

– كانت لديه شكوك سابقة، وقد تبعني كما وصفتَ. لم أعرف ذلك البتة حتى بلغت هذا الباب، فقد كان الضباب سميكًا ولم يكن بمقدور المرء الرؤية لثلاث ياردات أمامه. نقرت نقرتين وفتح أوبرشتاين الباب، فاندفع الشاب وطالب بمعرفة ما كنا بصدد فعله بالأوراق. كان لدى أوبرشتاين هراوة قصيرة يحملها معه دائمًا، ومع دخول ويست المنزل عنوةً خلفنا، ضربه أوبرشتاين على رأسه. كانت الضربة قاتلة، وتوفّي في غضون خمس دقائق. تمددت الجثة في الردهة، ووقفنا تُعيينا الحيلة لا ندري ماذا

سنفعل. ثم راودت أوبرشتاين فكرة القطارات التي تتوقف أسفل نافذته الخلفية، لكنه تفحّص الورقات التي جلبتُها أولًا، وقال إن ثلاثًا منها ضرورية، وإنه لا بدّ أن يحتفظ بها. قلت له: «لا يمكنك الاحتفاظ بها، ستنقلب وولويتش انقلابًا رهيبًا إذا لم أرجعها»، فقال: «إنها تقنيةٌ لدرجة يستحيل معها نسخها الآن»، فقلت: «إذًا عليّ إرجاعها كلها معًا اليوم». ففكر قليلًا، ثم صاح قائلًا إنه وجد الحل، وقال: «سأحتفظ بالثلاث، ونحشر البقية في جيب هذا الشاب، وعندما يُعثر عليه ستُلقى المسألة كلها على عاتقه بالتأكيد». لم أرَ مخرجًا آخرَ، ففعلنا كما اقترح. انتظرنا لنصف ساعة عند النافذة حتى توقف قطار، وكانت كثافة الضباب تمنع الرؤية تمامًا فلم نواجه مشقةً بإنزال جثة ويست على سطحه، وهنا كانت نهاية القضية بالنسبة لي.

– وماذا عن أخيك؟

– لم ينطق بكلمة، لكنه كان قد أمسك بي مرة وبحوزتي مفاتيحه، وأظن أنه اشتبه بي، فقد رأيت الشك في عينيه، وكما تعلم، لم يرفَع رأسه مرة أخرى.

غرقت الغرفة في صمت كسر حاجزه مايكروفت هولمز.

– ألا يمكنك إصلاح الضرر؟ فهذا قد يُريح ضميرك، وربما يخفف من عقوبتك.

– أي إصلاح يمكنني فعله؟

– أين أوبرشتاين والأوراق؟

– لست أدري.

– ألم يترك عنوانًا؟

– قال إن الرسائل المرسلة إلى فندق اللوفر في باريس ستبلغه في نهاية المطاف.

قال شيرلوك هولمز: «إذًا ما زال بإمكانك الإصلاح».

– سأفعل كل ما بوسعي. أنا لا أكنّ لهذا الشخص أي ولاء، فقد كان دماري وانهياري.

– إليك ورقة وقلمًا، اجلس إلى المكتب واكتب كما أملي عليك. وجِّه المظروف إلى العنوان المُعطى. هذا جيد، والآن الرسالة:

«سيدي العزيز:

فيما يخص صفقتنا، لا شك أنك قد انتبهت بحلول هذا الوقت إلى غياب تفصيل جوهري، ولديّ متابعةٌ من شأنها استكماله. لقد كبدني هذا عناءً إضافيًّا، ولا بد أن أطلب خمسمئة جنيه أخرى مقدمًا. لن أطمئن لإرسالها في البريد، ولن أقبلها إلا ذهبًا أو أوراقًا نقدية إنجليزية. كنت لأجيء إليك في الخارج، لكن خروجي من البلاد في الوقت الراهن سيلفت الانتباه، وعليه، أتوقع لقاءك في حجرة المدخنين في فندق تشيرينج كروس ظهر يوم السبت، وتذكر أنني لن أقبل إلا الذهب أو الأوراق النقدية الإنجليزية».

– سيفي هذا بالغرض بصورة جيدة، وسأتفاجأ كثيرًا إذا لم يستجلب رجلنا.

وقد فعل! وصارت مسألة في ذمة التاريخ –ذاك التاريخ الخفيّ لأمة ما، والذي غالبًا ما يكون أكثر حرارةً وشغفًا من سجلاتها العمومية– أن أوبرشتاين مشى إلى الشرك بقدميه متلهفًا لإتمام ضربة

عمره، فابتلعته السجون البريطانية لخمسة عشر عامًا. وُجدت مخططات بروس – بارتينجتون النفيسة في صندوق سيارته، وكان قد عرضها للبيع بالمزايدة على كل المراكز البحرية في أوروبا.

توفِّي الكولونيل وولتر في السجن قرابة نهاية العام الثاني من مدة عقوبته. أما هولمز، فقد عاد منتعشًا إلى دراسته للموتيه متعدد الأصوات خاصة دي أسوس، التي طُبعت للمداولة الخاصة بعدها، وقد وصفها الخبراء بأنها الكلمة الفصل في الموضوع. بعد بضعة أسابيع، عرفت في معرض الصدفة أن صديقي قد أمضى يومًا في ويندسور، ومن هناك عاد بدبوس ربطة عنق زمرديّ بديع على نحور بارز، وحينما سألته ما إن كان قد اشتراه، أجاب بأنه كان هدية من سيدة لبقة ما حالفه الحظ بما يكفي ليحوز على اهتمامها في إحدى المرات ويتولى مهمة صغيرة لها. لم يُضف على ذلك؛ لكن يُخيل إلي أنني قادر على تخمين اسم تلك السيدة الجليل، ولا أشك أن هذا الدبوس الزمردي سيُبقي ذكرى مغامرة مخططات بروس – بارتينجتون حيةً أبدًا في خلد صديقي.

مغامرة التحرّي المُحتَضَر

كانت السيدة هدسون مالكة منزل شيرلوك هولمز امرأة طويلة البال؛ إذ لم تكن حشود الغرباء غير المرغوب بهم تغزو شقتها في الطابق الأرضي على مدى الساعة فحسب، بل كانت حياة نزيلها الاستثنائي محفوفة بالغرابة وعدم الانتظام على نحو لا بدّ أنه استنزف صبرها عن آخره، فقد جعله إهماله غير المعقول، وإدمانه الاستماع إلى الموسيقى في ساعات عجيبة، وتدريباته العرضية على الطبنجة داخل المنزل، وتجاربه العلمية الشاذة وكريهة الرائحة أغلب الأوقات، وجوّ العنف والخطر الذي يكتنفه، أسوأ مستأجر في لندن بحقٍّ، لكن دفعاته كانت سخيّة جدًّا من الناحية الأخرى، ولا شكّ لديّ في أنه كان ممكنًا شراء المنزل مقابل الثمن الذي أنفقه هولمز أجرًا للغرف خلال السنين التي قضيتها معه.

أجلّته مالكة المنزل أشد الإجلال ولم تجرؤ على التدخّل في شؤونه مهما بدت إجراءاته شائنة. كانت مولعة به أيضًا، فقد كان يتميز بكياسةٍ وذوقٍ بارزين في تعامله مع النساء. لم يُحب جنسهنّ ولم يثق به، لكنه دائمًا ما كان خصمًا نبيلًا، ولمعرفتي كم كان صادقًا احترامها له، استمعتُ بجدية إلى قصتها وقتما جاءت إلى منزلي في ثانية سنوات زواجي وأخبرتني عن الظرف المُحزن الذي هبط صديقي المسكين إليه.

قالت: «إنه يُحتضَر يا دكتور واتسون، حاله في تدهورٍ منذ ثلاثة أيام، وأشك أنه سيصمد حتى نهاية اليوم. لم يسمح لي بجلب طبيب، لكن وقتما رأيت هذا الصباح عظام وجهه بارزة وعينيه العظيمتين اللامعتين تحدقان إليَّ لم أستطع التحمل أكثر من ذلك، وقلت له: «سواء أذنت لي أم لم تأذن يا سيد هولمز، سأذهب وأجلب طبيبًا الساعة»، فقال: «فليكُن واتسون إذًا». أرجو ألّا تهدرَ حتى ساعةً في الذهاب إليه يا سيدي، وإلا قد لا تراه حيًّا».

هالني الأمر نظرًا لعدم معرفتي شيئًا عن أمرِ سقمه، ولا حاجة لأقول إني هرعتُ أجلب معطفي وقبعتي، وسألتها عن التفاصيل في طريق عودتنا.

– لا يمكنني إخبارك بالكثير يا سيدي. كان يعمل على قضية في زقاق مجاور للنهر في روثرهايت، وعاد جالبًا مرضه معه. خلدَ إلى فراشه ظُهر الأربعاء ولم يغادره بعدها، ولم يذُق طعامًا ولا شرابًا في الأيام الثلاثة هذه.

– يا إلهي! ولمَ لم تطلبي طبيبًا؟

– لم يكن ليستقبله يا سيدي، أنت تعرف كم هو مستبدّ، ولم أجرؤ على عصيانه، لكنه واقف على أعتاب الموت، وستدرك ذلك بنفسك بمجرد أن تقع عيناك عليه.

كانت رؤية يُرثى لها بالفعل، فقد كانت غرفةُ المرضِ بقعة كالحة في الضوء الخافت لذاك النهار النوفمبريّ الضبابيّ، لكن الوجه المُضنى الهزيل المحدق إليّ من السرير هو ما أرسل بي قشعريرة سرَت حتى قلبي. كانت عيناه تلتمعان ببريق الحُمّى، وثمة تورّد سُلّيّ على كلا الخدين، وقشور داكنة متعلقة

بشفتيه؛ واليدان النحيلتان ترتعشان رعشة مستمرة فوق غطاء السرير، وصوته نعيبٌ متقطع. وقتما دخلتُ الغرفة كان يرقد مرهقًا، لكن بارق عرفان بدا على عينيه عند رؤيتي.

وقال بصوت ذابل، لكن بشيء من أسلوبه المستهتر القديم: «حسنًا يا واتسون، يبدو أن أيامًا لئامًا قد نزلت بنا».

صحتُ وأنا أقترب منه: «رفيقي العزيز!»

فقال بنبرة استبدادية حادة لم أسمعها منه إلا في أوقات الأزمات: «ارجع! ارجع حالًا! سأطردك من المنزل إذا ما اقتربت مني يا واتسون».

– لكن لمَ؟

– لأن هذه رغبتي، ألا يكفي ذلك؟

بلى، كانت السيدة هدسون على حق، فقد كان أكثر استبدادًا من أي وقت مضى، لكن رؤية إنهاكِه كانت مدعاة للأسف رغم ذلك.

فقلتُ مفسّرًا: «لم أُرد إلا المساعدة».

– بالضبط! ستساعد أفضلَ مساعدتك بتنفيذ ما يُطلب منك.

– بالتأكيد يا هولمز.

خفف من حدّة أسلوبه.

وسأل لاهثًا يلتقط أنفاسه: «ألست غاضبًا؟»

يا للمسكين، كيف عساني أغضب وأنا أراه ملقًى أمامي في محنةٍ كهذه؟

وقال بصوت ناعب: «إن ذلك لمصلحتك يا واتسون».

– لمصلحتي؟

– أعرف ما خطبي، إنه داء حمّالين من سومطرة، وهو أمر يعرفه الهولنديون أكثر مما نفعل، رغم أنهم لم يحققوا إلا تقدمًا ضئيلًا في علاجه حتى الآن. ثمة أمر واحد أكيد، وهو أنه قاتل حتمًا، وأنه مُعدٍ على نحو رهيب.

صار يتكلم بحيوية محمومة، ويداه الطويلتان ترتعشان وتهتزان مع إشارته لي بالابتعاد.

– إنه مُعدٍ باللمس يا واتسون، باللمس فقط، لذا أبقِ مسافة بيننا وكل شيء سيكون على ما يرام.

– يا للسماء يا هولمز! أتفترض أن اعتبارًا كهذا قد يُثنيني للحظة؟ لم يكُن ذلك ليؤثر على علاجي شخصًا غريبًا، فهل تتصوّر أن يمنعني عن أداء واجباتي تجاه صديق قديم؟

وتقدمت مجددًا، لكنه ردّني بنظرة غضب حانق.

«سأتكلم إذا بقيتَ واقفًا هناك، وإن لم تفعل فعليك مغادرة الغرفة».

أكنّ لمزايا هولمز الاستثنائية احترامًا شديدًا جعلني أذعن لرغباته دائمًا حتى لو لم أفهمها، لكن غرائزي المهنية كلها كانت مستثارة آنذاك، وليكُن رئيسي في مكان آخر، أنا رئيسه على الأقل في غرفة المرض.

وقلت: «أنت لست على سجيتك يا هولمز، ليس الرجل المريض إلا طفلًا، وكذا سأعاملك. سواء أعجبك ذلك أم لا، سأعاين أعراضك وأعالجك منها».

نظر إليّ بعينين ناقمتين.

وقال: «إذا كان عليّ الخضوع لطبيب سواء أردتُ ذلك أم لا، فدعني على الأقل أختار واحدًا أثق به».

– ألا تثق بي؟

– أثق بصداقتك بالتأكيد، لكن الحقائق هي الحقائق يا واتسون، ففي النهاية، أنت لست إلا طبيبًا عامًّا بخبرة محدودة جدًّا ومؤهلات متوسطة. مؤلمٌ أن أقول هذا الكلام، لكن لم تترُك لي خيارًا.

جرحني ذلك جرحًا مريرًا.

«إن صدور تعليق كهذا منكَ أمرٌ جائرٌ يا هولمز، ويُظهر لي حالتك العصبية بوضوح شديد. لكني لن أتطفل بخدماتي عليك إن كنت لا تثق بي. دعني أجلبُ السير جاسبر ميك أو بينروز فيشر، أو أيًّا من نخبة لندن، وإذا ما كنتَ تعتقد أني سأقف هنا وأشاهدك تموت دون مساعدتك بنفسي أو الإتيان بشخص ما ليساعدك، فقد أخطأت الظن بصديقك».

قال الرجل المريض بصوت بين نشيجٍ وأنين: «إن نيتك صافية يا واتسون، لكن أيمكنني إثبات جهلك؟ ماذا تعرف عن حمّة تابانولي؟ ماذا تعرف عن تعفّن فورموسا الأسود؟».

«لم أسمع بأيّ منها».

«ثمة مشكلات وبائية كثيرة، واحتمالات مرضيّة عجيبة في الشرق يا واتسون»، كان يتوقف عقب كل جملة ليستجمع قواه المنهارة، «لقد تعلمت الكثير إبّان إحدى الدراسات الأخيرة التي تحمل جانبًا طبيًّا إجراميًّا، والتي أُصبت في سياقها بهذه العلة. لا شيء يمكنك فعله».

«ربما لا، لكني عرفتُ بالصدفة أن الدكتور أينستري، أعظم خبراء الأوبئة المدارية الأحياء، موجود في لندن حاليًّا، ولا طائل من أي احتجاجات يا هولمز، فأنا ذاهبٌ حالًا لإحضاره». واستدرت بعزمٍ متجهًا إلى الباب.

لم أُصدم بحياتي صدمة كهذه! ففي لحظة واحدة، قفز الرجل المحتضر قفزة نمرٍ واعترض طريقي، وسمعت طقة حادة جراء تدوير قفل الباب، ثم عاد في اللحظة التالية مترنحًا إلى سريره، منهكًا لاهثًا بعد بذله هذا الكم الجسيم من الطاقة.

«لن تأخذ المفتاح مني بالقوة يا واتسون، لقد نلتُ منك يا صديقي. ها أنت هنا، وهنا ستبقى حتى أرغبَ بغير ذلك، لكني سأسايرك»، (كان يقول كل هذا بلهثات قصيرة، وكفاح عظيم لالتقاط أنفاسه بينها) «لا تريد إلا مصلحتي في صميم قلبك، وبالطبع أنا أعرف ذلك جيدًا. ستحصلُ على ما تريد، لكن امنحني وقتًا لأسترد قوّتي. ليس الآن يا واتسون، ليس الآن. إنها الرابعة تمامًا، وعند السادسة يمكنك الذهاب».

– هذا جنون يا هولمز.

– ساعتان فقط يا واتسون. أعدك أنك ستذهب في السادسة، فهل أنت قانع بالانتظار؟

– يبدو أنني لا أملك خيارًا.

– البتّة يا واتسون. شكرًا لك، ولا أحتاج مساعدة في ترتيب الملابس. ستحافظ على مسافتك مني لو سمحت. الآن يا واتسون، ثمة شرط أخير سأشترطه عليك، وهو ألّا تطلب مساعدة الرجل الذي ذكرتَه، بل الرجل الذي سأختارُه.

– من كلّ بُدّ.

– هذه أول ثلاث كلمات متعقّلة تنطق بها مُذ دخلت الغرفة يا واتسون. ثمة بعض الكُتب هناك. إنني مُنهك؛ كيف تشعرُ بطارية وقتما تفرّغ طاقتها في مادة غير موصلة يا تُرى؟ سنستأنف محادثتنا في السادسة يا واتسون.

كان مقدرًا أن أعود للحديث قبل تلك الساعة بكثير، وفي ظروف صدمتني بطريقة تكاد تعادل تلك التي سببتها قفزته إلى الباب، كنتُ قد وقفتُ بضع دقائق أراقب الجسد الساكن في السرير، وجهه مغطّى بالملابس تقريبًا وبدا أنه نائم. ثم صرتُ أتمشّى بتمهّل في الغرفة لعجزي عن الاستكانة للقراءة، أعاين صور المجرمين المعروفين التي تزين الجدران. وصلت، أخيرًا، بطوافي العشوائي إلى رف الموقد، وكان ثمة فضلات غليون، ومحافظ تبغ، ومحاقن، ومُدًى، وخراطيش طبنجة، وبقايا أخرى مبعثرة فوقه. رأيتُ بين هذه الأغراض صندوقًا عاجيًّا صغيرًا ذا لون أبيض وأسود له غطاء منزلق. كان شيئًا صغيرًا أنيقًا، ومددت يدي لأتفحّصه عن قرب وقتما...

كانت صرخة مروّعة تلك التي أطلقها، صيحةً رُبما سُمعت حتى الشارع، برد جلدي ووقف شعري وقتما سمعتُها. حينما استدرت لمحتُ وجهًا متشنجًا وعينين مسعورتين، فوقفت مشلولًا والصندوق الصغير في يدي.

«ضعه من يدك! ضعه حالًا يا واتسون، حالًا أقول لك!» وغاص رأسه في الوسادة من جديد وأطلق تنهيدة ارتياح عميقة عندما أعدتُ الصندوق إلى مكانه فوق رف الموقد. «أكرهُ أن تُمسّ أشيائي يا واتسون، أنت تعرف أني أكره ذلك. لقد أثرت عصبيّتي على نحو يفوق التحمّل. أنت، وأنتَ طبيب، تكفي لدفعِ مريضٍ إلى مستشفى المجانين. اجلس يا رجل، ودعني أحظ باستراحتي!»

تركتْ هذه الواقعة أثرًا شديد البشاعة في رأسي، فقد بدا لي من الهياج العنيف وغير المُبرر، والذي أعقبته قسوة الخطاب هذه بعيدًا جدًّا عن لباقته المعهودة، مدى عمق التشوّش في ذهنه، لأن خراب العقل الرفيع أكثر صنوف الخرائب مدعاة للأسف. جلستُ في اغتمام صامت إلى أن حانَ الوقت الموعود، وبدا أنه كان يراقب الساعة مثلما كُنتُ أفعل، فبالكاد صارت الساعة السادسة حتى بدأ الكلام بذات الحركة المحمومة السابقة.

قال: «والآن يا واتسون، ألديكَ بعض الفكّة في جيبك؟»

– بلى.

– أيّ منها فضّي؟

– الكثير منها.

– كم نصف كراون بينها؟

– خمسة.

– آه، قليل جدًّا! قليل جدًّا! كم هذا مؤسف يا واتسون! على كلٍّ، يمكنك وضعها كما هي في جيب ساعتك، وبقية مالك في جيب بنطالك الأيسر. أشكرك، هذا سيحسّن توازنك كثيرًا.

كان هذا جنونًا هاذيًا. ارتجف بعدها ثم أطلق صوتًا بين النشيج والسُّعال مرة أخرى.

«أشعل مصباح الغاز الآن يا واتسون، لكن يجب أن تكون حذرًا جدًّا ألّا يكون أكثر من نصف مشتعل ولو للحظة واحدة. أتوسّل إليك أن تكون حذرًا يا واتسون. شكرًا لك، هذا ممتاز. لا، لا حاجة لأن تسدلَ الستارة، والآن أرجو أن تتلطف وتضع بعض الرسائل والأوراق في متناول يدي على هذه الطاولة، والآن بعضًا من تلك الفضلات من على رف الموقد. هذا رائع يا واتسون! ثمة ملقط سكّر هناك، ارفع به ذاك الصندوق العاجيّ الصغير برفق، وضعه هنا بين الأوراق، جميل! يمكنك الآن أن تذهب وتستدعي السيد كولفيرتن سميث، القاطن في 13 لوَر بيرك ستريت».

لأكون صادقًا، لقد ضعُفت رغبتي باستحضار طبيب بطريقة ما، لأن هذيان هولمز المسكين كان شديد الوضوح لدرجة تجعل تركه أمرًا خطرًا، ومع ذلك، كان متلهفًا لاستشارة الرجل الذي سمّاه بقدر ما كان معاندًا في رفضه قبلًا.

قلتُ: «لم أسمع بالاسم قط».

«ربما لا يا صديقي واتسون الطيّب، قد تُدهشك معرفة أن أكثر الرجال ضلاعةً في هذا الداء على سطح الأرض ليس رجل طبٍّ، بل مُزارعًا. السيد كولفيرتن من أشهر سكان سومطرة، وهو في زيارة إلى لندن حاليًّا. حدث انتشار للداء في مزرعته التي كانت أبعد من أن تصلها المساعدة الطبية، ما جعله يدرسه بنفسه، وتوصّل إلى بعض النتائج المتقدمة نوعًا ما. إنه رجل منهجيّ جدًّا، ولم أرد أن تذهب قبل السادسة لأني أعرف أنك لن تجده في مكتبه. إذا ما أمكنك إقناعه بالمجيء وإفادتنا بخبرته الفريدة بهذا الداء، فلا شك لدي أنه قادر على مساعدتي».

لقد ذكرتُ ملاحظات هولمز جملةً متتابعة، ولن أحاول الإشارة إلى مدى مقاطعة اللهاث بغية التقاط الأنفاس وارتعاشات اليدين المُشيرة إلى الألم الذي كان يُعاني منه. تحوّل مظهره إلى الأسوأ في الساعات القليلة التي قضيتها معه، فقد صارت تلك البقع السلّية أكثر وضوحًا، واشتدَ بريق العينين داخل محجريهما الداكنين، والتمع عرقٌ بارد فوق حاجبه. لكنه حافظ رغم ذلك على الكياسة الأنيقة في خطابه، فهو سيكون السيّد دائمًا حتى النفس الأخير.

وقال: «ستخبره عن الحال التي تركتني بها بالضبط، ستنقل له الانطباع ذاته الذي تحمله في ذهنك، رجل محتضر، رجل محتضر مصاب بالهذيان. في الحقيقة، لست أدري لمَ ليس حوض البحر بأكمله كتلة واحدة من المحار، إذ تبدو هذه المخلوقات خصيبة جدًّا. آه، إني أعجب! أمر غريب كيف يسيطر الدماغ على الدماغ! ماذا كنتُ أقول يا واتسون؟»

– كنت تعطيني إرشادات بالنسبة للسيد كولفيرتن سميث.

– آه، أجل، تذكرت. إن حياتي تعتمد على ذلك. توسّل إليه يا واتسون، فإن الوضع بيننا غير جيد، لقد شككتُ بارتكابه جريمة قتل بحق ابن أخيه، وواجهته بذلك. مات الصبي ميتة فظيعة، وهوَ حاقد عليّ. رقّق قلبه يا واتسون، ارجُه، تضرّع إليه، أحضره إلى هنا بأي وسيلة، هو، ولا أحد غيره، قادر على إنقاذي!

– سأجلبه في سيارة أجرة، حتى لو اضطررتُ إلى حمله إليها.

– لن تفعل شيئًا من هذا القبيل، بل ستقنعه بالمجيء، ثم ستعود قبله، اخترع أي عذر كي لا تأتي بصحبته. لا تنسَ يا واتسون، ولا تخذلني، فلم تخذلني من قبل قط. لا شكّ أن ثمة أعداء طبيعيين وظيفتهم الحد من زيادة المخلوقات، وأنت وأنا قد قمنا بدورنا يا واتسون. هل ستكتسح المحارات العالم إذًا؟ لا، لا؛ فهذا مروّع! ستوصلُ إليه كل ما في ذهنك.

تركتُه وذهني طافح بصورة هذا الذكاء الباهر يبعبع مثل طفل أحمق. سلمني المفتاح، فأخذتُه معي بسعادة لئلا يقفل الباب على نفسه. كانت السيدة هدسون تنتظر مرتجفة تبكي في الممر، وسمعتُ من خلفي بعد أن خرجتُ من الشقة صوت هولمز المرتفع الهزيل يهذي بترنيمة ما، وعندما وقفتُ في الأسفل أصفرُ لسيارة أجرة، تقدم رجل إليّ من قلب الضبابة.

وسأل: «كيف حال السيد هولمز يا سيدي؟»

كان رجلًا أعرفه منذ أمدٍ بعيد، المفتش مورتون من سكوتلاند يارد، مرتديًا لباسًا تويديًّا مدنيًّا.

أجبت: «إنه مريض جدًّا»

نظر إليّ بطريقة في قمة الغرابة، ولو لم يكُن الأمر شيطانيًّا للغاية، لتخيلت أن البصيص المنعكس من نافذة الباب المروحية قد أظهر غبطةً على وجهه.

وقال: «سمعت إشاعة ما عن ذلك».

كانت عربة الأجرة قد رُكنت أمامي، فغادرتُه.

تبيّن أن لوَر بيرك ستريت صف من المنازل الراقية المصطفّة على الحدود المبهمة بين نتينغ هيل وكينسينغتون، وكان للمنزل المحدد الذي وقفت أمامه عربة الأجرة خاصتي جو من العجرفة والرزانة الجديرة بالاحترام في درابزونه الحديدي قديم الصنع وبابه الهائل ذي المصاريع، ومشغولاته النحاسية اللامعة. كان كل هذا منسجمًا مع خادمٍ وقور ظهر محاطًا بشعاع ورديّ منبعث عن ضوء كهربائيّ ملون قادم من خلفه.

«أجل، السيد كولفيرتن سميث في الداخل. الدكتور واتسون! هذا جيد جدًّا يا سيدي، سأصعد ببطاقتك إليه».

لم يبدُ أن اسمي ولقبي المتواضعين قد أثارا إعجاب السيد كولفيرتن سميث، وسمعتُ عبر الباب الموارب صوتًا شرسًا وعاليًا وحادًّا.

«من هذا الشخص؟ وما الذي يريده؟ يا إلهي يا ستابلز، كم مرة قلت إنه لا ينبغي إزعاجي في ساعات بحثي؟»

ثم جاء سيل من التفسير المهدئ اللطيف من طرف الخادم.

«حسنًا، لا يمكنني مقابلته يا ستابلز، لا يمكنني مقاطعة عملي بهذا الشكل. قل له إني لست في المنزل، أخبره بأن يأتي صباحًا إذا كان مضطرًّا فعلًا إلى رؤيتي».

سمعتُ الغمغمة اللطيفة مجددًا.

«حسنًا حسنًا، أعطه تلك الرسالة. يمكنه أن يأتي في الصباح، أو يمكنه الابتعاد عني، فعملي يجب ألّا يُعاق».

فكرتُ بهولمز يتقلب في سرير مرضه، وربما يعدّ الدقائق ريثما أجلب له المساعدة. لم يكن الوقت مناسبًا للتمسّك بالرسميات، فحياته تعتمد على مبادرتي، فاندفعتُ قبل أن يصل الخادم المُعتذر حاملًا الرسالة وتجاوزتُه إلى الغرفة.

نهضَ رجلٌ من كرسي منحنٍ مجاور للموقد مطلقًا صيحة غضب مجلجلة. رأيت وجهًا أصفر بدينًا فظًّا ودهنيًّا، وذقنًا مزدوجًا غليظًا، وعينين رماديتين جَهمتين متوعّدتين تُحدقان إليَّ من تحت حاجبين مخصّلين رمليي اللون. كان رأسه عاليًا وأصلع تكسوه قبّعة تدخين صغيرة مخملية مائلة بجاذبية إلى جانبها المخرّم، وجمجمته هائلة الحجم، وأذهلني مع ذلك أني خفضتُ النظر فرأيت جسد الرجل صغيرًا ورخوًا، وملتفًّا عند الكتفين والظهر كجسد مَن عانى مِن الكساح في طفولته.

صاح بي بصوتٍ مرتفع وصارخ: «ما هذا؟ ما معنى هذا الانتهاك؟ ألم أرسل لكَ أني سأقابلكَ صباح الغد؟»

قلت: «إنني آسف، لكن المسألة عصيّة على التأجيل، فالسيد شيرلوك هولمز...

كان لذكر اسم صديقي أثر غير عاديّ على الرجل الضئيل، فقد ذابت نظرة الغضب في لحظة عن وجهه، وصارت ملامحه مشدودة ومتنبهة.

وسألني: «هل جئت من طرف هولمز؟»

– لقد غادرتُه للتوّ.

– ماذا عن هولمز؟ كيف حاله؟

– إنّه مريضٌ مرضًا شديدًا، وهذا سبب مجيئي.

أشار الرجلُ لي بالجلوس على كرسيّ، واستدار ليرجع إلى كرسيه. لمحتُ بينما كان يفعلُ ذلك وجهه على المرآة الواقفة فوق رف الموقد، وأكاد أقسم أني رأيتُ ابتسامةً خبيثة بغيضة تعلوه، لكنّي أقنعتُ نفسي رغم ذلك أنها لا بدّ كانت تشنجًا عصبيًّا بسبب المباغتة، فقد استدار نحوي بعد لحظة والقلق الخالص بادٍ على ملامحه.

وقال: «يؤسفني سماع هذا. لستُ أعرف السيد هولمز إلا عبر بعض الأعمال التي قمنا بها معًا، لكني أكنّ كل احترام لمواهبه وشخصيته. إنه هاوٍ للجريمة مثلما أهوى الأوبئة. هو يبحثُ عن المُجرم، وأنا عن المكروب. تلكَ سجوني» وتابعَ كلامه مشيرًا بيده إلى صف من القناني والبرطمانات المنتصبة على طاولة جانبية، «وإن بعض أسوأ مُجرمي العالم قابعٌ يقضي عقوبته الآن هناك بين تلك المزارع الهُلامية».

«إن عِلمَكَ المميز هذا هو سبب رغبة السيد هولمز برؤيتك، فهو يقدّرك جدًّا ويعتقد أنك الرجل الوحيد في لندن القادر على مساعدته».

أجفل الرجل القصير وانزلقت قبعة التدخين الأنيقة عن رأسه إلى الأرض.

وسأل: «لمَ؟ لمَ قد يعتقد السيد هولمز أني قادرٌ على مساعدته في علّته؟»

– بسبب معرفتك بالأوبئة الشرقية.

– لكن ما الذي يجعله يعتقد أن الوباء الذي حلّ به شرقي؟

– ذلك لأنه كان يعمل بين البحارة الصينيين في الميناء أثناء قيامه ببعض التحقيقات الاحترافيّة.

ابتسم السيد كولفيرتن بسرور والتقط قبعة التدخين خاصته.

وقال: «أوه، هذا كل ما في الأمر، أليس كذلك؟ أجزمُ أنّ المسألة ليست بالخطورة التي تفترضها، كم من الوقت مضى على مرضه؟»

– نحو ثلاثة أيام.

– هل يهذي؟

– بين الحين والآخر.

– أُفٍّ أف! هذا يبدو خطرًا، وسيكون من اللاإنساني ألّا أستجيب لهذا النداء. إنّي أغتاظ جدًّا من مقاطعة عملي يا دكتور واتسون، لكن هذه الحالة استثنائية بالتأكيد، لذا سآتي معك حالًا.

تذكرتُ وصية هولمز.

وقلت: «لديّ موعد آخر».

«جيد جدًّا، سأذهب وحدي. لديّ خطاب عليه عنوان هولمز، ويمكنك التعويل على وصولي إليه خلال نصف ساعة على الأكثر».

دخلتُ غرفة نوم هولمز مجددًا بقلب يطفح غمًّا، فقد كنتُ أتوقّع أنْ ربما حدث الأسوأ في غيابي، لكنّي ارتحت أشدّ راحتي وقتما رأيتُه متحسنًا تحسنًا عظيمًا في هذه الفترة. كان مظهره مخيفًا مثلما تركتُه، لكن لم يعُد به أثر هذيان، وصحيحٌ أن صوته كان مهدودًا، لكنه كان يتكلم بأكثر من بروده وصفاء ذهنه المعتادين حتى.

– إذًا، هل رأيته يا واتسون؟

– بلى، وهو آتٍ.

– رائع يا واتسون! رائع! إنّك لأفضل الرُّسُل.

– أراد أن يأتي معي.

– لم يكن هذا ليفي بالغرض البتة يا واتسون، كان سيجعل الأمر مستحيلًا تمامًا. أسَألَكَ عن مرضي؟

– أخبرته عن الصينيين في إيست إيند.

– بالضبط! حسنًا يا واتسون، لقد فعلتَ كل ما يمكن لصديق طيّب فعله، ويمكنك الآن الاختفاء من المشهد.

– لا بدّ أن أنتظر وأسمعَ رأيه يا هولمز.

– بالتأكيد يجب أن تفعل، لكن لدي أسباب تدفعني لافتراض أن رأيه سيكون أكثر صراحة وقيمة بكثير إذا ما كان متصورًا أننا وحدنا. ثمة حيّز جيد خلف رأس سريري يا واتسون.

– ماذا تقول يا هولمز!

«أخشى أننا لا نملك حلًّا آخر يا واتسون، فهذا الحيّز لا يبدو مكانًا مناسبًا لإخفاء شيء ما، ما يجعله الأقل عرضةً لإثارة الشكوك أيضًا. لكن لا أتخيّل أن الأمر قابل للإنجاز إلّا هناك يا واتسون»، وفجأة جلس تعلو وجهه المنهك عزيمة صارمة، «ها هوَ صوتُ العجلات يا واتسون، أسرع يا رجل إذا كنت تحبني! ولا تتزحزح مهما حدث، مهما حدث، أتسمعني؟ لا تنطق! لا تتحرك! استمع ملء أذنيك فحسب». ثم في لحظة واحدة، غادرَتْه دفعة القوة، وتلاشى خطابه المتسلّط الهادف إلى دمدمة منخفضة مبهمة صادرة عن رجل نصف هاذٍ.

سمعتُ من مخبئي الذي اندفعتُ سريعًا إليه وقع الأقدام على الدرج، وصوت فتح باب غرفة النوم وإغلاقه، ثم أدهشني أن أعقب ذلك صمتٌ طويل لم تقاطعه إلا أصوات أنفاس المريض الثقيلة ولهاثه. كان بمقدوري تصوّر زائرنا واقفًا جانبًا وهو ينظر إلى المريض، وكُسر السكوت الغريب أخيرًا.

صاح: «هولمز! هولمز!» بنبرة لجوجةٍ لشخص يوقظ نائمًا، «ألا يمكنك سماعي؟» ثم سمعتُ صوت حفيف ملابس كما لو أنه هزّ المريض بقوة من كتفه.

همس هولمز: «أهذا أنت يا سيد سميث؟ لم يكُن لديّ أملٌ في قدومك».

ضحك الآخر.

وقال: «لا أتصوّر أن يكون لديك أمل، ومع ذلك، إني هُنا كما ترى. جمرٌ مشتعل يا هولمز، جمرٌ مشتعل!»

«هذا فعلٌ طيب جدًّا، ونبيلٌ جدًّا من ناحيتك، وإنّي لأقدّر عِلمك المميز».

ضحك ضيفنا ضحكة مكبوتة.

«بلى أنتَ تقدره. أنتَ، لحُسن الحظ، الرجل الوحيد في لندن الذي يفعل. أتعرف ما خطبُك؟»

قال هولمز: «الأمر نفسه».

– آه! هل تبيّنت الأعراض؟

– تمامًا.

– حسنًا، لا يجب أن أتفاجأ يا هولمز، لا يجب أن أتفاجأ من كونه الخطب نفسه. إنك في موقف حرج إذا ما كان الأمر كذلك، فقد توفيَ فيكتور البائس في اليوم الرابع، وكانَ شابًّا قويًّا معافًى. من المفاجئ جدًّا بالتأكيد، كما قُلتَ، أنه أُصيبَ بوباءٍ آسيويّ كهذا وهو معتزل في قلب لندن، قد قمتُ بدراسة مخصصة

جدًّا حول هذا الوباء أيضًا. إنها صدفة فريدة يا هولمز، وكانت ملاحظتها ذكاءً شديدًا منك، لكن من القسوة اقتراح أنها سبب ونتيجة.

– كنتُ أعرفُ أنك فاعلُها.

– أوه، كنتَ تعرف، أليس كذلك؟ حسنٌ، لم تستطع إثبات ذلك بأي حال، لكن كيف تنظر لنفسك وأنت تنشر التقارير عني هكذا، ثم تأتي زاحفًا إليّ طلبًا للمساعدة بمجرد أن وقعت في مأزق؟ أي لعبة تمارس؟ ها؟

سمعتُ أنفاس المريض المسحوجة المُجهدة، وقال: «أعطني الماء!»

«إنكَ ثمينٌ وأنت مشارفٌ على الموت يا صديقي، لكنّي لا أريدك أن ترحلَ قبل أن أتكلم معك، لذا سأعطيك الماء، أمسك، لا تُرقه! هذا جيد. هل يمكنك فهم ما أقول؟»

أنّ هولمز.

وهمس: «افعل ما بوسعك لإنقاذي، وعفا الله عمّا مضى، سأطرد الكلمات من رأسي، أقسم أني سأفعل. فقط اشفِني، وسأنسى الأمر».

– تنسى ماذا؟

– أمرَ موت فيكتور سافيج، فقد اعترفتَ تقريبًا للتوّ أنك فعلتها، وأنا سأنسى ذلك.

– انسَ الأمر أو تذكره كما يحلو لك، فلا أعتقد أنك ستعيش لتدخل قفص الشهود، لكنّي أجزم لك أنك ستدخل صندوقًا ذا شكل آخر تمامًا يا صديقي هولمز الطيب. لا تعنيني معرفتكَ كيف توفيَ ابن أخي في شيء، فأنت الذي نتكلم عنه، لا هوَ.

– أجل، أجل.

– قال الرجل الذي استدعاني، نسيتُ ما اسمه، أنك أُصبت به في إيست إيند بين البحارة.

– لا يمكنني تفسيره إلا هكذا.

– أنتَ فخور بعقلك يا هولمز، ألست كذلك؟ وترى نفسك حاذقًا، صحيح؟ لقد قابلتَ من هو أذكى هذه المرة. اعصر ذاكرتك يا هولمز، ألا يمكنك التفكير بأي طريقة أخرى لإصابتك بهذا الشيء؟

– لا يمكنني التفكير، لقد ضاع عقلي، ساعدني بحق السماء!

– بلى، سأساعدك. سأساعدك في فهم حالتك الحالية وكيفية بلوغك إياها فقط، فإني أريدكَ أن تعرفَ قبل أن تموت.

– أعطِني شيئًا يخفّف من ألمي.

– أليمٌ أليس كذلك؟ بلى، من عادة المصابين بداء الحمالين إطلاق بعض الصرخات مع اقتراب النهاية، إذ إنه يصيبك بمغص كما أتخيل.

– بلى، بلى؛ إنه يُمغِص.

– حسنًا، يمكنك سماع ما أقول بأي حال، فأنصت الآن! هل تذكر حدوث أي حادثة غريبة في حياتك نحوَ وقت بداية أعراضك؟

- لا، لا؛ لا أذكر شيئًا.

- فكر مجددًا.

- إن شدة مرضي تمنعني من التفكير.

- حسنًا إذًا، سأساعدك. هل وردكَ أي شيء عبر البريد؟

- عبر البريد؟

- صندوق ربما؟

- إنني أفقد الوعي، لقد انتهى أمري!

«اسمع يا هولمز!» ثم سمعتُ صوتًا كما لو أنه يهزّ الرجل المحتضر، وكل ما كان بمقدوري فعله هو البقاء هادئًا في مخبئي. «عليك أن تسمعني، بل ستسمعني، هل تذكر صندوقًا، صندوقًا عاجيًّا؟ وصل يوم الأربعاء، وقد فتحته، هل تذكر؟»

- بلى، بلى، لقد فتحته. كان بداخله زنبرك حاد. مزحة ما..

- لم تكن مزحة، كما ستكتشف على حسابِ حياتك. أيها الأحمق، لقد كنت تريد هذا وقد حصلت عليه. من دفعك إلى اعتراض طريقي؟ لو تركتني وشأني ما كُنتُ لأؤذيك.

لهث هولمز: «إنني أتذكر، لقد أنزفني الزنبرك دمًا! والصندوق، هوَ ذا الذي على الطاولة».

«هوَ بعينه، وحق الله! وربما يغادر الغرفة في جيبي أيضًا، وهكذا تفقد آخر نُتفة دليل لديك، لكنك بتّ تعرف الحقيقة الآن يا هولمز، وبمقدورك الموت عارفًا أني قتلتُك. كنتَ تعرف الكثير عن مصير فيكتور سافيج، لذا أرسلتُك لتشاركه المصير. باتت نهايتك وشيكة جدًّا يا هولمز، وسأجلس هنا وأراقبكَ تلفظ آخر أنفاسك».

غصّ صوت هولمز حتى صار همسًا غير مسموع تقريبًا.

قال سميث: «ماذا؟ أتريدني أن أرفع مستوى ضوء مصباح الغاز؟ هل بدأت الظلال تحيط بك؟ أجل، سأرفع مستوى الضوء كيّ أتمكن من رؤيتك بصورة أفضل»، ثم عبرَ الغرفة وسطع الضوء فجأة، «هل ثمة أي خدمة صغيرة أخرى يمكنني إسداؤك إياها يا صديقي؟»

«سيجارة وعود ثقاب».

أوشكتُ أن أصرخَ بهجةً واندهاشًا، فقد كان ينطق بصوته الطبيعي، لعلّه كان ضعيفًا بعض الشيء، لكنه الصوت الذي أعرفه بعينه. أعقب ذلك صمت طويل، وشعرتُ أن كولفيرتن سميث كان واقفًا يحدق في ذهول صامتٍ إلى رفيقه.

سمعتُه يقول أخيرًا بنبرة جافة خشنة: «ما معنى هذا؟»

قال هولمز: «إن الطريقة المُثلى لتمثيل دورٍ ما بنجاح هي عيشُ الدور، أصدقكَ القول إني ولثلاثة أيام لم أذق طعامًا ولا شرابًا حتى أحسنتَ إليّ وسكبتَ لي كأس الماء تلك، لكن الصوم عن التبغ هو ما وجدته الأكثر مشقة. آه، وأخيرًا بعض السجائر». سمعتُ صوت إشعال عود ثقاب. «هذا أفضل بكثير، أهلًا! أهلًا! أأسمع صوت خطوِ صديق ما؟».

كان ثمة وقع خطوات في الخارج، ثم فُتح الباب وظهر المفتّش مورتون.

فقال هولمز: «كل شيء بحسب الأصول وهذا هوَ رجلُك».

سردَ عليه الضابط التحذيرات المعتادة.

وقضى قائلًا: «أنت رهنُ الاعتقال بتهمة قتل فيكتور سافيج».

فعلّق صديقي مبتسمًا: «ويمكنك إضافة تهمة الشروع في قتل شيرلوك هولمز أيضًا، لقد أراحنا السيد كولفيرتن سميث من كثير من العناء أيها المفتّش، فقد كان مطيعًا بما يكفي لإطلاق إشارتنا الكامنة في رفع مستوى ضوء الغاز. بالمناسبة، ثمة صندوق صغير في جيب معطف السجين الأيمن يجب إخراجه أيضًا، شكرًا لك. كنتُ لأعامله بحذر شديد لو كنتُ مكانك، ضعه هنا، فلعله يلعب دوره في المحاكمة».

حدثت هجمة واشتباك مباغتين، أعقبهما صوت خشخشة الحديد وصيحة ألم.

قال التحري: «لن تفعل إلا إيذاء نفسك، لذا قف ثابتًا». ثم سمعتُ طقة إقفال الأصفاد.

صاح الصوت المرتفع المزمجر: «فخٌّ بارع! لكنه سيودي بك أنتَ إلى قفص الاتهام يا هولمز، لا أنا. لقد طلب مني المجيء إلى هنا بغية علاجه، فشعرت بالأسف عليه وقَدِمت، والآن لا شكّ سيزعم أني قد قلت شيئًا ما اخترعه لإثباته شكوكه الجنونية. يمكنك أن تكذب قدر ما تشاء يا هولمز، فكلمتي مكافئة لكلمتك دائمًا».

هتف هولمز: «يا للسماوات! لقد نسيته تمامًا. إني أدينُ لك بألف اعتذار يا صديقي واتسون العزيز، فلا بدّ اعتقدتَ أني قد سهوت عنك! لا حاجة لتقديمك إلى السيد كولفيرتن سميث، بما أني فهمتُ أنكما قد التقيتما بطريقة ما باكرًا هذا المساء. أعربةُ الأجرة تنتظرك في الأسفل؟ سأتبعك بعد أن أرتدي ملابسي، إذ أعتقدُ أني قد أكون ذا نفعٍ ما في المركز».

«لم أحتج إلى أكثر من هذا قط» قال هولمز وهو ينعش نفسه بكأس من نبيذ كلاريت وبعض البسكويت في الفترات التي تتخلل ارتداءه ملابسه، «ومع ذلك، مثلما تعرف، فإن عاداتي غير منتظمة، وإن إنجازًا كهذا يعني بالنسبة لي أقل مما يعنيه لمعظم الرجال. كان تثبيت خطورة حالتي في ذهن السيدة هدسون أمرًا محوريًّا، فهي مَن كانت ستوصلها إليك، وأنتَ بدورك توصلها إليه. لن تشعرَ بالإهانة يا واتسون، أليس كذلك؟ أنت مدركٌ أن النفاق لا مكان له بين مواهبك الكثيرة، وأنك لو عرفت سرّي لما كنت قادرًا على التأثير في سميث وإقناعه بضرورة حضوره، وهو ما كان النقطة الأساسية في مخططي بأكمله، ولمعرفتي بطبيعته الانتقامية، كنت متأكدًا تمامًا أنه سيأتي لمشاهدة صنعته».

– لكن ماذا عن مظهرك يا هولمز، والوجه المُخيف؟

– لا تحسّن ثلاثة أيام من الصيام المطلق جمال المرء يا واتسون، وبالنسبة للبقية، فلا شيء عصيّ على إسفنجة تجميل، وإذا ما وضع المرء الفازلين على جبهته، والبيلادونا في عينيه، وبعض الروج على وجنتيه، وقشور الشمع حول شفتيه، يمكنه إنتاج أثر مُرضٍ جدًّا، فادّعاء المرض أحد المواضيع التي كنتُ أفكر في كتابة دراسة عنها، وحديثٌ قصير عن أنصاف الكراونات، أو المحار، أو أي موضوع غريب يعطي طابع هذيانٍ جذاب.

– لكن لمَ لم تسمح لي بالاقتراب منك إذا لم يكن ثمة إصابة في الحقيقة؟

– أيعقل أن تسأل هذا السؤال يا عزيزي واتسون؟ أتتصور أني لا أحترم مواهبك الطبية؟ هل بمقدوري تخيل أن يمر حُكمك الذكيّ مرور الكرام على رجل محتضر دون تسرّع نبض أو ارتفاع حرارة مهما كان هزيلًا؟ يمكنني خداعك حتى مسافة أربع ياردات، وإذا ما فشلتُ في ذلك، فمن كان ليجلب سميث إلى قبضتي؟ لكن لا يا واتسون، لم أكن لألمس الصندوق، فإذا نظرتَ إلى جوانبه يمكنك رؤية المكان الذي يبزغ منه الزنبرك الحاد كناب الأفعى حين تفتحه. يمكنني القول إن المسكين سافيج، الذي كان يقف بين هذا الوحش واسترداده ملكية ما، قد لقي حتفه بأداة مشابهة، لكنّ تعاملي مع المراسلات مختلف، كما تعرف، وإني على حذرٍ نوعًا ما من أي طرد يصلني. كان واضحًا بالنسبة لي أنني إذا ما ادّعيت نجاح مخططه فقد أحصل على اعتراف منه، وهي الحجّة التي طبقتُها بإتقان فنان حقيقي. شكرًا لك يا واتسون، عليك مساعدتي في ارتداء معطفي الآن، وحينما ننتهي من مركز الشرطة أعتقد أن تناول وجبة مغذية ما في مطعم سيمبسون سيكون ملائمًا جدًّا».

اختفاء الليدي فرانسِس كارفاكس

«لكن لماذا التركيٌّ؟» سأل السيد شيرلوك هولمز، وهو ينظر إلى حذائي. كنت مستلقيًا في كرسي ظهره من الخيزران لحظتها، وقد جذبت قدماي البارزتان انتباهه اليقظ دومًا.

أجبته ببعض الدهشة: «إنه إنجليزي، اشتريته من متجر لاتيمر في شارع أكسفورد».

ابتسم هولمز ابتسامةً تشي بنفاد الصبر، وقال:

– الحمّام! أقصد الحمّام! لماذا الحمّام التركيّ الاستجمامي الباهظ بدلًا عن المنزليّ المنعش؟

– لأن الشعور بآلام المفاصل والتقدم في السن يلازمني منذ عدة أيام خلَت، والحمّام التركي هو ما ندعوه في الطب علاجًا مقويًا، إذ إنه كنقطة انطلاق جديدة ومطهر للبدن.

على العموم يا هولمز، لا شك لديّ في أن الرابطة بين حذائي والحمّام التركي رابطة بدهية جدًّا بالنسبة لفكر عقلاني، ومع ذلك، سأكون ممتنًّا لك إذا ما أوضحتها.

قال هولمز وبريق الخبث في عينيه: «سلسلة الاستدلال ليست عويصةً جدًّا يا واتسون، وهي تنتمي إلى صنف الاستنتاج الأولي نفسه الذي سيتوجب عليّ شرحه إذا ما سألتك عمَّن شاركك عربة الأجرة التي استقللتها هذا الصباح».

قلت بشيء من الحدة: «لا أوافق على اعتبار تقديم مثالٍ جديدٍ تفسيرًا».

– أحسنت يا واتسون! احتجاج رصين ومنطقي جدًّا. دعني أفكر، ما كانت النقاط؟ خذ النقطة الأخيرة أولًا، أي عربة الأجرة، ستلاحظ وجود بعض اللطخات على كمّ معطفك وكتفه الأيسرين. لو أنك جلست في مركز العربة لما بلغتك أي لطخات على الأرجح، ولو حدث ذلك، فمن المؤكد أنها ستكون متناسقة، وهكذا يكون واضحًا أنك جلست جانبًا، ما يجعل وجود صحبة معك أمرًا بالوضوح نفسه.

– هذا جليّ جدًّا.

– أمر اعتياديّ على نحو سخيف، أليس كذلك؟

– لكن ماذا عن الحذاء والحمّام؟

– الأمر على نفس الدرجة من السخف؛ فأنت معتاد على انتعال جزمتك بطريقة معينة، لكنني أرى رباطها هذه المرة معقودًا في أنشوطة مزدوجة متقنة، وهذه ليست طريقتك المعهودة في ربطه. هذا يعني أنك خلعتها، إذًا من الذي ربطها لك؟ هو إما إسكافيٌّ أو صبي الحمام، ومن غير المرجح أن يكون الإسكافي، لأن حذاءك شبه جديد. إذًا يبقى أمامنا الحمام. سخيف، أليس كذلك؟ لكن رغم كل هذا، فقد أدى الحمام التركي غرضًا ما.

– وما هو؟

– تقول إنك أخذت الحمام لحاجتك إلى التغيير، إذًا دعني أقترح عليك تغييرًا، ما رأيك بالذهاب إلى لوزان، عزيزي واتسون، تذاكر الدرجة الممتازة بتكاليف مدفوعة بالكامل على مستوًى أميريّ؟

– رائع! لكن لماذا؟

تراجع هولمز في جلسته على كرسيه ذي الذراعين وأخرج كُرّاسه من جيبه، وقال:

«إن المرأة المتنقلة عديمة الأصدقاء واحدة من أكثر الفئات خطرًا في العالم، فهي الأكثر وداعة وغالبًا ما تكون أكثر البشر صلاحًا، لكنها المحرض الحتميّ للجريمة عند الآخرين، لأنها ضعيفة ورحالة، ولديها من الموارد ما يكفي لترحالها من بلد إلى بلد ومن فندق إلى آخر، وهي ضائعة، في الغالب، في متاهة من البنسيونات والفنادق النائية. إنها أشبه بدجاجة ضالة في عالم من الثعالب بالكاد يفتقدها أحد إذا ما التُهمت، ولكم أخشى أن يكون شرٌّ ما قد أحاق بالليدي فرانسِس كارفاكس».

شعرت بالراحة عند هذا الهبوط المباغت من التعميم إلى التخصيص، وتابع هولمز تقليب ملاحظاته مردفًا:

– الليدي فرانسِس هي آخر الباقين من العائلة المباشرة لإيرل روفتون الراحل. ورثت ذكور العائلة العقارات، كما تذكُر، ولم يبقَ لها إلا موارد محدودة، وبعض المجوهرات الإسبانية الفضية القديمة النادرة جدًّا والماسات غريبة الشكل، والتي كانت الليدي متعلقة ومشغوفة بها جدًّا، لدرجة أنها أبت تركها بحوزة المصرفي خاصتها، ودائمًا ما كانت تحملها معها. إنها شخصية مثيرة للشفقة بعض الشيء. الليدي فرانسِس، امرأة جميلة بلغت منتصف عمرها مؤخرًا، صارت الآن بعد انقلاب غريب آخرَ السفنِ المتروكة مما كان أسطولًا كبيرًا منذ عشرين عامًا فقط.

– ماذا أصابها إذًا؟

– آه، ماذا أصاب الليدي فرانسِس؟ إن مسألتنا في السؤال أحيّةٌ هي أم ميتة؟ فهي سيدة دقيقة في عاداتها، ولأربع سنوات كان من ثابت عادتها كتابة رسالة كل أسبوعين للآنسة دوبني، مربيتها العجوز التي تقاعدت منذ زمن بعيد وتعيش الآن في كامبرويل. الآنسة دوبني هذه هي من استشارني، إذ مرّ قرابة خمسة أسابيع لم تصلها فيها كلمة واحدة. كانت آخر رسالة وردتها قادمة من فندق ناشونال في لوزان، ويبدو أن الليدي فرانسِس قد غادرت الفندق دون أن تترك عنوانًا. العائلة الآن قلقة جدًّا، وهم فاحشو الثراء فلن يبخلوا بأي مبلغ إذا ما أمكننا استيضاح المسألة.

– هل الآنسة دوبني مصدر المعلومات الوحيد؟ لا بد أنها تبادلت الرسائل مع شخص آخر.

– هناك جهة تراسل واحدة أخرى، وهي رهان مضمون يا واتسون، إنها المصرف. فعلى السيدات العازبات العيش، ودفاتر حساباتهن الجارية عبارة عن مذكرات مكثفة. هي تودع أموالها في مصرف سلفستر، وقد ألقيت نظرة على حسابها؛ استُخدم الشيك ما قبل الأخير لدفع فاتورتها في لوزان، لكنه كان شيكًا بمبلغ ضخم وعلى الأرجح أن بعض النقود بقي معها، ولم يُستخدم إلا شيك واحد منذ ذلك الحين.

– لمن؟ وأين؟

– للآنسة ماري ديفاين، ولا دلالة على مكان سحب الشيك، لكنه صُرف في كريديت ليونيه في مونبيلييه منذ أقل من ثلاثة أسابيع، وكان المبلغ خمسين جنيهًا.

– ومن هي الآنسة ماري ديفاين؟

– هذا أمر تمكنت من اكتشافه أيضًا؛ الآنسة ماري ديفاين كانت خادمة الليدي فرانسِس كارفاكس، ولم نستطع تحديد سبب دفعها هذا الشيك لها، لكن لا شك لدي في أن أبحاثك ستحل هذه العقدة قريبًا على أي حال.

– أبحاثي!

– وهذا سبب البعثة المفيدة للصحة إلى لوزان، فأنت تعلم أنني لا يمكن أن أغادر لندن مطلقًا، وأبراهامز العجوز في مرحلة من الذعر القاتل من حياته، وأيضًا، من الأفضل استنادًا إلى المبادئ العامة ألا أغادر البلاد، فسكوتلاند يارد تشعر بالوحشة دوني، وهذا يسبب هياجًا غير صحي بين صفوف المجرمين. اذهب إذًا عزيزي واتسون، وإذا ما كان لمشورتي المتواضعة أن تدفع لأجلها قيمة باهظة تعادل بنسين للكلمة الواحدة، فهي رهن إشارتك على مدار الساعة على الطرف الآخر من خدمة التلغراف القاري.

وجدت نفسي بعد يومين في فندق ناشونال في لوزان، حيث قابلني المدير ذائع الصيت م. موزر بمنتهى الكياسة، وأعلمني أن الليدي فرانسِس أقامت هناك لعدة أسابيع، وكانت محبوبة للغاية من كل الذين قابلوها. لم يكن عمرها يجاوز الأربعين، وكانت ما تزال جميلةً تحمل كل دلالةٍ على أنها كانت امرأة فاتنة في صباها. لم يعرف م. موزر شيئًا عن أي مجوهرات ثمينة، لكن الخدم لاحظوا أن حقيبة السفر الثقيلة في غرفة نوم الليدي كانت مُقفلة دائمًا بحرص شديد. كانت الخادمة ماري ديفاين، ذات شعبية مثل سيدتها، وهي مخطوبة لواحد من كبار جارسونات الفندق، ولم يكن ثمة صعوبة في الحصول على عنوانها، الذي كان: 11 رو دو تراجان، مونبلييه. دوّنت كل هذه التفاصيل وشعرت أن هولمز نفسه لا يمكن أن يكون أكثر دهاءً في جمع هذه الحقائق.

لم يبقَ إلا جانب واحد مُعتم، إذ لم يكن ما اكتسبتُ من معلومات قادرًا على تفسير سبب مغادرة الليدي المفاجئة، فقد كانت سعيدةً جدًّا في لوزان، وكل الأسباب تدفع للاعتقاد أنها كانت تعتزم قضاء الفصل في الغرف الفارهة المطلة على البحيرة، ومع ذلك، لم تُعلم إدارة الفندق بمغادرتها إلا قبل يوم واحد فقط، ما ورّطها بدفع أجرة أسبوع دون جدوى. كان جول فيبار، خطيب الخادمة، الشخص الوحيد الذي يحمل في جعبته مقترحًا يقدمه، فقد ربط المغادرة المباغتة بزيارة رجل للفندق قبل يوم أو اثنين، رجل طويل، ملتحٍ وداكن البشرة، وصاح بالفرنسية: «لقد كان متوحشًا، متوحشًا حقيقيًّا!». كان للرجل غرف في مكان ما من البلدة، وقد شوهد يتكلم بجدية مع الليدي على الممشى بجوار البحيرة، ثم زارها ورفضَتْ رؤيته. كان إنجليزيًّا، لكن اسمه غير معروف. وغادرت الليدي المكان مباشرة بعدها. اعتقد جول فيبار، والأكثر أهميةً، حبيبة جول فيبار، أن الزيارة والمغادرة ما هما إلا سبب ونتيجة، لكن ثمة أمر رفض جول مناقشته، وهو علة هجر ماري سيدتها، إذ لم يقدر أو لم يرغب بالحديث عن ذلك، وإذا ما أردتُ معرفة ذلك فكان عليّ الذهاب إلى مونبلييه وسؤالها.

وهكذا انتهى الفصل الأول من تحرياتي، أما الثاني فكان مكرسًا للمكان الذي قصدته الليدي فرانسِس كارفاكس بعد مغادرتها لوزان، وكان هذا الشأن محاطًا ببعض السرية، ما يؤكد فكرة أنها رحلت وفي نيتها منع أحدهم من تعقبها، وإلا لماذا لم تُوضع بطاقة صريحة على أمتعتها تُشير إلى بادن؟

فقد وصلت هي وأمتعتها إلى منتجع رينيش عبر طريق ملتوٍ، وكان هذا قدر ما استطعت تحصيله من مدير مكتب كوك المحلي، فتوجهت إلى بادن، بعد إيفادي تقريرًا بكل إجراءاتي إلى هولمز واستلامي برقية إشادة نصف ساخرة ردًّا عليه.

لم يكن تقفي أثر الليدي فرانسِس في بادن أمرًا صعبًا، إذ إنها أقامت في فندق إنغليشر هوف لأسبوعين، وتعرفت أثناء وجودها هناك على الدكتور شليسينغر وزوجته، والذي كان مبشّرًا من جنوب أمريكا، وكما هو حال معظم السيدات الوحيدات، وجدت الليدي فرانسِس عزاءها واشتغالها في الدين. أثرت بها شخصية الدكتور شليسينغر الاستثنائية، وتفانيه النابع من أعماق قلبه، وحقيقة أنه كان يتعافى من داء أصابه أثناء أدائه واجباته البابوية تأثيرًا عميقًا، فساعدت السيدة شليسينغر في رعاية القديس ليتعافى. كان يقضي يومه، كما وصف المديرُ الأمر لي، مستلقيًا فوق أريكته في الشرفة، ترافقه خادمة على كل جانب. يعمل على خريطة للأرض المقدسة، فيها ذكر خاص لمملكة المَديَنيين التي كان يكتب عنها دراسة فردية، وفي النهاية، بعد أن تحسنت صحته تحسنًا بالغًا، عاد وزوجته إلى لندن، وارتحلت الليدي فرانسِس إلى هناك برفقتهم. كان هذا منذ ثلاثة أسابيع فقط، ولم يسمع المدير شيئًا منذ ذلك الحين، أما الخادمة ماري فكانت قد رحلت قبل ذلك بعدة أيام غارقة بدموعها، بعد أن أعلمت بقية الخادمات أنها ستتقاعد من الخدمة للأبد، وقد دفع الدكتور شليسينغر فاتورة الزمرة بأكملها قبل مغادرته.

قال المؤجر في خاتمة كلامه:

– بالمناسبة، لستَ صديق الليدي كارفاكس الوحيد الذي يتحرى أمرها الآن، فمنذ أسبوع تقريبًا جاءنا رجل بالمهمة ذاتها.

– هل قال ما اسمه؟

– كلا؛ لكنه كان رجلًا إنجليزيًّا، وكان غريب الشكل.

«متوحش؟»، سألته واصلًا النقاط بين الحقائق التي في جعبتي متبعًا أسلوب صديقي الشهير.

– بالضبط، هذه الكلمة تصفه تمامًا، إنه شخص ملتحٍ ضخم البنية لوّحت الشمس وجهه، يوحي لك مظهره بأنه قد يشعر بالألفة في خان للفلاحين أكثر منها في فندق عصريّ. خشنٌ شرسٌ، بحسب اعتقادي، وشخص سأندم إذا ما أسأتُ إليه.

الآن بدأ اللغز يتضح كما تتجلى الأشكال شيئًا فشيئًا مع تبدد الضباب، فهنا كانت هذه السيدة الطيبة التقية يطاردها شخص شريرٌ قاسٍ من مكان إلى آخر، فخشيَته، وإلا لما فرّت من لوزان، لكنه تابع ملاحقتها، وعاجلًا أم آجلًا سيدركها، هل أدركها بالفعل؟ وهل هذا هو سر صمتها المتواصل؟ ألم يستطع رفاقها الطيبون حمايتها من بطشه أو ابتزازه؟ وأي غاية شنيعة وتخطيط مظلم يكمنان خلف هذه المطاردة؟ هذه هي المشكلة التي كان عليّ حلها.

كتبت إلى هولمز أريه سرعة بلوغي جذور المسألة ويقيني بما توصلت إليه، فأجابني ببرقية يطلب فيها وصفًا لأذن الدكتور شليسينغر اليسرى. إن أفكار هولمز عن الفكاهة غريبة ومهينة في بعض الأحيان،

لذا لم أُعر دعابته السخيفة أي اهتمام، وفي الواقع، كنت قد وصلت إلى مونبلييه بالفعل متعقبًا الخادمة ماري قبل وصول رسالته.

لم أواجه أي مشقة في إيجاد الخادمة السابقة ومعرفة كل ما أمكنها إخباري به، كانت مخلوقًا متفانيًا، لم تترك سيدتها إلا لأنها كانت متأكدة أن الليدي في أيدٍ أمينة، ولأن زواجها القريب جعل الفراق حتميًّا بكل حال. اعترفَت بضيقٍ أن سيدتها قد أبدت قدرًا من المزاج الحادّ تجاهها أثناء إقامتهما في بادن، وحتى إنها استجوبتها مرة، كما لو كان لديها شكوك حول أمانتها، ما جعل الفراق أسهل. منحتها الليدي فرانسِس خمسين جنيهًا كهدية زفاف. كانت ماري شديدة الريبة مثلي، حول الغريب الذي دفع سيدتها إلى الهروب من لوزان، فقد رأته بأم عينها يقبض على معصم الليدي بضراوة بالغة على الممشى العمومي بجوار البحيرة. كان رجلًا قاسيًا ورهيبًا، واعتقدَت ماري أن الليدي وافقت على مرافقة عائلة شليسينغر إلى لندن فزعًا منه، ورغم أنها لم تحادث ماري عن الأمر قط، لكن العديد من الإشارات الصغيرة أقنعت الخادمة بأن سيدتها كانت تعيش حالة مستمرة من القلق والهلع. بلغت هذا القدر من روايتها، وقتما قفزت فجأة من كرسيها ووجهها يرتجف دهشةً وذعرًا وصاحت: «انظر! ما زال الفاجر على ملاحقته! ها هوَ الرجل الذي أتكلم عنه بعينه».

عبر نافذة غرفة الجلوس المفتوحة، رأيت رجلًا ضخمًا أسمر ذا لحية سوداء مُنتفشة يمشي رويدًا في منتصف الشارع ويحدق بتلهّف إلى أرقام المنازل. لقد كان واضحًا أنه، مثلي، يقتفي أثر الخادمة، فهرعت، تحركني اندفاعة اللحظة، إلى الخارج وبادرته الكلام:

قلت له: «أنت إنجليزي».

«وماذا لو كُنت إنجليزيًّا؟»، سألني مقطبًا بلؤم شديد.

«أيمكنني أن أسأل عن اسمك؟»

قال بحزم: «لا، لا يمكنك ذلك».

كان الموقف محرجًا، لكن غالبًا ما يكون أكثر الأساليب صراحةً هو الأفضل.

سألته: «أين الليدي فرانسِس كارفاكس؟»

حدق إليّ مندهشًا.

فقلت له: «ما الذي فعلته بها؟ لماذا طاردتها؟ أنا مصرّ على الحصول على إجابة!».

زمجر الرجل غاضبًا وقفز علي مثل نمر. لقد صمدت في نزاعات كثيرة قبلًا، لكن قبضة الرجل كانت حديدية وكان ثائرًا مثل شيطان. قبضت يده على حلقي حتى فقدت حواسي تقريبًا وقتما اندفع عامل فرنسي غير حليق الوجه يرتدي قميصًا أزرق من ملهًى مقابل، حاملًا هراوة في يده، وضرب مهاجمي ضربة سببت شقًا حادًّا في ساعده، ما جعله يفلت يده، ويقف برهةً وبخار الغضب يتصاعد منه غير متيقنٍ ما إذا كان ينبغي عليه الهجوم مرة أخرى، ثم تركني ودخل الكوخ الذي خرجت منه للتو مدمدمًا دمدمةً غضب. التفتُّ لأشكر حارسي، الذي ساندني في الشارع.

قال: «حسنًا يا واتسون، لقد أفسدتَ الأمر برمته! أعتقد أنه من الأفضل لك العودة معي إلى لندن بحلول موعد القطار السريع المسائي».

بعد ساعة من ذلك، كان شيرلوك هولمز بمعطفه وأسلوبه المعتاد جالسًا في غرفة الفندق الخاصة بي. كان تفسير ظهوره المفاجئ والمؤاتي في قمة البساطة، فقد اكتشف أنه قادر على مغادرة لندن، لذا قرر أن يقطع علي الطريق عند المحطة البدهية التالية من رحلاتي، وجلس في الملهى متنكرًا بزي عامل منتظرًا ظهوري.

وأردف: «لقد أجريتَ تحقيقًا متماسكًا على نحو استثنائي يا عزيزي واتسون، لا يمكنني في هذه اللحظة استحضار أي خطأ يُحتمل أن تكونَ قد اقترفته، لكن العاقبة الإجمالية لمشروعك كانت إثارة الجزع في كل مكان وعدم اكتشاف شيء رغم ذلك».

أجبته بمرارة: «ربما لم تكن لتنجز ما هو أفضل».

«لا يوجد «ربما» في ذلك، فقد أنجزت ما هو أفضل بالفعل، لدينا هنا المبجل فيليب غرين، هو نزيل معك في هذا الفندق، وقد نجده منطَلَقًا لتحقيقٍ أكثر نجاحًا».

جاءت بطاقة محمولة على طبق، يتبعها البلطجي الملتحي ذاته الذي هاجمني في الشارع، وقد أجفل عندما رآني.

سأل قائلًا: «ما هذا سيد هولمز؟ تلقيت خطابك وجئت، لكن ما علاقة هذا الرجل بالمسألة؟»

«هذا صديقي القديم وزميلي الدكتور واتسون، وهو يساعدني في هذه المهمة».

مد الرجل يدًا ضخمة وتلفظ ببعض كلمات الاعتذار:

«آمل أني لم أؤذك، عندما اتهمتني بالإضرار بها فقدت السيطرة على نفسي، وفي الحقيقة لا يُمكن لومي في هذه الأيام، فأعصابي أشبه بأسلاك مكهربة، لكن هذا الوضع خارج عن إرادتي، وما أريد معرفته في المقام الأول يا سيد هولمز، هو كيف –بحق السماء– سمعتَ بوجودي أصلًا».

– أنا على صلة بالآنسة دوبني، مربية الليدي فرانسِس.

– سوزان دوبني العجوز صاحبة القلنسوة! أتذكرها جيدًا.

– وهي تتذكرك، لقد كان ذلك في الأيام الغابرة، قبل اكتشافك أنه من الأفضل الذهاب إلى جنوب إفريقيا.

– آه، أرى أنك تعرف قصتي الكاملة. لست بحاجة إلى إخفاء أي شيء عنك، وأقسم لك يا سيد هولمز، أن لا رجل في هذا العالم أحب امرأة حبًّا أصدق من حبي لفرانسِس. لقد كنت شابًّا جامحًا، أعرف ذلك، لم أكن أسوأ من الآخرين في مستواي، لكن روحها كانت بيضَاء كالثلج، ولم يكن بمقدورها تحمّل ذرة جلافة، لذا، وحينما سمعتْ بالأشياء التي كنتُ قد فعلتُها، لم يعد لديها ما تقوله لي، وقد أحبتني رغم ذلك –وهذه أعجوبة الأمر!– أحبتني بما يكفي لتبقى عازبة كل أيام ورعها لأجلي وحدي، وبعدما مضت السنون وجمعتُ ثروتي في باربرتون، فكرتُ في البحث عنها وتليين قلبها. كنت قد سمعت أنها ما زالت غير متزوجة، وعثرت عليها في لوزان وحاولت بكل طاقتي، فرقّت لي، كما أعتقد، لكن إرادتها كانت

قوية، وعندما زرتها في المرة التالية كانت قد غادرت البلدة، فتعقبتها إلى بادن، ثم سمعت بعد مُدة أن خادمتها هنا. أنا شخص جلفٌ نشأ في حياة خشنة، ولذا عندما كلمني الدكتور واتسون كما فعل فقدت السيطرة على نفسي. لكن بالله عليك أن تخبرني ما الذي أصاب الليدي فرانسِس».

قال شيرلوك هولمز برقةٍ فريدة: «هذا ما علينا اكتشافه، ما هو عنوانك في لندن سيد غرين؟»

– يمكنك إيجادي في فندق لانغهام.

– إذًا هل لي أن أنصحك بالعودة إلى هناك والبقاء في متناول اليد في حال طلبتُك؟ لا رغبة لدي بمنحك آمالًا زائفة، لكن لك أن ترقد مطمئنًّا أننا سنفعل كل ما يمكن فعله لضمان سلامة الليدي فرانسِس، لا يمكنني أن أضيف شيئًا حاليًّا، وسأترك لك هذه البطاقة كي تتمكن من البقاء على تواصل معنا، والآن يا واتسون، أرجو أن تحزم أمتعتك، سأرسل برقية للسيدة هدسون كي تبذل أفضل جهودها لإرضاء مسافرَين جائعَين في السابعة والنصف من يوم غد.

كان ثمة برقية في انتظارنا وقتما وصلنا غرفنا في بيكر ستريت، قرأها هولمز بتعجب يشوبه الاهتمام ثم قذفها إلي، كانت العبارة المكتوبة: «محززة أو ممزقة»، ومَنشأ الرسالة بادن.

سألته: «ما هذا؟»

أجاب هولمز: «هذا كل شيء، ربما تتذكر سؤالي الذي بدا لكَ غير ذي أهمية حول الأذن اليسرى لذاك الرجل الكنسيّ النبيل، ولم تجب عليه».

– كنت قد غادرت بادن ولم يعد بوسعي التحري.

– تمامًا، لهذا السبب أرسلت السؤال نفسه لمدير فندق إنغليشر هوف، والذي تقبع إجابته في هذه الرسالة.

– وعلامَ تدل؟

– إنها تدل يا عزيزي واتسون، على أننا نتعامل مع رجل داهيةٍ وخطر على نحو استثنائي، فالمبجل الدكتور شليسينغر، المبشر الأمريكي، ليس إلا هولي بيترز، واحد من أسوأ الأرذال عديمي الضمير الذين أنجبتهم أستراليا قط، وبالنسبة لبلاد ناشئة، فقد خرّجت بعض الأشكال المكتملة للغاية. إن اختصاصه الشخصيّ خداع السيدات الوحيدات باللعب على مشاعرهن الدينية، وهذه التي يُقال إنها زوجته، هي امرأة إنجليزية اسمها فريزر، شريكة قيمة له. لقد أوحت طبيعة تكتيكاته إلي بهويته، وأكدت هذه السمة البدنية شكي، فهي ناجمة عن تعرضه لعضة شديدة في شجار حانةٍ في مدينة أديلايد عام 1889. هذه الليدي المسكينة واقعة في أيدي أكثر الأزواج جهنميةً، زوج لا يردعه رادع يا واتسون. إن فرضية أن تكون قد توفيت بالفعل مرجحة جدًّا، وإن لم تكن، فهي دون شك محتجزة بطريقة ما وعاجزة عن الكتابة للآنسة دوبني أو لأصدقائها الآخرين. من الممكن أنها لم تصل إلى لندن أبدًا، أو أنها عبَرتها، لكن الاحتمال الأول مستبعد، لأنه من الصعب على الأجانب التحايل على الشرطة القارية ونظام تسجيلها، والاحتمال الآخر غير مرجح أيضًا، فلا أمل لهذين المحتالين في إيجاد مكان آخر يمكّنهما من إبقاء شخص مقيدًا بهذه السهولة. كل غرائزي تخبرني أنها في لندن، لكن كون معطياتنا الحالية لا تمنحنا

مجالًا لنعرف أين في لندن، لا يسعنا إلا اتباع الخطوات البدهية، وهي تناول العشاء والصبر، ولاحقًا في المساء، سأنزل للتجوّل وسأتكلم مع الصديق لستراد في سكوتلاند يارد.

لم تكن الشرطة الرسمية ولا منظمة هولمز الخاصة الفعالة جدًّا رغم صغرها كافيتين لفك رموز اللغز، فوسط الملايين الغفيرة في لندن، اندثر الأشخاص الثلاثة الذين نبحث عنهم كما لو أنهم ما عاشوا قط. جُربت الإعلانات وفشلت، وجرى تتبع خيوط لم تقُد إلى شيء، وجُرب كل وكر إجرام قد يتردد عليه شليسينغر سدًى، وروقب زملاؤه السابقون لكنهم لم يقربوه، ثم فجأة، وبعد أسبوع من الترقب البائس، لَمع بصيص ضوء، فقد رُهنت قلادة فضية لامعة ذات تصميم إسباني قديم لدى متجر بوفينغتون في شارع ويستمنستر، وكان الراهن رجلًا ضخمًا حليق الوجه ذا مظهر كنسيّ. كان اسمه وعنوانه مزيفين على نحو واضح، ولم تجذب أذنه أي انتباه، لكن الوصف مطابقٌ لشليسينغر بالتأكيد.

كان صديقنا الملتحي في فندق لانغهام قد زارنا ثلاث مرات يسأل عن الأخبار، وصادفت زيارته الثالثة هذا التطور الأخير. كانت ملابسه تتسع على جسده الضخم، وبدا أنه يذبل في غُمته. كان نحيبه المستمر مصحوبًا بعبارة: «لو أنك تعطيني شيئًا أفعله فقط!»، وفي النهاية تمكن هولمز من مجاملته.

– لقد بدأ برَهن المجوهرات، وعلينا القبض عليه الآن.

– لكن هل يعني هذا أن أذًى ما قد أصاب الليدي فرانسِس؟

هز هولمز رأسه بشدة وقال:

– على فرض أنهما ما زالا يحتجزانها حتى الآن، فمن المؤكد أنهما عاجزان عن إطلاق سراحها دون جلب الهلاك على نفسيهما، فعلينا التجهز للأسوأ.

– ما الذي يمكنني فعله؟

– هل يعرفك هذان الشخصان شكلًا؟

– لا.

– من الممكن أن يذهب إلى بعض المسترهنين الآخرين في المستقبل، وفي تلك الحالة علينا البدء مجددًا، ومن جهة أخرى، فقد حصل على سعر جيد ولم تُثر أي تساؤلات، وإذا كان بحاجة لسيولة فعلى الأرجح أنه سيعود إلى بوفينغتون. سأكتب لك خطابًا تعطيهم إياه، وسيدعونك تنتظر في المتجر، وإذا ما جاء الرجل ستتبعه إلى منزله، لكن لا تتهوّر، والأهم من كل شيء، إياك والعنف. سأعتمد على أمانتك أنك لن تقدم على أي خطوة دون علمي وموافقتي.

لم يزودنا المبجل فيليب غرين (ولي أن أنوّه إلى أنه كان ابن الأميرال الشهير حامل الاسم نفسه الذي قاد أسطول بحر آزوف في حرب القرم) بأي مستجدات في اليومين التاليين، وفي عشية اليوم الثالث، هرع إلى غرفة جلوسنا شاحبًا متهدجًا، ترتعش كل عضلة في بنيانه القوي من شدة الانفعال.

وصاح: «لقد أمسكنا به! لقد أمسكنا به!».

كان مشوشًا ومنفعلًا، فهدّأه هولمز ببضع كلمات وحشره في كرسي ذي ذراعين.

وقال له: «هيا الآن، اسرد علينا الأحداث بالترتيب»،

«جاءت منذ ساعة فقط، كانت الزوجة هذه المرة، لكن القلادة التي جلبتها كانت شبيهة الأخرى، امرأة طويلة وشاحبة، ولها عينان كعيني النمس».

«إنها السيدة نفسها»، قال هولمز.

«تبعتُها بعد مغادرتها المكتب، سارَتْ في شارع كينينجتون، وبقيتُ خلفها، ثم دخلَتْ إلى محل وهي الآن فيه يا سيد هولمز، إنها محل حانوتي».

أجفل صاحبي، وسأله بصوت مرتجّ ينم عن الروح المتقدة خلف وجهه الرمادي البارد: «وبعد؟».

– كانت تتكلم مع المرأة الجالسة في واجهة الاستقبال، فقد دخلتُ أيضًا، وسمعتها تقول: «لقد تأخر»، أو شيئًا بهذا المعنى، كانت المرأة تلتمس الأعذار، وأجابتها: «كان يجب أن يصل قبلًا، لقد استغرق وقتًا أطول لكونه غير اعتيادي»، ثم توقفتا ونظرتا إليّ، فسألتُ بعض الأسئلة وغادرتُ المتجر.

– أحسنت العمل جدًّا، ماذا حدث بعدها؟

– خرجَت المرأة، لكني كنت قد اختبأتُ في مدخل أحد المنازل، كانت شكوكها مستثارة كما أعتقد، لأنها كانت تتلفتْ حولها، ثم أوقفتْ عربة أجرة وركبَتْها، وقد حالفني الحظ في إيجاد عربة أخرى للحاق بها. نزلتْ في النهاية عند المنزل 36، ميدان بولتني، في بريكستون، فتجاوزتُها ونزلتُ من عربتي عند زاوية الساحة، وراقبتُ المنزل.

– هل رأيت أحدًا؟

– كانت كل النوافذ معتمة إلا واحدة في الطابق الأرضي، والستائر مسدلة فلم أستطع رؤية الداخل. وقفتُ هناك محتارًا فيما يجب علي فعله، وعندئذٍ وصلتْ عربة كبيرة مغطاة بداخلها رجلان، هبطا وأخرجا شيئًا منها، ثم حملاه صعودًا على درجات المدخل، لقد كان نعشًا يا سيد هولمز.

– آه!

– للحظة كنت على وشك اقتحام المنزل، فقد كان الباب مفتوحًا بغية إدخال الرجلين وحِملهما، وكانت المرأة مَن فتحه، لكنها لمحتني أثناء وقوفي هناك، وأعتقد أنها تعرفت عليّ، لأني رأيتها تجفل وتغلق الباب بسرعة، ثم تذكرتُ وعدي لك، وها أنا ذا.

قال هولمز وهو يخربش بضع كلمات على نصف ورقة: «لقد قمت بعمل ممتاز، لكن لا يمكننا الإقدام على أي فعل قانوني دون مذكرة، وأفضل ما يمكنك فعله في خدمة هذه القضية هو أخذ هذا الخطاب إلى السلطات والحصول على واحدة، قد تواجهك بعض المشقة لكني أعتقد أن مبيع المجوهرات دليل كافٍ، سيعتني لستراد بكل التفاصيل».

«لكنهما قد يقتلانها في هذه الأثناء، إلامَ يشير النعش؟ ولمن هو إن لم يكن لها؟»

«لن نوفر جهدًا يا سيد غرين، ولن نهدر لحظة واحدة، دع الأمر لنا»، ثم تابع كلامه بينما أسرع عميلنا خارجًا: «سوف يحرك هو القوات النظامية، ونحن كما جرت العادة، سنكون القوة غير النظامية. ينبغي أن نتخذ تدابيرنا الخاصة، إني أرى الموقف كارثيًّا لدرجة تبيح اتخاذ أقصى التصرفات جموحًا. علينا بلوغ ساحة بولتني على وجه السرعة».

قال هولمز أثناء مرورنا السريع بالعربة أمام بيوت البرلمان وفوق جسر وستمنستر: «فلنحاول إعادة بناء الموقف، لقد أغرى هذان الوغدان هذه الليدي التعِسة لتأتي معهما إلى لندن، بعد أن أبعداها في البداية عن خادمتها المخلصة، وإن كانت قد كتبت أي رسائل فقد جرى اعتراضها. استأجرا منزلًا مفروشًا عبر حليف ما، وعندما صاروا بداخله أسراها، واستحوذا على مجوهراتها الثمينة التي كانت هدفهما منذ البداية، وقد بدآ بالفعل في بيع جزء منها، الأمر الذي يبدو على درجة كافية من الأمان بالنسبة لهما، إذ لا سبب يدفعهما للاعتقاد بأن أحدًا ما مهتم بمصير الليدي، ووقتما يُطلق سراحها، ستبلغ عنهما بالطبع، وعليه، لا ينبغي إطلاق سراحها، لكن لا يمكنهما حجزها للأبد، لذا القتل حلهما الوحيد».

- هذا يبدو واضحًا جدًّا.

- والآن سنتّبع نهج تفكير آخر، فعندما تتبع سلسلتي أفكار منفصلتين، ستجد نقطة تقاطع من شأنها تقريب الحقيقة يا واتسون. لن نبدأ الآن من عند الليدي، بل من النعش، ونتناقش بسرد عكسي. أخشى أن تلك الواقعة تثبت دون شك كون الليدي متوفاة، وتشير أيضًا إلى وجود دفن تقليدي ترافقه شهادة طبية ملائمة وموافقة رسمية. لو أن الليدي قد قُتلت بصورة واضحة، لدفناها في حفرة في الفناء الخلفي، لكن كل شيء هنا علني ونظامي، ماذا يعني هذا؟ بالطبع يعني أنهما تسببا بموتها بطريقة خدعت الطبيب وحاكت الوفاة الطبيعية، باستخدام السم ربما، ومع ذلك، كم هو غريب أن يسمحا لطبيب بالاقتراب منها! إلا إن كان حليفًا، وهذا افتراض بالكاد يُصدق.

- أيمكن أنهما قد زورا الشهادة الطبية؟

- هذا خطير يا واتسون، خطير جدًّا، لا، لا أعتقد أنهما قد يفعلان ذلك. أوقف العربة أيها السائق! هذا لا بد محل الحانوتي، فقد تجاوزنا محل المسترهن للتو. ألا تدخل يا واتسون؟ فمظهرك يكسب ثقة الناس، سَل عن أي ساعة تجري جنازة ساحة بولتني غدًا.

أجابتني المرأة التي في المحل دون تردد بأن الجنازة ستكون في الثامنة صباحًا. «أترى يا واتسون، لا يوجد لغز؛ فكل شيء فوق الطاولة! لا شك أن الوثائق الرسمية قد جُمعت بطريقة ما، ولا يعتقدان بأن ثمة شيئًا يخشيانه. حسنًا، لا يمكننا فعل شيء بهذا الشأن الآن إلا هجومًا أماميًّا مباشرًا، أتحمل سلاحًا؟»

- عصاي!

- حسنًا، حسنًا، يجب أن نكون أقوياء بالحد الكافي: «مسلحٌ ثلاثة أضعاف من كان قتاله حقًّا»، نحن ببساطة لا نطيق انتظار وصول الشرطة ولا البقاء تحت سقف القانون. يمكنك المغادرة بالعربة أيها السائق، والآن يا واتسون سنجرب حظنا معًا، مثلما فعلنا في عدة مناسبات خلَت.

أخذ يطرق طرقًا صاخبًا على باب منزل ضخم داكن في وسط ساحة بولتني. فُتح الباب فورًا ولاحَ جسدُ امرأة طويلة قُبالة الردهة المُعتمة.

سألتْ بحدة وهي تحدق إلينا عبر الظلام: «ماذا تريدان؟»

قال هولمز: «أريد التكلم مع الدكتور شليسينغر».

أجابته: «لا يوجد شخص بهذا الاسم هنا»، وحاولت إغلاق الباب، لكن أعاقه هولمز بقدمه.

وقال بحزم: «حسنًا إذًا، أريد رؤية الرجل الذي يعيش هنا أيًّا كان الاسم الذي يطلقه على نفسه».

ترددتْ قليلًا، ثم شرّعتْ الباب قائلة: «حسنًا، تفضلا! إن زوجي لا يخشى مواجهة أي رجل في العالم». ثم أغلقتْ الباب خلفنا وأرشدتْنا إلى غرفة الجلوس على يمين الردهة، وضاعفت ضوء الفانوس قبل أن تتركنا، وقالت: «سيكون السيد بيترز معكما خلال لحظة».

كان كلامها دقيقًا حرفًا بحرف، لأن الوقت بالكاد أتاح لنا إجالة النظر في الشقة المعفَّرة المتداعية التي وجدنا نفسينا فيها قبل أن يُفتح الباب ويدخل رجل ضخم البنية حليق الوجه أصلع الرأس بخفة إلى الغرفة، كان له وجه عريض أحمر، ووجنتان متهدلتان، وسحنة إجمالية تنمّ عن إحسان ظاهري يُفسده فم قاس وشرير.

قال بصوت متملق غايته تهوين الأمور: «لا بد أن ثمة خطأ ما هنا أيها السادة، أخال أنكما قد تعرضتما للتضليل، ربما لو جربتما المضي قدمًا في الشارع...».

قال صاحبي بحزم: «هذا سيفي بالغرض؛ لكن لا وقت أمامنا لنضيعه، أنت هنري بيترز من أديلايد، ولاحقًا صرت المبجل الدكتور شليسيينغر من بادن وجنوب أمريكا، وأنا موقن بهذا كيقيني أن اسمي شيرلوك هولمز».

أجفل بيترز، كما سأدعوه الآن، وحدق بإمعان إلى مُطارده المرعب، وقال بهدوء: «لا أعتقد أن اسمك يرعبني سيد هولمز، فعندما يكون المرء مرتاح الضمير لا يمكنك إزعاجه، ما الذي جاء بك إلى منزلي؟»

«أريد أن أعرف ما الذي فعلته بالليدي فرانسِس كارفاكس، التي جلبتها معك من بادن».

أجاب بيترز بفتور: «كان سيسعدني لو أمكنك أنت إخباري أين قد تكون تلك الليدي، فهي تدين لي بفاتورة تقارب المئة جنيه، ولم تعطني مقابلها إلا قلادتين تافهتين بالكاد نظر إليهما المسترهن، لقد ألصقتْ نفسها بنا في بادن –وصحيح أنني كنت أستخدم اسمًا آخر آنذاك– وبقيتْ عالقة بنا حتى عدنا إلى لندن. دفعتُ فاتورتها وثمن تذكرتها، وعندما بلغنا لندن، تملصتْ منا، ومثلما قُلت، تركت هذه المجوهرات البالية مقابل فواتيرها. سأكون مدينًا لك إذا ما وجدتها يا سيد هولمز».

قال شيرلوك هولمز: «ولأجل إيجادها، سأفتش هذا المنزل».

«أين إذن التفتيش؟»

أظهر هولمز بعضًا من طبنجة في جيبه وقال: «يجب أن يفي هذا بالغرض إلى حين قدوم واحد أفضل».

«لماذا؟ أأنت لص سوقيّ؟»

قال هولمز بمرح: «يمكنك وصفي بذلك. إن زميلي بلطجيّ خطير أيضًا، وسنفتش هذا المنزل معًا».

فتح خصمنا الباب.

وقال: «فلتستدعي شرطيًّا يا آني!». سمعنا صوت حركة تنورة نسائية سريعة أسفل الممر، ثم فُتح باب الرُدهة وأُغلق.

قال هولمز: «وقتنا محدود يا واتسون، وإذا ما حاولت إيقافنا ستتأذى بكل تأكيد يا بيترز، أخبرني أين النعش الذي أُحضر إلى منزلك؟»

– ما لك وللنعش؟ إنه قيد الاستخدام، ثمة جثمان بداخله.

– يجب أن أرى الجثمان.

– لن تراه بمباركتي أبدًا.

«دونها إذًا». وبحركة سريعة، دفع هولمز الرجل جانبًا وعبرنا إلى الردهة. كان ثمة باب موارب أمامنا مباشرة، دخلناه فإذا بنا في غرفة الطعام، كان النعش مسجًى على الطاولة تحت ثريا نصف مضاءة. ضاعف هولمز الإضاءة ورفع غطاء النعش، كان مضطجعًا في بطنه جسم هزيل. حدد وهج الضوء وجهًا هرِمًا ذابلًا، ولا يمكن لهذا الحطام المهترئ أن يكون الليدي فرانسِس الجميلة مهما بلغت شدة ما أحاق بها من وحشية أو جوع أو سقم. بدا اندهاش هولمز على وجهه، وكذلك بدا ارتياحه.

تمتم قائلًا: «الحمد لله، إنه شخص آخر».

فقال بيترز الذي تبعنا إلى الغرفة: «آه، لقد ارتكبت حماقة فادحة هذه المرة يا سيد شيرلوك هولمز».

– من المرأة المتوفاة؟

– حسنًا، إذا كان من الضروري فعلًا أن تعرف، إنها مربية عجوز لزوجتي، اسمها روز سبيندر، وقد عثرنا عليها في مشفى إصلاحية بريكستون، ثم أحضرناها إلى هنا واستدعينا الدكتور هورسوم، الذي يقطن في المنزل رقم 13 في فيلات فيبرانك –لا تنسَ تسجيل العنوان يا سيد هولمز– ورعيناها بحرص، مثلما ينبغي لأي شخص مسيحي أن يفعل. توفيتْ في اليوم الثالث –تقول الشهادة إن سبب الوفاة هو التلف الخرفيّ– لكن ما هذا إلا رأي الطبيب، وبالتأكيد رأيك أصوب. لقد طلبنا من الحانوتي ستيمسون وشركاه على طريق كينينجتون إجراء مراسم الدفن، وسيدفنونها في الساعة الثامنة من صباح الغد. أيمكنك إيجاد أي ثغرة في ذلك يا سيد هولمز؟ لقد ارتكبت خطأً سخيفًا، وربما عليك الاعتراف به. أدفع أي شيء ثمن صورةٍ لوجهك الفاغر المحملق وقتما أزحتَ غطاء النعش متوقعًا رؤية الليدي فرانسِس ولم ترَ إلا امرأة عجوزًا مسكينة في تسعينيات عمرها».

كانت سيماء هولمز جامدة كعادتها أمام سخريات خصمه، لكنّ يديه المقبوضتين خانتاه وفضحتا انزعاجه الحاد.

قال: «سأفتش المنزل»، صاح بيترز بينما سُمع صوت امرأة ووقع خطوات ثقيلة في الممر: «أستفعل رغم ذلك! سنحل هذا الأمر عاجلًا. من هنا أيها الشرطيان لو سمحتما، لقد دخل هذان الرجلان منزلي عنوة، ولا يمكنني التخلص منهما، ساعداني في إخراجهما».

كان ثمة رقيب وشرطي واقفان في المدخل، فأخرج هولمز بطاقته من حقيبته.

«هذا اسمي وعنواني، وهذا صديقي الدكتور واتسون».

قال الرقيب: «بوركت يا سيدي، نحن نعرفك جيدًا جدًّا، لكن لا يمكنك البقاء هنا دون مذكرة».

«بالطبع لا، أتفهم ذلك تمامًا».

صرخ بيترز: «اعتقلاه!»

قال الرقيب بمهابة: «نحن نعرف أين نجد هذا السيد إذا ما كان مطلوبًا، لكن عليك المغادرة يا سيد هولمز».

«نعم، هيا يا واتسون، علينا المغادرة».

بعد دقيقة كنا في الشارع من جديد، كان هولمز هادئًا كعادته، لكنني كنت مشتعلًا بالغضب وشعور المهانة، وتبِعَنا الرقيب.

– أعتذر يا سيد هولمز، لكن هذا هو القانون.

– بالطبع يا حضرة الرقيب، لم يكن بمقدورك فعل خلاف ذلك.

– أحسب أن ثمة سببًا مقنعًا لوجودك هناك، إذا كان بإمكاني فعل أي شيء...

– هناك سيدة مفقودة يا حضرة الرقيب. ونعتقد أنها في ذلك المنزل، وأنا أنتظر إذنًا في الوقت الراهن.

– إذًا سأبقي الأطراف تحت نظري يا سيد هولمز، وإذا ما طرأ أي جديد سأعلمك بكل تأكيد.

كانت الساعة لم تتعدَّ التاسعة، انطلقنا مقتفين ما نملك من أثر في الحال. ركبنا العربة في البداية إلى مشفى إصلاحية بريكستون، حيث وجدنا أنها الحقيقة بالفعل وأن زوجًا من المحسنين زار المشفى قبل عدة أيام، وادعيا أن امرأة عجوزًا بلهاء كانت خادمة لهما فيما مضى، وحصلا على إذن ليأخذاها معهما، ولم يكن خبر وفاتها فيما بعد مفاجئًا لهم.

قصدنا الطبيب بعد ذلك، وكان قد استُدعي ورأى المرأة تحتضر جراء الخرف المحض. رآها تلفظ آخر أنفاسها بالفعل، ووقع على الشهادة قانونيًّا، وقال: «أؤكد لكما أن كل شيء كان طبيعيًّا جدًّا ولم يكن ثمة مجال لأن تكون المسألة مدبرة». لم يثِر شيء في المنزل ريبته إلا أنه من الغريب لأشخاص في مستواهما أن يكون لهما خَدَم، ولم يزد الطبيب على ذلك.

توجهنا في النهاية إلى سكوتلاند يارد، حيث واجهت عملية استصدار المذكرة بعض المصاعب، وكان لا بد من بعض التأخير، إذ لم يكن من الممكن تحصيل توقيع القاضي حتى الصباح التالي، وإذا ما جاء هولمز نحو الساعة التاسعة فسيتمكن من الذهاب مع لستراد والإشراف على تنفيذ الأمر. انتهى اليوم هكذا، باستثناء أن صديقنا الرقيب زارنا قرابة منتصف الليل ليخبرنا عن رؤيته أضواء وامضة في مختلف نوافذ البيت الأسود الكبير، لكن لم يدخله أو يخرج منه أحد. لم يكن بوسعنا إلا الصلاة والصبر وانتظار الغد.

بدا شيرلوك هولمز أكثر انفعالًا من أن يجري محادثة وأكثر أرقًا من أن ينام. تركته يدخن بشرهٍ عاقدًا حاجبيه الكثيفين الأسودين، وينقر بأصابعه الطويلة القلقة على ذراعي كرسيه بينما يقلّب في ذهنه كل حل ممكن للغز. سمعته عدة مرات يطوف المنزل في الليل، وأخيرًا اندفع إلى غرفتي بعد أن ناداني في الصباح مباشرة. كان مرتديًا ثوب نومه، لكن وجهه الشاحب أجوف العينين أخبرني أن ليلته لم تعرف طعم النوم.

سألني بلهفة: «في أي ساعة الجنازة؟ في الثامنة أليس كذلك؟ حسنًا، إنها السابعة وعشرين دقيقة الآن. يا للسماء يا واتسون، ماذا أصاب ذكائي الذي منحني الله إياه؟ بسرعة يا رجل، بسرعة! إنها مسألة حياة أو موت، وفرصة الموت مئة ضعف فرصة الحياة. لن أسامح نفسي أبدًا، مطلقًا، إذا ما تأخرنا!».

لم تمر خمس دقائق حتى كنا في عربة تطير بنا عبر بيكر ستريت، ورغم ذلك كانت الساعة الثامنة إلا خمسة وعشرين دقيقة وقتما عبرنا ساعة بيغ بين، ودقت الساعة الثامنة أثناء شقنا طريق بريكستون. لكن البقية كانوا متأخرين مثلنا، فبعد عشرة دقائق كانت عربة الموتى ما تزال واقفة أمام باب المنزل، وهدأ حصاننا المُزبد قبل أن يظهر النعش يحمله ثلاثة رجال على عتبة الباب، فاندفع هولمز إلى الأمام واعترض طريقهم.

وصاح واضعًا يده على صدر متقدمهم: «أرجعوه! أرجعوه حالًا!»

صرخ بيترز الحانق ووجهه الأحمر الكبير يحدق من خلف النعش: «ما الذي تعنيه بحق الشيطان؟ ومرة أخرى أسألك، أين إذنك؟»

«الإذن قادم في الطريق، لا يجب أن يبرح النعش المنزل قبل قدومه».

كان لنبرة السلطة في صوت هولمز تأثيرها على حملة النعش، فاختفى بيترز فجأة داخل المنزل، وأطاع الحملة أوامرهم الجديدة.

صرخ بينما وُضع النعش على الطاولة: «بسرعة يا واتسون، بسرعة! ثمة مفك براغٍ! إليك واحد يا صاح! لك مني قطعة ذهبية إذا فُتح الغطاء خلال دقيقة! لا تسَل شيئًا! انهمك بالعمل! هذا جيد! واحد آخر! وآخر! الآن اسحبه معًا! إنه ينهار! إنه ينهار! آه، لقد فُتح أخيرًا».

استطعنا بجهد جماعي تحطيم غطاء النعش، ومع تحطيمنا له انبعثت من الداخل رائحة كلوروفوم طاغية ومخدرة. كان بداخله جسدٌ رأسه ملفوف بالقطن الطبي المنقوع بالمادة المنومة. نتف هولمز القطن وكشف عن وجه تمثاليّ لامرأة جميلة وسماوية في منتصف عمرها، وخلال لحظة لف ذراعه حول الجسد وأجلسها.

«هل فقدناها يا واتسون؟ ألا توجد بارقة حياة؟ من المؤكد أننا لم نتأخر!»

لنصف ساعة، بدا أننا تأخرنا بالفعل. إذ بدا أن تعرض الليدي فرانسِس للاختناق وأبخرة الكلوروفوم السامة، قد أبلغها نقطة لا رجعة منها، ثم أخيرًا، وبعد الإنعاش الصنعي وحقن الأثير وتجربة كل وسيلة يمكن أن يقترحها الطب، أشار بعض خفقان الحياة، ورجفة الأجفان، إلى عودة الحياة لها شيئًا فشيئًا. وصلت عربة أجرة، فشقّ هولمز الستارة ونظر إليها وقال: «ها هو لستراد مع الإذن، لكنه سيجد أن طيوره قد حلقت»، وأضاف بالتزامن مع صوت خطوات ثقيلة حثيثة في الممر: «وهنا شخص أحقّ بالاعتناء بهذه السيدة منا، صباح الخير يا سيد غرين، أعتقد أنه كلما استعجلنا بنقل الليدي فرانسِس كان أفضل. للجنازة أن تستمر وللعجوز المسكينة الراقدة في النعش أن تذهب لمثواها الأخير وحدها».

في ذاك المساء قال هولمز: «إذا كان يهمك إضافة القضية إلى حولياتك يا عزيزي واتسون، فلعلها تكون مثالًا على الظلمة المؤقتة التي قد يتعرض لها حتى أكثر العقول رجاحة. إن زلات كهذه شائعة بين كل

البشر الفانين، وأعظمهم هو القادر على تمييزها وتصحيحها. ربما يمكنني ادعاء بعض الفضل في تعديل هذا الشأن، فقد أمضيت ليلتي تطاردني فكرة أن دليلًا ما، أو عبارة غريبة، أو ملاحظة لافتة للنظر، قد مرّت أمام عيني وأهملتها بلا جدال، ثم فجأة في ظلمة الصباح، تذكرت بعض الكلمات، كان تعقيب زوجة الحانوتي، فقد قالت، كما أخبرني فيليب غرين، «كان يجب أن يصل قبلًا، لقد استغرق وقتًا أطول لكونه غير اعتيادي» وكانت تتكلم عن النعش، لقد كان غير اعتيادي، وهذا لا يمكن أن يعني إلا أنه صُنع بقياسات مخصصة، لكن لماذا؟ لماذا؟ ثم في لحظة تذكرتُ جوانبه العميقة، والجسد الضئيل المهزول في أسفله، وفكرت؛ لمَ قد يُستخدم نعش بهذه الضخامة لجسد بهذا النحول؟ والجواب: كي يتسع لجثة أخرى، وتُدفن جثتان بموجب شهادة طبية واحدة. كان كل شيء واضحًا جدًّا، لو أن بصيرتي لم تكن مغبشة. كان مقررًا دفن الليدي فرانسِس في الساعة الثامنة، وكان أملنا الوحيد إيقاف النعش قبل مغادرته المنزل.

كان احتمال أننا قد نجدها على قيد الحياة ميؤوسًا منه، لكنه كان احتمالًا ممكنًا كما أظهرت النتيجة. لم يرتكب هذان الشخصان جريمة قتل قط بحسب علمي، وربما كانا يُحجمان عن اقتراف العنف الفعلي في الماضي. كان بوسعهما دفنها دون أي دليل على كيفية ملاقاتها حتفها، وكان لديهما فرصة حتى لو جرى نبشها. كنت آمل أن يرجحا اعتبارات كهذه، إذ يمكنك إعادة تصور المشهد بقدر كافٍ بعدما رأيت الوكر الشنيع في الطابق الثاني الذي أسرا الليدي المسكينة فيه وقتًا طويلًا، فقد هرعا إلى الداخل وهيمنا عليها بالكلوروفورم، ثم حملاها إلى الأسفل وسكبا مزيدًا منه في النعش ليؤمّنا عدم استيقاظها، ثم ثبتا الغطاء بالبراغي. إنها خطة ذكية يا واتسون، وجديدة عليّ في سجلات الجريمة، وإني أتوقع أن أسمع عن حوادث لامعة في أعمال صديقينا المبشرين السابقين المستقبلية إذا ما فرّا من قبضة لستراد».

مغامرة قدم الشيطان

لطالما واجهتني مشقةٌ بين الحين والآخر، في تدوين بعض التجارب النادرة والذكريات الشائقة التي كنتُ جزءًا منها أثناء صداقتي الحميمة المديدة مع السيد شيرلوك هولمز، مشقةٌ سببها مقتُه الشخصي للشُّهرة. كان التهليل الشعبيّ بغيضًا بالنسبة لشخصه المتجهّم المتهكّم، ولم يُسلّه شيءٌ في نهاية قضية ناجحة أكثر من تسليم البيان الصحيح لموظف تقليديّ، ثم الاستماع إلى جوقة تهنئة عامة في غير محلها. كانت عقلية صديقي هذه، لا افتقاري للمادة المشوقة بالتأكيد، السبب في نشري قلة قليلة من كتاباتي في السنوات الأخيرة، ودائمًا ما كانت مشاركتي في بعض مغامراته امتيازًا فرض عليّ التعقّل والتحفّظ.

ثم حدث أن تفاجأتُ للغاية بتلقي برقية من هولمز الثلاثاء الماضي –إذ لم يكن من عادته الكتابة مطلقًا وقتما تفي البرقية بالغرض– فيها ما يلي:

لِمَ لا تُخبرهم عن الرُعب الكورنواليّ؟ أغرب قضية عالجتُها.

لستُ أدري أي مسحٍ رجعيٍ للذاكرة قد نبش المسألة في ذهنه، وأي نزوةٍ كانت السبب في رغبته بأن أحكيها؛ لكنني سارعتُ في التفتيش عن الملاحظات التي ستزودني بتفاصيل القضية الدقيقة، لأضع القصة بيني أيدي قرائي، قبل أن ترد برقية أخرى تُلغي سالفتها.

حدث في ربيع عام 1897، أنْ أبدَت بنية هولمز الحديديّة بعض أعراض التراجع في مواجهة أشدّ أنواع العمل الشاقّ المستمرّ إجهادًا، والذي ربما فاقمته أعماله الطائشة الشخصية العرضيّة. في مارس من ذلك العام، أعطى الدكتور مور آغار القاطن في هارلي ستريت، والذي قد أسرُد القصة الدرامية لتعرفه بهولمز يومًا ما، أوامر حاسمة تقضي بأن يُلقي التحرّي الخاص الشهير كل قضاياه جانبًا، ويستسلم للراحة التامة إذا ما أراد دَرء انهيار حتميّ. لم تكُن حالته الصحية مسألةً يوليها أقلّ اهتمامه، لأن انفصاله الذهني كان مطلقًا، لكن أقنعه التهديد بالاستبعاد الدائم عن عمله بمنح نفسه استراحة يغيّر فيها الجوّ تمامًا، وهكذا وجدنا نفسينا في بداية ربيع ذاك العام معًا في كوخ صغير قرب خليج بولدو، عند الحافة البعيدة لشبه جزيرة كورنوال.

كانت بقعة فريدة، وملائمة على نحوٍ غريب لحس الدعابة القاسي لدى مريضي، فقد أطلّت نافذة منزلنا الصغير المطليّ بالكلس والمنتصب عاليًا فوق رأسٍ بحريٍ عاشِبٍ، على كامل نصف الدائرة المشؤومة لخليج ماونتس، الذي كان فخًا لهلاك المراكب الشراعية، بحافاته المرصوفة وشعابه التي تمور فيها الأمواج حيث لاقى عدد لا حصر له من البحارة حتفهم، فتمتدُّ بنسيمها الشمالي رائقة ومحصّنة، داعيةً المراكب التي قذفتها العواصف إليها للراحة والحماية.

ثم تأتي الزوبعة المباغتة، والنوّ العنيف القادم من الجنوب الغربي، فتنجرف السفن ساحبةً مراسيها الملقاة ناحية الشاطئ المواجه للرياح، وتخوض معركتها الأخيرة مع الموجات الهائجة المزبدة. إن البحّار العاقل ليبتعد ما استطاع عن ذاك المكان الشيطاني.

أما عن البرّ، فلم تكن المنطقة المحيطة بنا أقلّ دُكنةً منها في البحر، إذ كانت ريفًا من أراضٍ بور متموجة، موحشة وقاتمة يتخللها برج كنيسة يشير إلى موقع إحدى قرى العالم القديم هنا أو هناك. تُرى في كل مكان على تلك الأراضي آثار لِعرقٍ بائد ما قد فنيَ تمامًا، ولم يخلّف تاريخًا إلّا نُصُبًا حجرية غريبة، ومقابر عشوائية فيها رُفات أموات، ومتارس ترابية توحي بصراعات قبل تاريخية. فتَن سحر المكان وغموضه، وجوّ الأمم المنسيّة المشؤوم مخيّلة صديقي، وقضى كثيرًا من وقته في مشاوير طويلة وتأملات منعزلة فوق ذاك البور. أَسَرَت لغة كورنوال العتيقة اهتمامه أيضًا، وأذكر ابتداعه فكرة أنها متجانسة مع الكلدانية، ومأخوذة في الأغلب من تجار الصفيح الفينيقيين.

كان قد استلم شحنة كتبٍ عن فقه اللغة واستقرّ لتطوير هذه الأطروحة وقتًا، لأسفي ولبهجة قلبه، وجدنا نفسينا رغم كوننا في أرض الأحلام تلك، مُقحمين في مشكلة على أعتاب أبوابنا تزيد حدّةً وسحرًا عن أيّ من تلك التي أخرجتنا من لندن، وتفوقها غموضًا بصورة لا متناهية. قوطعت حياتنا البسيطة، وروتيننا الصحي المسالم مقاطعة عنيفة، وعُجّل بنا إلى خضم سلسلة من الأحداث التي سببت منتهى الاضطراب لا في كورنوال فحسب، بل على امتداد غرب إنجلترا كلّه، ولعلّ العديد من قرائي يتذكّر قليلًا ما سُمّي حينها «الرّعب الكورنوالي»، رغم النقص البالغ في الرواية التي وصلت للصحافة. والآن، بعد ثلاث عشرة سنة، سأنشر التفاصيل الحقيقية لهذه القضية متعذّرة التصوّر على الملأ.

سبق وقُلت إن تلك الأبراج المبعثرة تُحدد القرى المشكّلة لهذا الجزء من كورنوال، وكان أقربها كفر تريدانيك وولاس، حيث تتكتل أكواخ بضع مئات من السكان حول كنيسة عتيقة كسَتها الأُشُن، كان قسّ الأبرشية، السيد راوندهاي، بمكانة عالم آثار، وعلى هذا الأساس تعرف هولمز به. كان الرجل كهلًا بدينًا وأنيسًا، وذا ذخيرة جمّة من المعرفة المحلية. شربنا الشاي تلبيةً لدعوته في بيت الكهنة، وتعرفنا هناك أيضًا على السيد مورتيمر تريغينس، وهو سيد حرٌ عزّز موارد رجل الكنيسة الشحيحة باستئجاره غرفًا في منزله الضخم البعيد. كان القسّ العازب سعيدًا بالتوصل لاتفاق كهذا، رغم قلة ما هو مشتركٌ بينه وبين نزيله الذي كان رجلًا نحيلًا وداكنًا يلبس النظارة الطبية، ولديه حدب يعطي انطباعًا بوجود تشوّه جسدي حقيقي. أذكر أننا وجدنا القس في زيارتنا ثرثارًا، لكن نزيله كان كتومًا بغرابة، وحزين الوجه، رجلًا استبطانيًّا يجلس مشيحًا بوجهه، ويبدو أنه يفكّر بشؤونه الخاصة.

كان هذان الرجلان مَن دخل غرفة جلوسنا بغتة يوم الثلاثاء، الواقع في السادس عشر من مارس، حينما كنا ندخن معًا بُعيد وقت فطورنا، استعدادًا لجولتنا اليومية في الأراضي المجاورة.

قال القسّ بصوت مهتاج: «سيد هولمز، لقد حدث أكثر الأمور مأساوية ونُدرة في الليل، أمرٌ شائنٌ لم يُسمع بمثيله قط. لا يمكننا اعتبار مصادفة وجودك هنا والآن إلا عناية إلهية خاصة، فأنت الرجل الوحيد الذي نحتاجه من كل إنجلترا».

حملقتُ في القس المتطفّل بعينين غير ودودين تمامًا؛ لكن هولمز سحب غليونه من بين شفتيه واستوى في كرسيه ككلب صيد ثعالب قديم سمع صيحة دلالة الصياد، ولوّح بيده ناحية الكنبة، فجلس زائرنا الواجف ورفيقه المرتبك جنبًا إلى جنبٍ عليها. كان السيد مورتيمر رابط الجأش أكثر من القس، لكن أبدَت ارتعاشة يده النحيلة ولمعان عينيه الداكنتين تشاركهما الشعور نفسه.

وسأل القس: «أأتكلم أنا أم أنت؟»

قال هولمز: «حسنًا، يبدو أنك من اكتشف الأمر، أيًّا كانت ماهيته، وأن القس تلقاه بطريقة غير مباشرة، لذا ربما من الأفضل أن تتولى أنت الكلام».

نظرتُ إلى القس المرتدي لباسه بتعجّل، ونزيله الجالس بجواره بلباسه الرسمي، وأمتعتني نظرة الدهشة التي رسمها استنتاج هولمز البسيط على وجهيهما.

قال القس: «ربما من الأفضل أن أقول بضع كلمات أولًا، ثم يمكنك أن تحكُم ما إذا كنت ستسمع التفاصيل من السيد تريجينيس، أو إن كان علينا الإسراع فورًا إلى مسرح هذا الأمر الغامض. دعني أوضح إذًا، أن صديقنا هنا قد أمضى الأمسية الماضية بصحبة أخوَيه، أوين وجورج، وأخته بريندا، في منزلهم في تريدانيك وارثا، القريبة من الصليب الحجري القديم في الأرض البور، وقد تركهم يلعبون بأوراق اللعب حول طاولة غرفة الطعام، بصحة ومعنويات ممتازة وغادر بعد العاشرة تمامًا بقليل، وفي هذا الصباح، استيقظ مبكرًا كعادته ومشى في ذاك الاتجاه قبل الفطور، فاجتازته عربة الدكتور ريتشاردز، الذي شرح له أنه قد أُرسل استجابة لنداء عاجل للغاية إلى تريدانيك وارثا، وبطبيعة الحال، ذهب السيد مورتيمر تريجينيس معه. حينما بلغ تريدانيك وارثا، وجد الأمور في حالة استثنائية، فقد كان أخواه وأخته جالسين حول الطاولة تمامًا كما تركهم، وأوراق اللعب ما زالت مبعثرة أمامهم والشموع ذائبة عن آخرها. كانت الأخت مستلقية جثة هامدة على كرسيها، والأخوان جالسَين على جانبيها يضحكان ويصرخان ويغنيان وقد فقدا عقليهما بالكامل. حافظ ثلاثتهم، المرأة الميتة والأخوان الممسوسان، على تعابير تنم عن أقصى الرُعب اكتستها وجوههم، رعشة ذُعر كان من المروّع النظر إليها. لم يكن ثمة أثر على وجود أحد في المنزل سوى السيدة بورتر، الطباخة ومدبرة المنزل العجوز، التي صرّحت أنها نامت بعمق ولم تسمع صوتًا خلال الليل. لم يُسرق أو يُبعثر شيء، ولا يوجد أي تفسير البتة لأي رُعب قد يكونه هذا الذي أفزع امرأة حتى الموت ورجلين قويين حتى الجنون. هاك الوضع باختصار يا سيد هولمز، وإذا ما كان بمقدورك مساعدتنا في استيضاحه ستكون قد فعلت شيئًا عظيمًا».

أملتُ أن أتمكن من خداع رفيقي بطريقة أو بأخرى لإعادته إلى الهدوء الذي كان الغاية من رحلتنا؛ لكن عرفت من نظرة واحدة إلى وجهه المنفعل وحاجبيه المعقودين كم بات أملي عقيمًا الآن. جلس صامتًا لبعض الوقت، مستغرقًا في الدراما الغريبة التي اقتحمت سلامنا.

وقال أخيرًا: «سأنظر في المسألة، وبحسب ما يظهر، يبدو أنها قضية ذات طبيعة استثنائية جدًّا. أذهبت إلى هناك بنفسك يا سيد راوندهاي؟»

– كلا يا سيد هولمز، فالسيد تريجينيس عاد بالحكاية إلى بيت الكهنة، وهرعت فورًا معه إليك لاستشارتك.

– كم يبعد المنزل الذي وقعت فيه المأساة الفريدة؟

– نحو ميل إلى الداخل.

– إذًا سنمشي إلى هناك معًا، لكن عليَّ أن أسألك بضعة أسئلة قبل أن نبدأ يا سيد مورتيمر تريجينيس.

كان الآخر جالسًا صامتًا طوال هذا الوقت، لكنني لاحظت أن اضطرابه المكبوت كان أعظم من انفعال القسّ الظاهر. جلس شاحب الوجه مثبتًا نظرته القلقة على هولمز، ويداه النحيلتان مشبوكتان بتشنج واضح. ارتعشت شفتاه المصفرّتان وهوَ يستمع للتجربة المريعة التي نزلت بالعائلة، وبدا أن عينيه السوداوين تعكسان شيئًا من رُعب المشهد.

وقال بتلهّف: «سَلني أي شيء يا سيد هولمز، يصعب عليّ الكلام، لكنّي سأجيبك بالحقيقة».

– أخبرني عن الليلة الماضية.

– حسنًا يا سيد هولمز، لقد تعشّيت هناك كما قال القس، واقترح أخي الأكبر جورج أن نلعب الهويست عقب ذلك. جلسنا نحو الساعة التاسعة تمامًا، وكانت الساعة العاشرة والرُبع وقتما هممتُ بالرحيل، وتركتهم جميعًا حول الطاولة في أبهجِ ما يكون.

– من سارَ معك إلى الباب؟

– كانت السيدة بورتر قد خلدت إلى الفراش، فسرتُ وحدي وأغلقتُ باب الردهة خلفي. كانت نافذة الغرفة حيث جلسوا موصدة، لكن الستارة لم تكن مسدَلة، ولم يُرَ تبدّل في حالة الباب أو النافذة هذا الصباح، أو أي سبب يوحي بدخول شخص غريب ما المنزل، وها هُم جلوس هناك رغم ذلك، مخبولَين ومذعورَين، وبريندا هامدة ميتة من الفزع يتدلّى رأسها فوق ذراع الكرسي، لن يخرج مشهد تلك الغرفة من رأسي ما حييت.

قال هولمز: «الحقائق كما ذكرتَها عجيبة جدًّا بالطبع، لكن أأفهمُ منك أن لا نظرية لديك قد تفسّرها بأي شكل؟»

هتف تريجينيس: «إنه أمر شيطاني يا سيد هولمز! شيطاني وليس من عالمنا! لقد ظهر شيء ما في تلك الغرفة أطفأ نور عقولهم، وأي تدبير بشريّ يمكنه فعل ذلك؟»

قال هولمز: «إذا ما كانت المسألة فوق طاقة البشر، فأخشى أنها فوق طاقتي، لكن علينا رغم ذلك استنفاد كل التفسيرات الطبيعية قبل اللجوء إلى نظرية كهاته. أما بالنسبة لك يا سيد تريجينيس، أفهم أنك انفصلت عن عائلتك بطريقة ما، كونهم يعيشون معًا وأنت تعيش في غرفة مستقلة، صحيح؟»

– هذا صحيح يا سيد هولمز، رغم أن المسألة قد مضَتْ وانتهينا منها. كنا عائلة من مُعدّني القصدير في ريدروث، لكننا بعنا مشروعنا لشركة ما، وهكذا تقاعدنا بمال يكفي معيشتنا. لن أنكرَ أن بعض الحساسية حول تقسيم المال فرقت بيننا لبعض الوقت، لكننا تسامحنا على كل شيء ونسيناه، وكنا أفضل الأصدقاء.

– بالعودة إلى الأمسية التي أمضيتموها معًا، أيبرز أي شيء في ذاكرتك قد يُلقي أي ضوء محتمل على المأساة؟ فتش بتروٍّ عن أي طرف خيط قد يساعدني يا سيد تريجينيس.

– لا شيء على الإطلاق يا سيدي.

– أكان أهلُك في حيويّتهم المعتادة؟

– لم يكونوا في حالٍ أفضل قط.

– هل كانوا قلقين؟ هل أظهروا أيّ توجّس من خطر آتٍ؟

– لا شيء من هذا القبيل.

– إذًا ليس لديك أي شيء تضيفه من شأنه إعانتي؟

تأمل مورتيمر تريجينيس بجدية لوهلة.

وقال أخيرًا: «ثمة أمر واحد يخطر ببالي، فعندما كنا جلوسًا إلى الطاولة كنت مستدبرًا النافذة، وأخي جورج، كونه شريكي في اللعبة، مُستقبلها، ورأيته مرةً يحدق خلفي بشدة، فاستدرتُ ونظرت. كانت الستارة مرفوعة والنافذة مغلقة، لكني تمكّنت من تبيّن الشجيرات في المرج، وبدا لي للحظة أني رأيت شيئًا يتحرك بينها، ولم أستطع حتى التمييز ما إذا كان رجلًا أو حيوانًا، لكنني اعتقدت أن شيئًا ما كان هناك، وحينما سألته إلامَ كان ينظر، أخبرني بأن الشعور ذاته قد راوده. هذا كل ما يمكنني قوله».

– ألم تتحرّ الأمر؟

– كلا؛ فقد مرت المسألة باعتبارها تافهة.

– تركتهم إذًا دون أي استشعار بوجود الشر؟

– مطلقًا.

– ليس واضحًا بالنسبة لي كيف سمعت الأنباء مبكرًا جدًّا هذا الصباح.

– أنا شخص يستيقظ باكرًا وعادةً ما أتمشّى قبل الفطور، وبالكاد كنتُ قد شرعت هذا الصباح في المشي حين اجتازتني عربة الطبيب. أخبرني أن السيدة بورتر العجوز قد أرسلت صبيًّا يحمل رسالة مستعجلة إليه، فقفزت إلى جانبه وانطلقنا. اطّلعنا حينما وصلنا على تلك الغرفة المُروّعة، ورأينا أن الشموع ونار الموقد خامدة منذ ساعات خلَت، وأنهم قد جلسوا هناك في الظلام حتى انبلج الفجر. قال الطبيب إن بريندا لا بدّ توفيت منذ ست ساعات على الأقل، ولم يوجد أي دليل على حدوث عنف. كانت مستلقية فوق ذراع كرسيها تعلو وجهها تلك النظرة فحسب. وجورج وأوين يُغنيان مقاطع من أغانٍ ويبربران كقردين كبيرين. أوه، كان أمرًا فظيعةٌ رؤيته! لم أطِق ذلك، وابيضّ وجه الطبيب كورقة. في الحقيقة، لقد سقط مغشيًّا عليه، وأوشكنا أن نضيفه إلى البقية.

«عجيب! في قمة العجب!» قال هولمز وهو ينهض ويمسك قبعته، «أعتقد أننا ربما من الأفضل أن نتوجه إلى تريدانيك وارثا على وجه السرعة. أعترف أنني قلّما عرفت قضية أبدَت عند النظرة الأولى إشكالًا أكثر غرابة».

لم تُسهم إجراءاتنا في ذاك الصباح بتقدم تحقيقنا إلا قليلًا، ومع ذلك اتسمت انطلاقته بحادثة تركت الأثر الأكثر شؤمًا في ذهني. كان الطريق المودي إلى مكان وقوع المأساة ممرًّا ريفيًا منحدرًا وضيقًا، سمعنا أثناء عبورنا إياه قعقعة عربة تقترب نحونا ثم توقفت جانبًا سامحةً لنا بالمرور. تمكنتُ أثناء مرورها بجانبنا من لمحِ وجه منقبض بشكل مروّع ومبتسم ابتسامة عريضة يحدق إلينا عبر النافذة الموصدة. مرّت بنا تلك العينان المبحلقتان والأسنان الصارّة سريعًا كرؤيا مرعبة.

صاح مورتيمر تريجينيس، مصفرًا حتى شفتيه: «أخواي! إنهم يأخذونهما إلى هلستون».

نظرنا مرعوبين إلى العربة السوداء وهي تتثاقل السيرَ في طريقها، ثم استدرنا وتابعنا المشيَ إلى المنزل المنحوس حيث لقيا قدرهما العجيب.

كان مسكنًا ضخمًا وبراقًا، أقرب إلى الفيلا من الكوخ، له حديقة كبيرة تفيض بورود الربيع في ذاك الجوّ الكورنوالي. تواجه نافذة غرفة الجلوس هذه الحديقة، ولا بدّ أن ذاك الشيء الشرير الذي فجّر عقولهم بالرُعب التامّ في لحظة واحدة قد دخل منها، بحسب أقوال مورتيمر تريجينيس. مشى هولمز بأناة وتفكّر بين زروع الورد وعلى طول الممر قبل أن ندخل الشرفة. أذكر أنه كان مستغرقًا في أفكاره لدرجة أنه تعثر بمرشّة الزرع وسكب محتواها مغرقًا أقدامنا وممر الحديقة. التقينا داخل المنزل المدبرة الكورنوالية العجوز، السيدة بورتر، التي كانت تُعنى بشؤون العائلة بمساعدة فتاة صغيرة. أجابت عن أسئلة هولمز بيُسر. لم تسمَع شيئًا في الليل، وكان أرباب عملها في حالة معنوية ممتازة مؤخرًا، ولم ترَهم أكثر بهجةً قط. غشي عليها رُعبًا وقتما دخلت الغرفة في الصباح ورأت الصُحبة المروّعة حول الطاولة، وحينما استفاقت فتحت النافذة ليدخل هواء الصباح، وأسرعت إلى الزقاق، حيث أرسلت صبي مزرعة إلى الطبيب. كانت السيدة في سريرها في الطابق الثاني حين أردنا رؤيتها. لم تكُن لتبقى في المنزل يومًا آخر بعدما تطلَّب إدخال الأخوين إلى عربة المصحة أربعة رجال أقوياء فانطلقت في تلك الظهيرة لتنضم إلى عائلتها في سانت إيفيس.

صعدنا السلالم وتفحصنا الجثة. كانت السيدة بريندا تريجينيس فتاة جميلة جدًّا، رغم أنها على مشارف منتصف عمرها. وجهها الأسمر واضح المعالم حتى في مماتها، لكن ما زال محتفظًا بشيء من رعشة الرعب تلك التي كانت آخر مشاعرها البشرية. هبطنا من غرفة نومها إلى غرفة الجلوس، حيث وقعت هذه الواقعة العجيبة بالفعل. رقدت البقايا المتفحمة من نار الليلة في الموقد، وعلى الطاولة كانت الشموع الذائبة عن آخرها، والأوراق المبعثرة على سطحها. أُرجعت الكراسي إلى الخلف باتجاه الجدران، لكن بقي كل شيء عدا ذلك مثلما كان في الليلة السابقة. ذرع هولمز الغرفة بخطًى سريعة خفيفة؛ وجلس في الكراسي المتعددة، ونظّمها وأعاد ترتيبها في مواقعها. اختبر كم حجم القسم المرئيّ من الحديقة؛ وفحص الأرض والسقف والموقد؛ لكني لم أرَ التماعة عينيه وزمّة شفتيه المباغتتين تينكَ اللاتي كنّ ليخبرنني أنه لمح بصيص نور في العتمة المطبقة ولا مرة واحدة.

سأل مرةً: «لمَ النار؟ أدائمًا ما كانوا يشعلون نارًا في هذه الغرفة الصغيرة في أمسية ربيعية؟»

شرح مورتيمر تريجينيس أن تلك الليلة كانت باردةً ورطبة، لذا أُشعلت النار بعد وصوله، وسأل: «ماذا ستفعل الآن يا سيد هولمز؟»

ابتسم صديقي ووضع يده على ذراعي قائلًا: «أظن يا واتسون، أنني سأستأنف شوطَ التسمّم التبغي ذاك الذي كثيرًا ما شجبتَه. بعد إذنكم أيها السادة، سنرجع الآن إلى كوخنا، إذ لا أرى أن ثمة عناصر جديدة يُرجح ملاحظتها هنا. سأقلب الحقائق في رأسي يا سيد تريجينيس، وإذا ما خطر ببالي أي شيء سأتواصل معك ومع القس بالتأكيد، وفي الوقت الراهن، أتمنى لكليكما صباحًا خيّرًا».

بعد عودتنا إلى كوخ بولدو جلس هولمز غارقًا في صمته ملتفًّا على نفسه في كرسيه ذي الذراعين، وجهه المضنى بالكاد يُرى وسط سحابة دخان التبغ الزرقاء، حاجباه الأسودان منخفضان، جبهته منقبضة،

وعيناه خاويتان وبعيدتان. أخيرًا، وضع غليونه ووثب على قدميه.

وقال ضاحكًا: «لن يجدي هذا نفعًا يا واتسون! دعنا نتمشّى على طول الجروف معًا ونبحث عن أسهم من الصوان، فاحتمال إيجادها أرجحُ من احتمال إيجاد دلالات لحل هذه المشكلة. إن تشغيل المخّ دون موادّ كافية أشبه بتسريع محرك دون غاية، سيُجهد نفسه حدّ التكسّر. هواء البحر وشروق الشمس والصبر يا واتسون، وكل ما تبقى سيأتي».

وتابع بينما كنا بمحاذاة الجروف: «والآن، دعنا نحدد موقفنا بهدوء يا واتسون، دعنا نقبض بشدّة على القليلِ الذي نعرف، كي نكون جاهزين لوضع الحقائق الجديدة في مكانها المناسب وقتما تظهر. أعتقد أن أيًّا منا ليس جاهزًا للاعتراف بالتدخلات الشيطانية في شؤون البشر، لذا فلنبدأ باستبعاد ذلك من عقلينا كليًّا. جيد جدًّا، يبقى لدينا ثلاثة أشخاص تعرضوا لصدمة مفجعة سببها فِعل بشريٍّ واعٍ أو غير واع، وهذا أساس صَلب، والآن، متى وقع ذلك؟ من الواضح أنه، وعلى فرض كون روايته صحيحة، قد وقع مباشرة بعد مغادرة السيد مورتيمر تريجينيس الغرفة، وتلك نقطة مهمة جدًّا. يفرض الاستنتاج أن الأمر حدث بعد ذلك ببضع دقائق، فالأوراق ما زالت على الطاولة، وكانت الساعة قد جاوزت وقت نومهم المعتاد بالفعل. لكنهم لم يغيّروا مواقعهم أو يدفعوا كراسيهم خلفًا. أُكرر إذًا، أن الحادثة كانت بعد رحيله مباشرة، ولم تُجاوز ساعة وقوعها الحادية عشرة تمامًا من تلك الليلة.

خطوتنا البدهية التالية هي التحقق، بقدر الإمكان، من تحركات مورتيمر تريجينيس بعد مغادرته الغرفة. لن نواجه مشقة في هذا، ويبدو أنه فوق الشُبهة. بالنسبة لشخص عارفٍ بطرائقي مثلك، كنتَ واعيًا بالطبع لحيلة مرشة الزرع الواهية بعض الشيء، والتي حصلت عبرها على طبعة أكثر وضوحًا لقدمه من أيّ طريقة ممكنة عدا ذلك، فقد رسمها الطريق المبلل الترابيّ على نحو مثير للإعجاب. كانت الليلة الماضية رطبة أيضًا كما تذكُر، ولم يكُن صعبًا، بعد أن حصلنا على طبعة قدمه، التقاط مساره من بين البقية وتتبّع تحركاته، وبدا أنه مشى حثيثًا باتجاه بيت الكهنة.

إذا اختفى مورتيمر تريجينيس من المشهد آنذاك، وأثّر دخيل ما رغم ذلك على لاعبي الورق، كيف يمكننا إعادة تركيب ذاك الشخص، وكيف جرى تطبيقُ أثرٍ مرعبٍ كهذا؟ يمكن استبعاد السيدة بورتر، فمن الجليّ أنها غير مؤذية. أثمة أيّ دليل على أن شخصًا ما قد تسلل إلى نافذة الحديقة وأنتجَ بطريقة ما تأثيرًا على درجة من الترويع أنه أفقد من شهدوه صوابهم؟ يأتي الاقتراح الوحيد في هذا الصدد من مورتيمر تريجينيس نفسه، الذي يقول إن أخوه قد تكلم عن حركة ما في الحديقة، وهذا غريب بالتأكيد، فقد كانت الليلة ماطرة وغائمة ومعتمة، وأيّ شخص مصمم على ترويع هؤلاء الناس سيكون مُجبرًا على وضع وجهه تحديدًا قبالة الزجاج حتى يُرى. ثمة إطار ورود عرضه ثلاثة أقدام أسفل النافذة، ولا علامة على آثار أقدام. من الصعب إذًا تصوّر كيف يمكن لدخيل أن يوقع أثرًا بهذا القدر من الرعب على الصُّحبة، ولم نجد أي دافع محتمل لمحاولة معقدة كهذه. أتعقلُ المصاعب التي نواجهها يا واتسون؟»

أجبت قانعًا: «إنها واضحة جدًّا».

فقال هولمز: «ومع ذلك، إذا ما حصلنا على قليل من المادة قد نُثبت أنها غير تعجيزية، ويُخيل إليّ أنك ربما تجد في أرشيفك الجامع قضية ما كانت بالصعوبة نفسها تقريبًا. أما في الوقت الحالي، فلنضع

القضية جانبًا حتى تتوفر بيانات أكثر دقة، ولنكرّس بقية صباحنا لمطاردة الإنسان القديم».

ربما علّقتُ حولَ قدرة صديقي على الانفصال الذهني، لكنها لم تذهلني البتّة أكثر مما فعلتْ في ذلك الصباح الربيعي في كورنوال وقتما تكلم لساعتين عن البلطات الحجرية البدائية، ورؤوس السهام والشظايا الفخارية بمرحٍ كما لو أنه لا لُغز مشؤومًا ينتظره ليحلّه. لم ينبّه الشأن الذي نعمل عليه أذهاننا إلّا على يد زائرٍ وجدناه ينتظرنا وقتما عُدنا إلى كوخنا في الظهيرة، ولم يكن أيّ منا بحاجة لأحد ليخبرهُ بهوية هذا الزائر. فالجسد العملاق، والوجه المُخدد عميق الندبات بعينيه الشرستين وأنفه العُقابيّ، والشعر الأشهب الذي كاد يكنُس سقف كوخنا، واللحية الذهبية الأطراف بيضاء المنابت، إلّا عند بقعة النيكوتين التي يخلفها سيجاره الخالد، سمات كلها شهيرة في لندن بقدر شهرتها في إفريقيا، ولا يمكن نسبُها إلا إلى الشخصية الهائلة للدكتور ليون ستيرنديل، صيّاد الأسود والمستكشف العظيم.

كنا قد سمعنا بوجوده في المحلّة ورأينا جسده السامق مرة أو اثنتين فوق ممرات الأرض البور. لم يُبادر نحونا قط مع ذلك، ولا نحن حلمنا بالمبادرة نحوه، فقد كان معروفًا أن حبه للعزلة هو ما دفعه لقضاء الجزء الأعظم من الاستراحات بين رحلاته في بَنغل خفيّ داخل غابة بوتشامب آريانس الموحشة. عاش هُنا، بين كتبه وخرائطه، عيشة وحدانيّة بالمطلق، مهتمًّا بحاجاته الخاصة البسيطة ومُبديًا اكتراثًا ظاهريًّا ضئيلًا بشؤون جيرانه. لذا كانت مفاجأة بالنسبة لي أنْ سمعتُه يسأل هولمز بصوت متلهف ما إذا كان قد حقق أي تقدم في إعادة بنائه لهذه الواقعة المُلغزة. وقال: «شرطة المقاطعة مخطئة تمامًا، لكن لعلّ خبرتك الواسعة قد اقترحت تفسيرًا معقولًا ما. ذريعتي الوحيدة لتثق بي هي أنني عرفت عائلة تريجينيس هذه جيدًا أثناء إقاماتي العديدة هنا، بل يمكنني اعتبارهم أقربائي من جانب والدتي الكورنوالية، وكان مصيرهم العجيب صدمة عظيمة لي بطبيعة الحال. دعني أخبرك أنني بلغت حدّ بوليموث في طريقي إلى إفريقيا، لكن الأنباء وصلتني هذا الصباح، فرجعت مباشرة للمساعدة في التحقيق».

رفع هولمز حاجبيه.

– هل تخلفتَ عن سفينتك بسبب ذلك؟

– سأركب التالية.

– رائع! هذه هي الصداقة الحقّة.

– أقول لك إنهم كانوا أقارب.

– كلام سليم، أقارب من طرف والدتك. أكانت أمتعتكَ على متن السفينة؟

– بعضها، لكن القسم الأكبر في الفندق.

– واضح، لكن ليس ممكنًا أن هذا الحدث قد شق طريقه إلى بوليموث عبر الجرائد الصباحية بالتأكيد.

– لا يا سيدي؛ لقد تلقيت برقية.

– أيمكنني السؤال عن مرسلها؟

اربدّ وجه المستكشف الكالح.

– أنت كثير الأسئلة يا سيد هولمز.

– هذا عملي.

بذل الدكتور ستيرنديل جهدًا لاستعادة رصانته المكدّرة.

وقال: «لا اعتراض لدي على إخبارك، إن السيد راوندهاي، القس، هو مرسلُ البرقية التي أعادتني».

قال هولمز: «شكرًا لك، دعني أقول إجابة عن سؤالك الأصلي إنني لم أحسم رأيي تمامًا حول موضوع هذه القضية، لكن كلّي أمل بالتوصل إلى نتيجة ما، وسيكون مبكرًا قول أكثر من ذلك».

– لعلك لن تمانع إخباري ما إذا كانت شبهاتك تدلّ إلى اتجاه ما، صحيح؟

– لا، لا يمكنني الإجابة عن هذا.

«إذًا فقد أهدرتُ وقتي ولا حاجة لإطالة زيارتي»، ومشى الدكتور الشهير خارج كوخنا ومزاجه متعكر للغاية، وتبعه هولمز خلال خمس دقائق. لم أره بعدها حتى المساء، حينما عاد بخطوات متثاقلة ووجهٍ مُرهَق أكد لي أنه لم يحقق أي تقدم في تحقيقاته. ألقى نظرة على برقية كانت في انتظاره وقذفها إلى الموقد.

وقال: «إنها من فندق بليموث يا واتسون، عرفتُ الاسم من القس، وأبرقتُ لأتيقن من كونِ رواية الدكتور ليون ستيرنديل صحيحة. يبدو أنه قد أمضى الليلة الماضية هنا بالفعل، وأنه حقًّا قد سمح لبعض أمتعته بالمضيّ إلى إفريقيا بينما عاد ليكون حاضرًا هذا التحقيق. ماذا تستنتج من ذلك يا واتسون؟»

– إنه مهتم بشدّة.

– مهتم بشدّة، أجل. ثمة خيط هنا لم نقبض عليه بعد، خيط قد يكون مرشدنا في خضم هذه البلبلة. ابتهج يا واتسون، فأنا متأكد جدًّا أننا لم نحصل على مادتنا كاملة بعد، وعندما يحدث ذلك قد نلقي كل مشاقنا خلفنا عاجلًا.

لم يخطر ببالي كم هو قريب تحقق كلمات هولمز، وكم سيكون شاذًّا وخبيثًا ذاك التطور الحديث الذي فتح أمامنا مسار تحقيق جديد كليًّا. كنتُ أحلقُ ذقني قبالة النافذة صباحًا وقتما سمعت خشخشة حوافر، وعندما نظرتُ لأتبيّن رأيتُ في الشارع عربة مكشوفة قادمة على عجل. توقفت عند بابنا، قفزَ منها صديقنا القس وحثّ خطاه على ممشى حديقتنا. كان هولمز مرتديًا ملابسه بالفعل، فعجّلنا لُلقياه.

كان ضيفنا مُثارًا لدرجة بالكاد استطاع النُطق معها، لكن قصته المأساوية خرجت أخيرًا على دُفعات لاهثة.

وهتف: «لقد تلبّسَنا الشيطان يا سيد هولمز! لقد تلبّسَ رعيتي المساكين الشيطان! إبليسُ بذاته طليق بينهم! إننا بين يديه!» وصار يرقص حول نفسه مرتعشًا، ولولا وجهه المجهد وعيناه المبهوتتان لكان المشهد هزليًّا، ثم أطلق أخيرًا أنباءه المُريعة.

«لقد توفيَ السيد مورتيمر تريجينيس أثناء الليل، وتبدو عليه نفس أعراض بقية عائلته بالضبط».

وثب هولمز واقفًا على قدميه يضجّ حيوية في لحظة.

– هل تتسع عربتك لكلينا؟

– نعم تتسع.

– إذًا سنؤجل فطورنا يا واتسون، ونحن تحت تصرفك كليًّا يا سيد راوندهاي. تعجّل، تعجّل قبل أن يُعبث بالأشياء.

شغل المستأجر غرفتين في بيت الكهنة كانتا فوق بعضهما في زاوية وحدهما. كانت السُفلى غرفة جلوس واسعة، والعُليا غرفة نومه، تطلّ نوافذ كلتيهما على مرج كروكيت. وصلنا قبل الطبيب أو الشرطة، لذا لم يكن شيئًا قد مُسّ على الإطلاق. دعوني أصِف المشهد تمامًا كما شهدناه في ذاك الصباح الضبابيّ، فقد تركَ أثرًا لا يمكن محوه من ذكرياتي أبدًا.

كان جوّ الغرفة مختنقًا اختناقًا رهيبًا وضاغطًا، ولولا أن فتحت الخادمة التي دخلت الغرفة أولًا النافذة لكان أكثر بشاعةً. ربما دخان السراج المتوهج في وسَط الطاولة كان سببًا جزئيًّا في ذلك. كان المتوفى جالسًا بجواره متكئًا على ظهر كرسيه، لحيته الدقيقة بارزة، ونظاراته مثبتة على جبهته، ووجهه الأسمر الضامر ملتفتٌ إلى النافذة تعلوه تشوّهات الرُعب ذاتها التي رسمت ملامح أخته المتوفاة. أطرافه متشنجةً وأصابعه منقبضة وكأنما مات في نوبة ذُعرٍ حادة، مرتديًا حلّته الكاملة، رغم وجود بعض الدلالات المشيرة إلى أنه ارتدى ملابسه على عجل، وعرفنا مسبقًا أنه نام في سريره، وأن المأساة قد نزلت به في الصباح الباكر.

إن المرء ليدرك الطاقة الوهّاجة الكامنة أسفل مظهر هولمز البارد إذا ما رأى التغيّر المباغت الذي أصابه في اللحظة التي دخل بها الشقة القاتلة، إذ صار في لحظة متوترًا ومتأهبًا، وصارت عيناه تبرقان، ووجهه جامد، وأطرافه ترتعش بنشاط لهوف. يخرج إلى المرج، ويدخل عبر النافذة، ويطوف في الغرفة، وفي الغرفة العليا، محاولًا تحصيل كل شيء ككلب صيد ثعالب مهتاج يحاول كشف وكرٍ ما. قام بجولة سريعة في غرفة النوم انتهت بفتحه النافذة، الأمر الذي بدا أنه منحه سببًا لإثارة جديدة، فقد مدّ جسده منها مطلقًا هتافات صاخبة تنمّ عن بهجة واهتمام. ثم هرع نزولًا على السلالم وخرج عبر النافذة المفتوحة، وألقى نفسه على وجهه فوق المرج، وثب واقفًا بعدها وعاد إلى الغرفة مرة أخرى، فاعلًا كل هذا بحيويّة الصياد الذي أوشك أن يقبض على فريسته. تفحّص السراج الذي كان شيئًا عاديًّا بعناية دقيقة، وقام بإجراء قياسات معينة على صحنه. عاين الواقية التي تغطي أعلى المدخنة بحرص مستخدمًا عدسته، وكشط بعض الرماد الملتصق بسطحها العلوي، واضعًا بعضه في مظروف وضعه في محفظته، وأخيرًا، بمجرد ظهور الطبيب والشرطة الرسمية، أومأ إلى القس وخرجنا ثلاثتنا إلى المرج.

وعلّق: «يسرّني القول إن تحقيقاتي لم تكن عقيمة بالكامل. لا يمكنني البقاء لمناقشة المسألة مع الشرطة، لكني سأكون في منتهى الامتنان يا سيد راوندهاي إن نقلتَ تحيّاتي إلى المفتّش ولفتّ انتباهه إلى نافذة غرفة النوم وسراج غرفة الجلوس. كل واحدة منهما تنمّ عن شيء ما، وكلتاهما معًا حاسمتان تقريبًا، وإذا ما رغبت الشرطة بمعلومات إضافية فيسعدني استقبال أي منهم في كوخي. والآن يا واتسون، ربما من الأفضل لنا أن نشغل أنفسنا في مكان آخر».

ربما استاءت الشرطة من تطفّل هاوٍ، أو ربما تصوروا أنفسهم في مطلع تحقيق واعد ما؛ لكن المؤكد أننا لم نسمع شيئًا منهم في اليومين التاليين. قضى هولمز بعض وقته خلال هذه الفترة يدخن ويحلم في الكوخ؛ لكنه قضى النسبة الأعظم منه في المشاوير الريفية التي كان يمشيها وحده، ويرجع بعد ساعات عديدة دون أن يقول أين كان. أوضحت لي إحدى التجارب اتجاه تحقيقه، إذ اشترى سراجًا نسخةً عن الذي كان يتوهج في غرفة مورتيمر تريجينيس صباح المأساة، وملأه بنفس الزيت المستخدم في بيت الكهنة، ووقّت بدقة المدة التي يتطلبها استهلاكه. أجرى تجربة أخرى ذات طبيعة أكثر بشاعة، تجربة لا يرجح أن أنساها أبدًا.

قال في ظهيرة أحد الأيام: «تذكر يا واتسون، أن ثمة نقطة تشابه مشتركة واحدة في الإفادات المختلفة التي وصلتنا، وهي متعلقة بأثر جو الغرفة في كل قضية على أولئك الذين دخلوها أولًا. أتتذكر قول مورتيمر تريجينيس في وصفه زيارته الأخيرة إلى منزل إخوته أن الطبيب سقط على كرسي عند دخول الغرفة؟ أنسيت؟ حسنًا أنا أجيبك بأنه كان كذا. والآن تذكر أيضًا إخبار مدبرة المنزل السيدة بورتر إيانا بأنها قد غُشي عليها عند دخولها الغرفة واضطرت إلى فتح النافذة. في القضية الثانية، قضية مورتيمر تريجينيس ذاته، لا يمكن أن تكون نسيت اختناق الغرفة الفظيع وقتما وصلنا، رغم فتح الخادمة النافذة، ووجدت خلال التحري أن تلك الخادمة كانت مريضة لدرجة أنها خلدت إلى فراشها. والآن ستعترف يا واتسون أن هذه الحقائق الثلاثة موحية جدًّا. في كل قضية دليل على جوٍ سام، وفي كل واحدة اشتعال يجري في الغرفة أيضًا، موقد في القضية الأولى وسراج في الثانية. أُشعلت النار لحاجة إليها، لكن السراج أُشعل، كما تظهر مقارنة استهلاك الزيت، بعد بزوغ الفجر بفترة طويلة، لماذا؟ لأن ثمة رابطة ما بين هذه الأمور الثلاثة بالتأكيد، الاحتراق، والجو الخانق، وأخيرًا جنون أو موت هؤلاء الأشخاص التعساء. هذا واضح، أليس كذلك؟»

– هذا ما يبدو عليه الأمر.

– يمكننا قبول الأمر باعتباره فرضية فاعلة على الأقل. سنفترض إذًا، أن شيئًا ما أُحرق في كل قضية أنتج جوًّا يسبب آثارًا سامة غريبة، جيد جدًّا. في الحادثة الأولى، حادثة عائلة تريجينيس، وُضعت هذه المادة في النار. صحيح أن النافذة كانت مغلقة، لكن من الطبيعي أن النار ستصرّف بعض الأبخرة في المدخنة، وبناءً على ذلك سيتوقع المرء أن تكون آثار السم أخف منها في القضية الثانية، حيث كان تسرُّب البخار أقل. يبدو أن النتيجة تشير إلى كون الأمر كذا، بما أنه في القضية الأولى توفيت المرأة، أي صاحبة الجسم الأكثر حساسية، فقط، بينما يظهِر الباقيان ذاك العَتَه المؤقت أو الدائم الذي من الجليّ أنه الأثر الأولي للعقار. في القضية الثانية كانت النتيجة مكتملة، وهكذا يبدو أن الحقائق تثبت نظرية السم الذي يعطي مفعوله بالاحتراق.

بوجود سلسلة الاستنتاج هذه في رأسي، بحثت بالطبع في غرفة مورتيمر تريجينيس عن بقايا هذه المادة، والمكان البديهي الذي يجب البحث فيه هو واقية دخان السراج. وجدتُ هناك، من غير ريب، عددًا من البقايا القشرية، وحاشية مسحوق بنيّ على الحافات لم يُستهلك بعد. أخذت نصف هذا المسحوق كما رأيت، ووضعته في مظروف».

– لمَ النصف؟

– ليس من شيمي الوقوف في طريق قوات الشرطة الرسمية يا واتسون العزيز. أنا أترك لهم كل الأدلة التي أجدها، فالسُم ما زال على الغطاء إذا ما كانت لديهم البصيرة لإيجاده. والآن يا واتسون، سنشعل سراجنا؛ وسنحتاط مع ذلك فنفتح نافذتنا لنُجنب فردين صالحين من أفراد المجتمع موتًا مبكرًا، وستُقعد نفسك في كرسيّ ذي ذراعين بجوار تلك النافذة المفتوحة، إلّا إذا قررتَ، مثل أي رجل عاقل، أن لا علاقة لك بالمسألة. أوه، ستبقى حتى النهاية، أليس كذلك؟ وكنتُ أعتقد أني أعرف صديقي واتسون. سأضع هذا الكرسي مقابل كرسيك، كي نكون وجهًا لوجهٍ وعلى نفس المسافة من السم، وسنترك الباب مواربًا. كل منا الآن في موضع يسمح له بمراقبة الآخر وإنهاء التجربة إذا ما بدت الأعراض مخيفة. هل هذا واضح؟ حسنًا، إذًا سأخرج مسحوقنا، أو بقاياه، من المظروف وسأضعها على السراج الملتهب. إذًا! دعنا نقعد وننتظر التطورات الآن يا واتسون.

لم يطُل ظهور التطورات، فبالكاد استقررت في كرسيي حتى تنبّهت إلى رائحة ثقيلة شبيهة بالمسك، حادة وتسبب الغثيان. خرج عقلي ومخيلتي عن أي سيطرة بمجرد الشمّة الأولى، والتفّت سحابة سوداء سميكة أمام عينيّ، وأوهمني عقلي أن كل ما هو فظيع على نحو مُبهم، وكل ما هو شنيع وشرير بصورة لا يمكن تصورها، كامنٌ في تلك السحابة وغير مرئيّ، لكنه على وشك أن يقفز خارجًا منها أمام حواسي المذعورة.

التفّت أشكال غامضة وصارت تسبح على حافات السحابة، كلّ منها تهديد وتحذير من شيء مقبل، من بروز شيء لا يمكن وصفه على عتبة الباب، شيء سيُذبل ظلّه وحده روحي. استحوذ عليّ رعبٌ شالٌّ للحركة، وشعرت أن شعري يقف، وأن عينيّ تجحظان، وفمي مفتوح، ولساني كالجلد. كان الصخب في رأسي صخب انفجار شيء ما بلا شك، وحاولت الصراخ لكني أدركت بصورة مشوّشة صوتًا مبحوحًا، كان هذا هو صوتي الخاص، لكنه بعيد ومنفصل عني. في اللحظة نفسها، بذلت بعض الجهد حتى نهضت واقتحمت سحابة اليأس تلك ولمحت وجه هولمز، أبيض، جامدًا، يشلّه الرعب، حاملًا نفس النظرة التي رأيتها على ملامح الموتى. كان ذاك التبصّر ما منحني لحظة تعقّل وقوة، وأسرعت من كرسيّي واحتضنت هولمز بين ذراعيّ ثم ترنّحنا معًا خارجين من الباب، وألقينا نفسينا بعد ذلك ببرهة على رقعة العشب مستلقيين جنبًا إلى جنب، غير واعيين إلا لشعاع الشمس المجيد يشقّ طريقه في سحابة الرعب الجحيمية التي طوّقتنا داخلها. انقشعت عن روحينا ببطء كما ينقشع الضباب عن مشهد طبيعي إلى أن عاد السلام والعقل، وجلسنا على العشب نمسح جبهتينا النديّتين وننظر بجزعٍ إلى بعضنا بعضًا لنراقب آخر آثار تلك التجربة المروّعة التي خضعنا لها.

قال هولمز بصوت متقلقل: «شرفًا يا واتسون! إني مدين لك بشكر واعتذار، لقد كانت تجربة لا مبرّر لأن يُخضع المرء نفسه لها حتى، فما بالك أن يُخضع صديقًا. إنني آسف جدًّا حقًّا».

أجبته ببعض العاطفة، لأنني لم أرَ هذا القدر من رقة هولمز من قبل قط: «أتعلم، أن مساعدتك متعتي الكبرى وحظوتي الأعظم».

رجع مباشرةً إلى مزاجه نصف الساخر الذي كان سلوكه المعهود تجاه المحيطين به، وقال: «كان سوقنا إلى الجنون أمرًا متجاوزًا الحد يا عزيزي واتسون، وكان رقيبًا صريحًا ليعلن بالتأكيد أننا مجانين بالفعل قبل شروعنا بهكذا تجربة جامحة. أعترف أنني لم أتخيل أن يكون التأثير مباغتًا وشديدًا لهذا الحد»، وأسرع إلى الكوخ، ثم ظهر مجددًا حاملًا السراج المشتعل على طول يده، ثم رماه على كومة من العلّيق. «لا بدّ أن نمنح الغرفة بعض الوقت لتنقى، وأعتقد أنه لم يعد لديك أي شك حول طريقة إنتاج هذه المآسي يا واتسون، صحيح؟»

– ولا شبه شكّ حتى.

– لكن السبب ما زال غامضًا كما كان قبلًا، تعال نخرج إلى العريشة هنا ونناقش الأمر معًا، فإن تلك المادة الشرّيرة تبدو وكأنها ما تزال تتسكع في حلقي. أعتقد أن علينا الاعتراف بأن كل الأدلة تشير إلى كون هذا الرجل، مورتيمر تريجينيس، المُجرم في الواقعة الأولى، رغم كونه الضحية في الثانية. وعلينا أن نتذكّر في المقام الأول، وجود قصة شجار عائلي، تبعته تسوية ما، ولا يمكننا معرفة قدر مرارة ذاك الشجار ولا قدر تفاهة تلك التسوية. وقتما أفكّر في مورتيمر تريجينيس بوجهه الثعلبيّ وعينيه الماكرتين الخرزيتين المحدقتين من خلف نظاراته، لا أراه رجلًا يمكن القول إنه ذو سجية مُتسامحة على وجه الخصوص. حسنًا، وتذكر ثانيًا أن فكرة وجود شخص ما يتحرك في الحديقة، والتي حوّلت انتباهنا للحظة عن السبب الرئيس للمأساة، قد صدرت عنه، أي كان لديه الدافع لتضليلنا. أخيرًا، إذا لم يكن مَن رمى المادة في النار لحظة مغادرته الغرفة، إذًا من فعل ذلك؟ فقد حدث الأمر مباشرة بعد مغادرته، ولو أن أيًّا غيره قد دخل المنزل، لنهضت العائلة عن الطاولة بالتأكيد. إلى جانب أن الضيوف في كورنوال المسالمة لا يصلون بعد العاشرة ليلًا. قد نفهم من ذلك إذًا أن كل الأدلة تشير إلى أن مورتيمر تريجينيس هو الجاني.

– إذًا فموته كان انتحارًا!

– حسنًا يا واتسون، هذا ليس افتراضًا مستبعدًا على ضوء المسألة، فإن الندم قد يدفع الرجل الذي يُثقل روحه ذنب إنزال مصير كهذا بعائلته إلى الذهاب بنفسه أيضًا للمصير ذاته. على أنّ ثمة بعض الأسباب القاطعة المناوئة لذلك. لحسن الحظ، يوجد رجل واحد في إنجلترا يعرف كل شيء عن الأمر، وقد قمت بالترتيبات اللازمة لنسمع الحقائق بلسانه هذه الظهيرة. آه! لقد وصل مبكرًا بعض الشيء، أرجو أن تتفضل من هذا الطريق يا دكتور ليون ستيرنديل، فقد كنا نُجري تجربة كيميائية في الداخل تركَتْ غرفتنا الصغيرة غير ملائمة لاستقبال ضيف مرموق كحضرتك.

كنت قد سمعتُ صوت مزلاج باب الحديقة، ثم ظهر الجسد المهيب للمستكشف الإفريقي في الممر، واستدار ماشيًا بشيء من المفاجأة إلى العريشة القرويّة حيث جلسنا.

«لقد طلبتني يا سيد هولمز. وصلني خطابك منذ ساعة تقريبًا وجئت، رغم أنني في واقع الأمر لا أعرف لمَ عليّ الاستجابة لاستدعاءاتك».

قال هولمز: «ربما يمكننا توضيح النقطة قبل أن نفترق، وفي هذه الأثناء، سأكون ممتنًّا كثيرًا للطفك وقبولك المجيء. اعذُر هذا الاستقبال غير الرسمي في الهواء الطلق، لكني وصديقي واتسون قد أوشكنا

على إضافة فصل آخر لما تدعوه الصحف بالرعب الكورنوالي، وإننا لنفضل جوًّا صافيًا حاليًّا، وبما أن الأمور التي نريد الحديث فيها ستؤثر عليك شخصيًّا بطريقة حميمة جدًّا، فربما من الأفضل أن نتكلم بعيدًا عن الآذان».

سحب المستكشف سيجاره من بين شفتيه وحدق بصرامة إلى رفيقي.

وقال: «تُعييني الحيلة في معرفة ما الذي قد تتكلم عنه ومن شأنه التأثير عليّ شخصيًّا بطريقة حميمية جدًّا».

فقال هولمز: «قتلُ مورتيمر تريجينيس».

للحظة تمنيت لو أني كنتُ مسلّحًا، فقد استحال وجه ستيرنديل أحمر قاتمًا، والتمعت عيناه، وبرزت العروق المعقدة الحامية على جبهته، بينما وثب ويداه مقبوضتان باتجاه رفيقي. ثم توقف واستعاد بجهد عارمٍ هدوءه البارد الصارم، الذي ربما كان موحيًا بالخطر أكثر من ثورانه الحانق.

وقال: «لقد عشتُ وقتًا طويلًا بين الهمَج بعيدًا عن أعين القانون، لدرجة أني اعتدتُ تطبيق قانوني بنفسي. ربما من الأفضل ألّا تنسى ذلك يا سيد هولمز، فأنا لا أرغب بإيذائك».

«ولا أنا أرغب بإيذائك يا دكتور ستيرنديل، وأكثر البراهين وضوحًا على ذلك بالتأكيد، هو أني رغم معرفتي ما أعرفه، طلبتك أنت لا الشرطة».

جلس ستيرنديل مبهورًا مُرهَبًا ربما للمرة الأولى في حياته المُغامِرة، فقد كان في صورة هولمز ضمان قوةٍ هادئ لا يمكن مقاومته. تلعثم ضيفنا للحظة، وكانت يداه الضخمتان تفتحان وتغلقان في ارتباك واضح.

وسأل أخيرًا: «ما الذي تقصده؟ إذ ما كانت هذه خدعة تمارسها يا سيد هولمز، فقد اخترت الشخص الخاطئ لتجربتك. لنتوقف عن اللفّ والدوران الآن وأخبرني، ماذا تقصد؟»

قال هولمز: «سأخبرك، وسبب إخباري إياك هو أملي بأن تقابل صراحتي بصراحة مثلها، وتعتمدُ طبيعة خطوتي التالية كليًّا على طبيعة حجتك».

– حجتي؟

– أجل يا سيدي.

– حجتي ضد ماذا؟

– ضد تهمة قتل مورتيمر تريجينيس.

مسح ستيرنديل جبهته بمنديل جيبه، وقال: «يا إلهي، إنك مستمر في ذلك، أيتوقف كل نجاحك على قوة الخداع المذهلة هاته؟»

قال هولمز بصرامة: «الخداع قادم من جانبك يا دكتور ليون ستيرنديل، لا من جانبي، وبرهانًا على ذلك سأخبرك بعض الحقائق التي بنيتُ عليها استنتاجاتي. لن أقول عن عودتك من بليموث تاركًا الكثير من ممتلكاتك لتمضي إلى إفريقيا، إلا أنها أول ما دلّني على كونك واحدًا من العوامل التي يجب أخذها بعين الاعتبار في إعادة بناء هذه الدراما...

– لقد عُدتُ..

– سبق وسمعتُ أسبابك واعتبرتها غير مقنعة وهزيلة، لذا سنتجاوز ذلك. لقد جئتَ إلى هنا لتسألني بمن كنت أشتبه، ورفضتُ أن أجيبك، فذهبتَ إلى بيت الكهنة، وانتظرتَ خارجه بعض الوقت، ثم عدتَ إلى كوخك.

– كيف عرفتَ ذلك؟

– لقد تبعتُكَ.

– لم أرَ أحدًا.

– هذا ما يُتوقعَ أن تراه وقتما أتبعُك. لقد أمضيتَ ليلة قلقة في كوخك، وأتيتَ بخطط معينة انطلقت في الصباح الباكر لوضعها طيّ التنفيذ، إذ خرجت من كوخك عند أول خيوط الفجر، وملأت جيبك ببعض الحصاة البنية المتراكمة بجوار بابك.

أجفل ستيرنديل إجفالة شديدة ونظر إلى هولمز مذهولًا.

«ثم مشيتَ حثيثًا مسافة الميل الذي يفصلك عن بيت الكهنة، ويمكنني القول إنك كنت مُرتديًا زوج الأحذية الرياضية المخطط نفسه الذي يلفّ قدميك في هذه اللحظة. مررت في بيت الكهنة عبر البستان والسياج الجانبي، حتى صرتَ أسفل نافذة النزيل تريجينيس. كانت الشمس قد أشرقت آنذاك، لكن المنزل لم يكن نشطًا بعد، فأخرجت بعض الحصاة من جيبك، وقذفت بها النافذة التي تعلوك».

وثب ستيرنديل واقفًا على قدميه.

وصاح: «إنني مؤمنٌ أنك الشيطان بعينه!»

ابتسم هولمز جراء الإطراء. وتابع: «تطلّب الأمر حفنتين أو ثلاث حفنات قبل أن يطلّ النزيل من النافذة، ثم أشرتَ إليه بالنزول، فارتدى ملابسه بعجالةٍ وهبط إلى غرفة جلوسه. دخلتَ عبر النافذة، وحدثتْ مقابلة وجيزة ذرعتَ خلالها الغرفة، ثم خرجت وأغلقت النافذة ووقفت على المرج تدخن سيجارًا وتشاهد ما يحدث. وأخيرًا بعد أن مات تريجينيس، انسحبت مثلما قدِمتْ. والآن يا دكتور ستيرنديل، كيف تبرر تصرفًا كهذا، وما كانت دوافع أفعالك؟ وإذا ما نويت مراوغتي أو العبث معي، أجزم لك أن القضية ستخرج من يديّ إلى الأبد».

استحال وجه ضيفنا رماديًّا شاحبًا بينما كان يستمع إلى كلمات متِّهمه، وجلس لبعض الوقت يفكّر ووجهه غارق بين يديه. ثم انتزع بحركة اندفاعية مباغتة صورة من جيبه الصدري ورماها على الطاولة البسيطة أمامنا.

وقال: «هذا سبب فعلتي».

كان في الصورة جذع ووجه امرأة بارعة الجمال، انحنى هولمز فوقها.

وقال: «بريندا تريجينيس»،

كرّر ضيفنا: «بلى، بريندا تريجينيس، لأربعة أعوامٍ، أحببتُها، وأحبتني لأربعة أعوام، وهذا سبب عُزلتي في كورنوال التي عجِب الناس منها. فقد قربتني من الشيء الوحيد العزيز عليّ على سطح الأرض.

لم يكن بمقدوري الزواج منها، لأن لديّ زوجة هجرتني منذ سنوات، ووفق قوانين إنجلترا البائسة لا يمكنني طلاقها. انتظرتني بريندا أربعة أعوام، وانتظرت أربعة أعوام. وهذا ما كنا ننتظره». هزّت جهشةٌ شديدة قوامه العظيم، وقبض على حلقه أسفل لحيته البنية التي خطّها الشيب، ثم بذل مجهودًا للسيطرة على انفعالاته وتابع كلامه:

«كان القس يعرف وكنا نثق به. كان ليخبرك أنها ملاك يمشي على الأرض، وهذا سبب إرساله البرقية لي وسبب عودتي. ما قيمة أمتعتي أو إفريقيا بالنسبة لي حينما علمتُ أن قدرًا كهذا قد حل على محبوبتي؟ ها قد صارت لديك الدلالة الناقصة لفعلتي يا سيد هولمز».

قال صديقي: «أكمل».

أخرج الدكتور ستيرنديل علبة ورقية من جيبه ووضعها على الطاولة. كان مكتوبًا باللاتينية على الوجه الخارجي لها عبارة «جذر قدم الشيطان» وثمة إشارة سُمٍّ حمراء أسفلها. دفعها ناحيتي وقال: «أنت طبيب كما فهمت يا سيدي، هل سمعت بهذه التركيبة قط؟»

«جذر قدم الشيطان! لا، لم أسمع بها قط».

وقال: «لا يشكّل هذا تقليلًا من معرفتك المهنية، فأنا أظن أنه لا توجد عينة في أوروبا إلا واحدة موجودة في أحد مختبرات بودا، إذ لم تشُق طريقها بعد إلى دستور الصيدلة ولا إلى أدب السموميات. الجذر على هيئة قدم نصف بشرية ونصف ماعزيّة؛ ولهذا منحها مُبشرٌ عالمٌ بالنباتات هذا الاسم الأسطوري. كان رجال الطب في مقاطعات معينة في غرب إفريقيا يستخدمونها كسمٍّ في محاكمات التعذيب وأبقوها سرًّا بينهم، وقد حصلتُ على هذه العينة تحديدًا في ظل ظروف شديدة النُدرة من بلاد أوبناغي»، وفتح الورقة بينما يتكلم وأظهر كومة من مسحوق بنيّ مائل إلى الأحمر شبيه بالسعوط.

سأل هولمز بصرامة: «ثمّ ماذا يا سيدي؟»

«أنا موشك على إخبارك كل ما حدث حقيقةً يا سيد هولمز، فقد عرفتَ الكثير بالفعل ومن الواضح ليّ أن عليكَ معرفة كل شيء. لقد شرحتُ مسبقًا العلاقة التي أوقفتني بجانب عائلة تريجينيس، فكنتُ رفيق الإخوة لأجل أختهم. كان ثمة شجار عائلي متعلق بالمال أدّى إلى انسلاخ هذا الرجل مورتيمر عنهم، لكن كان مُفترضًا أنه قد سُوّيَ، والتقيته عقب ذلك مثلما التقيت البقية. كان رجلًا خبيثًا وحاذقًا وماكرًا، وأُثيرت عدة أشياء جعلتني أشتبه به، لكن لم يكن لدي سببٌ لأي تشاحن حقيقي.

في أحد الأيام، منذ أسبوعين فقط، زارني في كوخي وأريته بعضًا من تحفي الإفريقية. عرضتُ بين ما عرضتُ هذا المسحوق، وأخبرته عن خواصه الغريبة، وكيف أنه يحرّض مراكز الدماغ التي تتحكم بشعور الخوف، وكيف يكون الجنون أو الموت نصيب المواطن الذي يخضع لمحكمة التعذيب على يد كاهن من عشيرته، وأخبرته أيضًا كم هو عاجز الطب الأوروبي عن اكتشافه. لا أعرف كيف أخذ المسحوق، إذ إنني لم أغادر الغرفة، لكن لا شكّ أنه تمكن من استخلاص بعضٍ من جذر قدم الشيطان آنذاك، بينما كنت أفتح الخزائن وأرتّب الصناديق. أتذكر كيف أجهدني بالأسئلة عن الكمية والوقت اللازمين لظهور آثاره، لكن لم يخطر ببالي أن لديه سببًا شخصيًّا للسؤال.

لم أفكّر بالمسألة مرة أخرى حتى بلغتني برقية القس في بليموث، إذ اعتقد هذا المجرم أنني سأكون فوق البحر قبل أن تصلني الأنباء، وأنني سأقضي سنوات في إفريقيا، لكنني عدتُ على الفور. بالطبع، ما إن سمعتُ التفاصيل حتى تأكدتُ أن هذا مفعول سُمي، وزُرتكَ متأملًا أنك قد توصلتَ إلى تفسيرٍ آخر، لكن لم يكن ثمة احتمال وجودِ تفسير غيره. كُنت مقتنعًا أن مورتيمر تريجينيس هو القاتل؛ وأنه قد فعل ذلك لأجل المال، ربما معتقدًا أنه ما إذا جُن بقية أفراد عائلته سيكون الوصيّ الوحيد على مُلكهم المشترك، فاستخدم جذر قدم الشيطان عليهم، وأفقد اثنين منهم عقلهم، وقتل أخته بريندا، الإنسان الوحيد الذي أحببته أو أحبني قط. هذه كانت جريمته؛ فما العقاب العادل له؟

أعليّ مناشدة القانون؟ ما هي براهيني؟ كنتُ أعلم أن الحقائق صحيحة، لكن أكان بمقدوري حمل هيئة محلفين من رجال الدولة على تصديق قصة خيالية كهذه؟ ربما، وربما لا، لكن لم أكن قادرًا على تحمّل الفشل، وكانت روحي تصرخ طالبة الانتقام. أخبرتك مرة يا سيد هولمز، أنني قد أمضيت الكثير من حياتي خارج سلطة القانون، وأنني قد وضعت قانونًا خاصًّا بي. لذا قررتُ أن عليه الشرب من نفس الكأس التي سقى بها الآخرين. إما هذا، أو أن أمنحه ما يستحق بيديّ. لا يمكن أن يوجد في كل إنجلترا رجل يزهد في قيمة حياته أكثر مما أفعلُ في هذه اللحظة.

الآن أخبرتك بكل شيء، وكنت قد ملأت البقية بنفسك. لقد انطلقتُ، كما قُلتَ، مُبكرًا من كوخي بعد ليلة قلقة. حدستُ أن إيقاظه سيكون صعبًا، لذا جمعت بعض الحصاة من الكومة التي ذكرتَها، واستخدمها لضرب نافذته، ثم هبطَ وأدخلني عبر نافذة غرفة الجلوس. واجهتهُ بجريمته، وأخبرته أني قد جئتُ قاضيًا وجلادًا، وغرق الخسيس في الكرسيّ مشلولًا أمام طبنجتي، ثم أشعلتُ السراج، ووضعت المسحوق فوقه، ووقفتُ خارج النافذة مستعدًّا لتنفيذ تهديدي بإطلاق النار عليه إذا ما حاول مغادرة الغرفة. مات في خمس دقائق، ويا إلهي كيف مات! لكن قلبي كان قاسيًا كالصوّان، لأنه لم يعان إلا كما عانت محبوبتي البريئة قبله. هذه قصتي يا سيد هولمز، لعلك لو أحببت امرأة لكنت نفسكَ فعلتَ مثلي. على أي حال، أنا بين يديك. يمكنك اتخاذ أي إجراء تريد. فكما قلت قبلًا، لا يوجد رجل حيّ مستعدٌّ للموت أكثر مني».

جلس هولمز صامتًا لبعض الوقت.

وسأل أخيرًا: «ما كانت خُططك؟»

«كُنت أنوي التواري عن الأنظار في وسط إفريقيا، فعملي هناك ما زال نصف مكتمل».

قال هولمز: «وأنا، على الأقل، لستُ متأهبًا لمنعك عن ذلك».

نهض الدكتور ستيرنديل بجسده العملاق، وانحنى برصانة، ثم مشى خارجًا من العريشة. أشعل هولمز غليونه وأعطاني محفظته.

وقال: «ستكون بعض الأبخرة غير السامة تغييرًا مرحبًا به، أظن أنك لا بدّ موافقٌ يا واتسون، أن هذه ليست قضية استُدعينا لنتدخل فيها. كان تحرّينا مستقلًّا، وعلى فعلنا أن يكون كذا أيضًا. لن تُبلغ عن الرجل أليس كذلك؟»

أجبت: «بالطبع لا»،

«لم أحبّ قط يا واتسون، لكن لو أنني فعلتُ ولو أن المرأة التي أحببت قد لقيتْ حتفًا كهذا، لربما كنتُ تصرفتُ كما تصرف صياد الأسود الخارج عن القانون هذا. من يعرف؟ حسنًا يا واتسون، لن أهين ذكاءك بشرح ما هو بدهي. كانت الحصاة على عتبة النافذة نقطة بداية بحثي بالطبع، إذ إنها لم تكن تشبه الموجودة في حديقة بيت الكهنة، ولم أجد أُختها إلا وقتما جذب الدكتور ستيرنديل وكوخه اهتمامي. كان السراج وهّاجًا في عزّ ضوء النهار وكانت بقايا المسحوق فوق واقيته حلقات متتابعة في سلسلة واضحة تمامًا. والآن يا عزيزي واتسون، أعتقد أن علينا صرف المسألة من عقولنا والعودة بأذهان صافية إلى دراسة هذه الجذور الكلدانية التي لا شك يمكن تعقبها في الفرع الكورنوالي من اللغة السلتية العظيمة».

قضيته الأخيرة، خاتمة شيرلوك هولمز

كانت الساعة التاسعة تمامًا من مساء الثاني من أغسطس، أغسطس الأفظع في تاريخ العالم. كان المرء ليعتقد في ذلك الحين أن لعنة الله تتنزل بثقلها فوق عالم فاسد، فقد هيمن سكون مهيب وشعور بالترقب المُبهم على الهواء الخانق، وكان قرص الشمس قد غاب منذ وقت طويل، لكنه ترك شقًّا ذا لون أحمر دموي كجرح مفتوح عالقًا على الغرب البعيد. في الأعلى، كانت النجوم تتلألأ ببريق بهيّ، وفي الأسفل تومض أضواء السفن في الخليج. كان الألمانيان الشهيران واقفين إزاء الدرابزون الحجري لممشى الحديقة، ويطلان على مساحة الشاطئ العريضة الممتدة أسفل الجرف الطباشيري العظيم الذي، ومثل نسر شَرودٍ، حط فون بورك على حرفه قبل أربع سنوات. كانا واقفين متقاربي الرأسين، يتحادثان بنبرات خافتة تشي بالسرية، ولربما كان رأسا سيجاريهما المتوهجين العينين المحترقتين لشيطان خبيث ما يحدق في الظلام.

رجل استثنائي فون بورك هذا، يندر نظيره بين كل عملاء القيصر المخلصين. كانت مَلَكاته ما زكاه في البداية إلى العملية الإنجليزية، أكثر العمليات أهمية، لكن منذ أن تسلّم زمامها، صارت هذه المَلَكات شيئًا فشيئًا أكثر وضوحًا أمام الأشخاص الستة الذين يعرفون الحقيقة بحق في العالم، وكان من هؤلاء الأشخاص زميله الحالي، البارون فون هيرلينج، كبير أمناء السّفارة الألمانية، الذي كانت سيارته البنز الضخمة بقوة مئة حصان تسدّ الطريق الريفي منتظرة الانطلاق بصاحبها إلى لندن.

كان الأمين يقول: «بقدر ما يمكنني الحكم على مجرى الأحداث حتى الآن، على الأرجح أنك سترجع إلى برلين خلال الأسبوع، وأعتقد أنك ستندهش من الترحيب الذي ستلقاه عند وصولك يا عزيزي فون بورك، فمن المصادفة أني أعرف رأي الجهات العليا بعملك في هذي البلاد». كان الأمين رجلًا ضخم البنية، داكن اللون، عريض الكتفين، طويل القامة، وأسلوبه المتمهل والجدّيّ في الكلام هو ميزته الرئيسة في حياته السياسية.

ضحك فون بورك، وعلّق:

«ليس من الشاق خداعهم، إذ لا يمكن تخيل وجود قوم أكثر منهم خضوعًا وسذاجة».

قال الآخر بتفكّر: «لست متأكدًا من ذلك، فلديهم قواعد غريبة، وعلى المرء أن يتعلم التقيد بها. إن سذاجتهم السطحية فخ للغريب، فيكون الانطباع الأول عنهم أنهم في غاية الهشاشة، ثم يقع المرء على شيء ما في غاية الصلابة، فيعرف أنه قد بلغ الحد وعليه التأقلم مع هذه الحقيقة. لديهم، مثلًا، تقاليدهم الضيقة التي، وببساطة، لا بد من مراعاتها».

تنهد فون بورك كشخص ذاق الأمرّين وقال: «أتعني «السلوك الحسن» وهذا النوع من الأمور؟»

«أعني الإجحاف البريطاني بكل تجلياته التافهة، يمكنني، مثالًا على ذلك، أن أقتبس واحدة من أسوأ حماقاتي، إذ بمقدوري تحمل التكلم عن هفواتي، كونك تعرف عملي بما يكفي لتكون مدركًا نجاحي. في

بداية وصولي، كنت قد دُعيت إلى تجمعٍ في عطلة نهاية الأسبوع في المنزل الريفي لوزير ما، وكانت المحادثة رعناء على نحو مذهل».

أومأ فون بورك وقال بجفاف: «مررت بمثل ذلك».

– بالضبط. وبطبيعة الحال، أرسلت نبذة عن الإفادة إلى برلين. من سوء الحظ أن مستشارنا الطيب عنيد وأخرق بعض الشيء في هذه المسائل، فقد أذاع تعليقًا يدلّ على أنه كان على دراية بما قد قيل، فتحركت أصابع الاتهام نحوي مباشرة بالطبع، ولا تملك أدنى فكرة عن الأذى الذي سببه ذلك لي. لم يكن ثمة شيء لطيف في مضيفينا البريطانيين في تلك المناسبة، أؤكد لك هذا. أمضيت عامين محاولًا غسل ذاك الخزي عني، والآن أنت بتظاهرك الرياضي هذا...

– لا لا، لا تُسمه تظاهرًا، فالتظاهر أمرٌ متكلف، أما ما أفعله فطبيعي للغاية. لقد وُلدت رياضيًّا، وأنا أستمتع بذلك.

– حسنًا، هذا يجعله حقيقيًّا أكثر، فأنت تباريهم في سباق اليخوت، وتخرج معهم إلى الصيد، وتلعب البولو، وتجاريهم في كل لعبة، وتفوز عربتك ذات الأحصنة الأربعة بالجائزة في أوليمبيا، وقد سمعت حتى أنك بلغت حد لعب الملاكمة مع الضباط الشباب، وما النتيجة؟ لا أحد يأخذك على محمل الجد. أنت مجرد «رياضي قديم جيد»، «شخص محترم جدًّا بالنسبة لألماني»، ورفيق شاب طائش سكّير يتسكع في نواحي المدينة والملاهي الليلية، ومنزلك الريفي الهادئ هذا هو مركز نصف شيطنة إنجلترا طوال الوقت، وملّاك الأرض ورجل المخابرات السرية الرياضي الأكثر دهاءً في أوروبا. هذا عبقري يا عزيزي فون بورك، عبقري!

– أنت تجاملني أيها البارون، لكن يمكنني بالتأكيد القول إن سنواتي الأربع في هذي البلاد لم تكن عقيمة. لم أُرك مخزني الصغير قط، أتمانع المجيء للحظة؟

كان باب المكتب يُفتح مباشرة على المصطبة، دفعه فون بورك وضغط مفتاح الضوء الكهربائي متقدمًا الطريق، ثم أغلق الباب خلف الجسم الهائل الذي تبعه وضبط الستارة الثقيلة بعناية فوق النافذة المتشابكة، وبعد أن اتُّخذت كل هذه التدابير الاحترازية وجرى اختبارها، التفتَ بوجهه العقابيّ إلى ضيفه وقال:

– لقد رحّلت بعض أوراقي، فحينما غادرت زوجتي والعائلة البارحة إلى فلاشينج، أخذوا معهم ما هو أقل أهمية، وبالتأكيد لا بد لي من طلب الحماية من السفارة لأجل البقية.

– سبق وصُنف اسمك كواحد من الحاشية الخاصة، ولن تواجه صعوبات بالنسبة لأمتعتك. بالطبع، من الممكن أيضًا ألا تضطر إلى الذهاب، فإن إنجلترا قد تترك فرنسا لتواجه مصيرها. نحن متأكدون من عدم وجود معاهدة مُلزمة بينهما.

– وبلجيكا؟

– أجل، وبلجيكا أيضًا.

هز فون بورك رأسه وقال: «لا أرى إمكانية ذلك، ثمة معاهدة حتميّة هناك، إذ لن يكون بمقدورها التعافي من خزي كهذا أبدًا».

– ستحظى بسلام للوقت الراهن على الأقل.

– لكن ماذا عن شرفها؟

– كلام فارغ يا سيدي العزيز، إننا نعيش في عصر قائم على المنفعة، والشرف مفهوم قروسطي. إلى جانب أن إنجلترا ليست مستعدة. إنه أمر لا يُصدق، لكن حتى ضريبة حربنا الخاصة التي بلغت خمسين مليونًا، والتي قد يعتقد المرء أنها جعلت هدفنا واضحًا كما لو أننا أعلنا عنه على واجهة صحيفة التايمز، لم توقظ هؤلاء الناس من سباتهم. يسمع المرء سؤالًا في كل ركن، ووظيفتي إيجاد إجابة له، وثمة انزعاج في كل مكان، وظيفتي تسكينه. لكن يمكنني أن أؤكد لك أنه حتى الآن وبحسب ترتيب الضروريات –تخزين الذخيرة، تحضير هجوم الغواصات، ترتيبات تصنيع المتفجرات شديدة الانفجار– لا شيء جاهز. كيف إذًا يمكن لإنجلترا دخول الحرب، لا سيما وقد مزجنا لها شرابًا شيطانيًّا كهذا، قوامه الحرب الأهلية الأيرلندية، وربات الغضب محطمات النوافذ، ولا يعلم إلا الله ماذا أيضًا، لإبقاء تفكيرها محصورًا في أمورها الداخلية.

– عليها التفكير بمستقبلها.

«آه، هذه مسألة أخرى. أتصور أننا سندبر خططنا الخاصة الحاسمة جدًّا حول إنجلترا في المستقبل، وأن إفادتك ستكون أساسية للغاية لنا. إن حربنا إما عاجلة أو آجلة بالنسبة للسيد جون بل، فإذا كان يحبذ العاجل فنحن على أتم الاستعداد، وإذا كان خياره الآجل فعلينا أن نكون أكثر استعدادًا. إني لأعتقد أنهم سيكونون أكثر ذكاءً إذا ما قاتلوا مع حلفائهم، لكنه شأنهم الخاص، وهذا الأسبوع هو أسبوعهم المصيري. كنت تتكلم عن أوراقك»، وجلس على الكرسي ذي الذراعين والأضواء تلتمع على رأسه الأصلع العريض بينما أخذ نفسًا قصيرًا من سيجاره.

للغرفة الضخمة ستارة معلقة في الزاوية القريبة، وكانت مكسوة بألواح خشب البلوط ومرصوفة بالكتب، ووقتما شُدت هذه الستارة كشفت عن خزنة ضخمة مغلفة بالنحاس. فك فون بورك مفتاحًا صغيرًا من سلسلة ساعته، وبعد معالجة صعبة للقفل أزاح الباب الثقيل جانبًا.

وقال، واقفًا بمحاذاته، مشيرًا بتلويحة من يده: «انظر!».

أنار الضوء بوضوح داخل الخزنة المفتوحة، وحدق أمين السفارة باهتمام مستغرق إلى صفوف الكوّات المحشوة التي أُثثت الخزنة بها، كانت كل كوّة تحمل عنوانًا، وقرأت عيناه بينما ألقى نظرة خاطفة عليها سلسلة طويلة من العناوين مثل: «مخاضات الأنهار»، «دفاعات الموانئ»، «الطائرات»، «أيرلندا»، «مصر»، «حصون بورتسماوث»، «بحر المانش»، «روسيث»، ومجموعة غيرها، وكل مقصورة منها تعج بالأوراق والمخططات.

«هائل!» قال الأمين بينما أطفأ سيجاره وصفق بلطف بيديه البدينتين.

«وكل هذا في أربع سنوات أيها البارون، ليس أداءً سيئًا بالنسبة لمالك ريفي سكّير طائش، لكن تُحفة أعمالي قادمة وها هُوَ ذا مكانها جاهز ينتظرها»، وأشار إلى حيّز طُبع فوقه: «رموز البحرية».

– لكنك تمتلك ملفات جيدة هناك بالفعل.

– بالية ونفايات ورقية، فقد تنبهت الأميرالية بطريقة ما وغيرت كافة الشيفرات. كان الأمر كارثة أيها البارون، النكسة الأشد وطأة في حملتي كلها، لكن بفضل دفتر شيكاتي وألتامونت الخيّر، سيكون كل شيء على ما يرام الليلة.

نظر البارون إلى ساعته وأطلق آهة تنم عن الإحباط.

«حسنًا، أنا حقًّا لا يمكنني الانتظار أكثر، لك أن تتخيل أن الأمور قيد العمل في شارع كارلتون تيريس الساعةَ وأن على كلنا التواجد في مكاتبنا. كنت آمل أن أتمكن من العودة بأنباء جديدة عن ضربتك العظيمة، ألم يحدد ألتامونت ساعةً؟»

دفَع إليه فون بورك برقية كُتب فيها:

سأرجع بكل تأكيد الليلة وسأجلب شمعات احتراق جديدة.
ـــــ ألتامونت

– ماذا؟ شمعات احتراق؟

– كما ترى، هو يتظاهر بأنه خبير محركات وأني أملك مرآبًا ممتلئًا، وفي نظام شيفرتنا، نسمي كل ما من المحتمل ظهوره باسم قطعة غيار ما. إذا كان يتكلم عن المبرّد فهذا يعني بارجة، ومضخة الزيت تعني طرادًا، إلخ، وشمعات الاحتراق هي رموز البحرية.

قال الأمين مُعاينًا الترويسة: «من بورتسماوث عند الظهيرة، بالمناسبة، كم تدفع له؟»

– خمسمئة جنيه لهذه المهمة بعينها، وله مرتبّ أيضًا بالتأكيد.

– المحتال الجشع. إنهم مفيدون، هؤلاء الخونة، لكنني أستخسر بهم مالهم الملوث بالدم.

– لا أستخسر شيئًا بألتامونت، إنه عامل رائع، وإذا ما دفعت له جيدًا، سيوصل البضائع على أقل تقدير، على حد تعبيره. إلى جانب أنه ليس خائنًا، وأؤكد لك أن أكثر الأرستقراطيين ولاءً لألمانيا ولفكرة توحيد الشعوب الناطقة بالألمانية لدينا ليس إلا حمامة سلام صغيرة إذا ما قورنت مشاعره تجاه إنجلترا بمشاعر أيرلندي أمريكي حقيقي متعصب.

– أوه، هو أيرلندي أمريكي؟

– لن تشك بذلك لو أنك سمعته يتكلم، أؤكد لك أنني بالكاد أفهم كلامه في بعض الأوقات. يبدو أنه قد أعلن الحرب على إنجليزية الملك وعلى الملك الإنجليزي على حد سواء، أمضطر إلى الذهاب حقًّا؟ قد يصل بأي لحظة.

«بلى، أعتذر لكني قد أطلت المكوث أكثر مما ينبغي بالفعل. نتوقع قدومك مبكرًا في الغد، وعندما تمر مع كتاب الرموز ذاك عبر الباب الصغير أعلى درجات نصب دوق يورك التذكاري يمكنك وضع خاتمة ظافرة لسجلك في إنجلترا. ماذا! توكاي!» وأشار إلى زجاجة معفرة شديدة الإغلاق كانت منتصبة وكأسين طويلتين على الصينية.

– أيمكنني أن أقدم لك كأسًا قبل رحلتك؟

– لا، شكرًا لك. لكن يبدو أن في الأمر عربدة.

«لألتامونت ذوق جيد في ضروب النبيذ، وقد أُغرم بزجاجة التوكاي خاصتي. إنه شخص حساس ويجب مسايرته في صغائر الأمور، وينبغي عليّ دراسته، أؤكد لك». كانا قد دلفا خارجًا إلى المصطبة من جديد، ومشيا على طولها إلى طرفها الآخر حيث انتفضت السيارة الضخمة وزقزقت بلمسة من سائق البارون. قال الأمين وهو يشدّ سترته: «تلك أضواء هارويتش، كما أعتقد، كم تبدو ساكنة وآمنة كلها، ربما ستسطع أضواء من نوع آخر خلال الأسبوع، وربما يكون الساحل الإنجليزي مكانًا أقل هدوءًا! قد لا تكون السماوات أيضًا آمنة تمامًا إذا ما تحقق كل ما وعدنا به زيبلن الطيب. بالمناسبة، من هذه؟»

أبدَت نافذة واحدة فقط ضوءًا خلفها؛ إذ كان ثمة مصباح قائم فيها، وبجانبه طاولة تجلس إليها سيدة عجوز حبيبة ذات وجه متورّد ترتدي قبعة ريفية. كانت منحنية فوق ما تحوكُه وتتوقف من حين لآخر لتمسّد قطة سوداء كبيرة على مقعد بحذائها.

«هذه مارثا، الخادمة الوحيدة المتبقية لدي».

ضحك الأمين ضحكة خافتة، وقال:

«تكاد تصلح تجسيدًا لبريتانيا، باستغراقها الكامل في ذاتها وسحنتها العامة المشحونة بالوَسَن المريح. حسنًا، إلى اللقاء يا فون بورك!»، وقفز إلى السيارة بعد تلويحة أخيرة من يده، وخلال لحظة، انطلقت الأضواء الأمامية للسيارة في مخروطين ذهبيين يشقان الظلام. استرخى الأمين في جلسته بين وسائد سيارته الليموزين الفارهة، وفكره مستغرق بالمأساة الأوروبية المحدقة لدرجة أنه بالكاد انتبه إلى أن سيارته وأثناء تهاديها في شارع القرية كادت أن تمر فوق سيارة فورد صغيرة قادمة بالاتجاه المعاكس.

سار فون بورك راجعًا بأناة إلى المكتب بينما تلاشت آخر ومضات مصابيح السيارة في المسافة، ولاحظ أثناء عبوره أن مدبرة منزله العجوز قد أطفأت مصباحها وخلدت إلى النوم. كان السكون والظلمة تجربة جديدة بالنسبة له، فعائلته وأهل بيته كثيرون، ورغم ذلك، كانت معرفته أنهم جميعًا آمنون، وأن المكان كله تحت تصرفه وحده، باستثناء تلك العجوز التي تخلّفت عن الرحيل وبقيت في المطبخ، شعورًا مريحًا له. كان أمامه قدر كبير من الترتيب ليقوم به في مكتبه وقد شرع في إنجازه حتى توهّج وجهه الحاد الوسيم بفعل الحرارة المنبعثة من الورق المحترق. كان ثمة حقيبة سفر جلدية موجودة إلى جانب طاولته، راح يوضب مكنونات خزنته الثمينة فيها بكل إجادة وانتظام، ولم يكد يبدأ العمل حتى التقطت أذناه الحادتان أصوات سيارة بعيدة، فأطلق آهةَ ارتياحٍ على الفور، وشد أحزمة الحقيبة، وأغلق الخزنة، ثم هرع إلى المصطبة. وصل على الوقت تمامًا ليرى أضواء سيارة صغيرة تتوقف عند البوابة. قفز راكبٌ منها وتقدم ناحيته مسرعًا، بينما استقر السائق –وقد كان رجلًا مسنًّا ثقيل البنية ذا شارب أشيَب– في كرسيه يُذعن لنوبة حراسة طويلة.

ركض فون بوك لملاقاة الزائر وقال بتلهف: «بَشِّر»

لوّح الرجل بحزمة من الورق البني فوق رأسه تلويحة تشي بالنصر إجابة على الأمر، وصاح:

«يمكنك الترحيب بي بحرارة اليوم أيها السيد، فقد حققت الفوز أخيرًا».

«الرموز؟»

«مثلما قُلت في البرقية، كل واحدة منها، السيمافور، والشيفرة الضوئية، وشيفرة ماركوني، لكنها لعِلمكَ نسخة وليست الأصلية، فقد كان ذلك خطيرًا جدًّا، لكنها البضائع الجيدة، ويمكنك المراهنة على ذلك». وخبط كتف الألماني بحميمية خشنة أجفل منها الأخير.

«تفضل بالدخول، إنني وحيد في المنزل، ولم أكن أفعل شيئًا إلا انتظار هذا. نسخة أفضل من الأصلية بالطبع، فإذا فُقدت الأصلية سيبدلون الأمر برمته. أتعتقد أن الوضع آمن بخصوص هذه النسخة؟»

كان الأيرلندي الأمريكي قد دخل المكتب، ونشر أطرافه الطويلة من الكرسي ذي الذراعين. كان رجلًا طويلًا هزيلًا في الستين من عمره، واضح الملامح وله لحية صغيرة حول ذقنه منحته التشابه العمومي مع كاريكاتيرات العم سام. تدلّى سيجار رطب نصف مُدخن من زاوية فمه، وعند جلوسه قدح عود ثقاب وأعاد إشعاله، وعلّق بعد أن أجال النظر حوله: «أتتجهز للتحرك؟» ثم أضاف بعد أن وقعت عيناه على الخزنة التي كانت الستارة قد أُزيحت عنها الآن: «لا تخبرني أنك تحفظ أوراقك في هذه!»

– لم لا؟

– رباه، في مكان مفتوح على مصراعيه كهذا وهم يشتبهون في كونك جاسوسًا! أتسأل لماذا؟ لأن أي لص أمريكي تافه يمكنه أن يلجها بفتاحة عُلب. لو أنني كنت أعلم أن أيًّا من رسائلي مُقدر لها أن ترقد بصورة سائبة في شيء كهذا لكان من السذاجة أن أكتب لك البتة.

أجاب فون بورك: «كنت لأُدهِش أي لص يحاول قهر تلك الخزنة، فذاك الحديد عصيّ على القص بأي أداة كانت».

– لكن ماذا عن القفل؟

– لا، إنه قفل مزدوج التوافقية. أتعرف ماهية ذلك؟

قال الأمريكي: «لا فكرة لديّ»

«حسنًا، أنت بحاجة إلى كلمة بالإضافة إلى مجموعة من الأرقام حتى يعمل القفل». ثم نهض ودل على قرصٍ ذي إطارين دائريين حول ثقب المفتاح: «الخارجي للأحرف، والداخلي الأرقام».

– حسنًا، حسنًا، لا بأس بذلك.

– الأمر ليس بسيطًا تمامًا كما كنت تحسب إذًا، لقد أوصيتُ بصنعها منذ أربع سنوات، وماذا برأيك كان اختياري للكلمة والأرقام؟

– هذا أمر يفوق ذكائي.

– حسنًا، لقد اخترت للكلمة أغسطس، و1914 لمجموعة الأرقام، وها نحن أولاء قد بلغنا التاريخ المقدر.

عَلَت الدهشة والإعجاب وجه الأمريكي.

– يا إلهي، إنها لحركة ذكية! لقد أنجزت العمل بكفاءة.

– أجل، كان بإمكان قلة منا تخمين التاريخ في ذلك الوقت حتى، لكن قد حان الوقت، وسأغلق العمل صباح الغد.

– إذًا، أعتقد أنه عليك تسوية وضعي أيضًا. لن أبقى في هذه البلاد الملعونة أتخبط في عُزلتي، فخلال أسبوع أو أقل، من وجهة نظري، سيكون جون بل واقفًا على قوائمه في هياج تام، وأنا أفضل أن أشاهد ذلك من خلف البحر.

– لكنك مواطن أمريكي، صحيح؟

– حسنًا، وكذا كان جاك جيمس مواطنًا أمريكيًّا، لكنه يقضي محكوميته في بورتلاند على أي حال. لا فائدة لإخطارك شرطيًّا إنجليزيًّا أنك مواطن أمريكي، سيقول لك: «إنك تحت القانون والنظام البريطاني هنا». بالمناسبة أيها السيد، وبالحديث عن جاك جيمس، يبدو لي أنك لا تبذل كثيرًا من الجهد في تأمين غطاء لرجالك.

«ماذا تقصد؟» سأله فون بورك بحدّة.

– حسنًا، أنت ربّ عملهم، أليس كذلك؟ إن واجبك الحرص على عدم سقوطهم، لكنهم يسقطون، ومتى انتشلتهم عُمرك؟ هناك جيمس...

– كان ذلك خطأ جيمس بنفسه، وأنت تعرف ذلك. لقد كان متعصبًا أكثر مما ينبغي للمهمة.

– جيمس كان أحمق، أوافقك بذلك، ثم هوليس بعده.

– كان رجلًا مخبولًا.

– حسنًا، لقد فقد رشده قليلًا قُبيل النهاية، فأن يمثل المرء دورًا من الصباح إلى المساء بين مئة شاب على أتم الاستعداد لإبلاغ الشرطة عنه أمر كافٍ لإدخاله مستشفى المجانين، لكن ماذا عن شتاينر...

أجفل فون بورك إجفالًا عنيفًا واستحال وجهه المتورّد ظلًّا شاحبًا.

– ماذا عن شتاينر؟

– حسنًا، لقد قبضوا عليه، هذا كل ما في الأمر. أغاروا على متجره في الليلة الماضية، ويقبع وأوراقه في سجن بورتسماوث الآن. ستغادر أنت، وسيتحتم على البائس أن يكون كبش الفداء، وسيكون محظوظًا لو نجا بحياته. هذا سبب رغبتي بالهرب خلف البحار سرعان ما تفعلُ ذلك.

كان فون بورك رجلًا قويًّا رابط الجأش، لكن كان من اليسير ملاحظة أن الأنباء قد هزته.

تمتم قائلًا: «كيف استطاعوا الوصول إلى شتاينر؟ هذه هي الكارثة الأسوأ حتى الآن».

– حسنًا، لقد أوشكت كارثة أسوأ على الوقوع، فأنا أعتقد أنهم غير بعيدين عني.

– أنت لا تعني ذلك!

– بلا شك، فقد خضعت مالكة أرضي في آخر طريق فراتون إلى بعض التحريات، ووقتما سمعتُ بذلك خمنتُ أنه صار لزامًا عليّ التعجل. لكن ما أريد معرفته أيها السيد، هو كيفية معرفة الشرطة لهذه الأمور؟ شتاينر هو خامس رجل تفقده منذ بدأتُ العمل معك، وإني لأعرف اسم السادس إذا لم أتحرك بسرعة. كيف تفسر ذلك، وألا تُخزيك مشاهدة رجالك يسقطون هكذا؟

اصطبغ وجه فون بورك بلون الدم القرمزيّ.

– كيف تجرؤ على مخاطبتي بطريقة كهذه!

– لو أنني لم أجرؤ على فعل هذه الأمور يا سيدي، لما كُنت في خدمتك. لكني سأخبرك مباشرة بما في ذهني. لقد سمعت أنكم أنتم السياسيون الألمان لا تشعرون بالأسف لرؤية عميل يُرمى في السجن ما دام أتم مهمته.

وثب فون بورك على قدميه.

– أتجرؤ على التلميح بأنني قد خُنت عملائي!

– لا أقصد هذا يا سيدي، لكن ثمة جاسوس أو خائن في مكان ما، وعليك معرفة مكانه. بأي حال، لن أجازف أكثر من ذلك. إن الشرط أن أغادر إلى ليتل هولاند، وكلما استعجلنا كان أفضل.

لجم فون بورك غضبه، وقال:

«نحن حليفان منذ زمن بعيد ولا يصح أن نتقاتل الآن في ساعة النصر ذاتها، لقد قمت بعمل رائع وجازفت كثيرًا، ولا يمكنني نسيان ذلك. اذهب إلى هولاند بالطبع، ويمكنك ركوب قارب من روتردام إلى نيويورك، فلا خط آخر سيكون آمنًا بعد أسبوع من الآن. سآخذ الكتاب وأحزمه مع البقية».

أمسك الأمريكي الحزمة الصغيرة في يده، ولم يؤت بأي إيماءة توحي بالتخلي عنها.

وسأل: «ماذا عن النقود؟»

«عن ماذا؟»

«الرشوة، الجائزة، الخمسمئة جنيه. تحول الجنديّ إلى شرير جشع لعين في النهاية، واضطررت إلى إعطائه مئة دولار إضافية وإلا لكان في الأمر مجازفة كبيرة لك ولي. قال: «لن أفعل شيئًا!» وكان يعنيها، لكن المئة دولار الأخيرة حلت المشكلة. كلفتني المسألة مئتي جنيه من بدايتها وحتى النهاية، لذا من المستبعد أن أسلمك الحزمة دون الحصول على مالي».

ابتسم فان بورك ببعض المرارة وقال: «لا يبدو أنك لا تثق بشرفي كثيرًا، أنت تريد مالك قبل أن تتخلى عن الكتاب».

«حسنًا، إنها مسألة عمل يا سيدي».

«طيّب، كما تشاء»، جلس إلى الطاولة وخربش شيكًا كان قد مزّقه من الدفتر، لكنه أحجم عن تسليمه لصاحبه، وقال: «بالنتيجة، وبما أننا سنتعامل بشروط كهذه يا سيد ألتامونت، لا أرى ما يدفعني للثقة بك أكثر مما تثق بي. مفهوم؟» وأضاف ناظرًا من فوق كتفه إلى الأمريكي: «ها هوَ الشيك على الطاولة، وأطالب بحقي بمعاينة الحزمة قبل أن تأخذ المال».

مررها الأمريكي دون أن ينبس بكلمة. أخذ فون بورك يحلّ عنها لفيفة من الخيوط وغلافين ورقيين، ثم جلس مشدوهًا للحظة يحدق في ذهول صامت إلى كتاب أزرق صغير مبسوط أمامه. كان مطبوعًا على غلافه بأحرف ذهبية كتيّب تطبيقيّ في تربية النحل. حملَق الجاسوس النابغة للحظة واحدة فقط في هذا

النقش العرَضيّ على نحو غريب، وفي اللحظة التالية كانت قبضة حديدية قابضة على مؤخرة عنقه، وإسفنجة مغطسة بالكلوروفورم محشورة في مقدمة وجهه المتلوّي.

«كأس أخرى يا واتسون!»، قال السيد شيرلوك هولمز بينما مدّ زجاجة التوكاي الإمبراطوري. دفع السائق ضخم الجثة، الذي كان قد قعد إلى الطاولة، كأسه ببعض التلهف.

– إنه نبيذ جيد يا هولمز.

– بل استثنائي يا واتسون، أكد لي صديقنا الذي على الكنبة أنه من قبو نبيذ فرانز جوزيف الخاص في قصر شونبرون. هل لي أن أُثقل عليك بفتح النافذة، فلا أريد لبخار الكلوروفورم التأثير على المَشرَب.

كانت الخزنة مفتوحة، وهولمز واقفًا أمامها يُخرج ملفًّا خلف ملف، فاحصًا كلًّا منها بتعجّل، ثم موضبًا إياها بعناية في حقيبة فون بورك. كان الألماني مُلقًى على الكنبة نائمًا يشخِر وثمة رباط يلفّ يديه وآخر حول قدميه.

«لا داعي للعجلة يا واتسون، فنحن بمأمن عن المقاطعة. أتمانع ضرب الجرس؟ لا أحد في المنزل سوى مارثا العجوز التي أدت دورها على نحو مثير للإعجاب. لقد شرحت لها الوضع في بداية تسلّمي للمسألة. آه يا مارثا، ستُسرّين لسماع أن كل شيء على ما يرام».

ظهرت السيدة العجوز المُحببة على الباب، وانحنَت باحترام ترافقه ابتسامة للسيد هولمز، لكنها نظرت ببعض التوجّس إلى الجسم الملقى على الكنبة.

– كل شيء على ما يرام يا مارثا، لم يتعرض لأي أذية إطلاقًا.

– هذا يسرّني سيد هولمز، فقد كان سيدًا كيّسًا وفق قناعاته. أراد مني الذهاب مع عائلته إلى ألمانيا البارحة، لكن كان من غير المحتمل أن يلائم ذلك خططك يا سيدي، أليس كذلك؟

– بالطبع لا يا مارثا، لقد كنت واثقًا ومرتاحًا لوجودك هنا، وقد طال انتظارنا إشارتك لبعض الوقت الليلة.

– لقد كان الأمين يا سيدي.

– أعرف ذلك، لقد عبرت سيارته سيارتنا.

– اعتقدت أنه لن يذهب أبدًا، وكنت أعرف أن إيجادك إياه هنا لن يناسب خططك يا سيدي.

– بالطبع لا، حسنًا، لم ينجم عن ذلك إلا انتظارنا نصف ساعة أو نحو ذلك حتى رأيت أن مصباحك انطفأ وعرفت أن الساحل صار آمنًا. يمكنك إبلاغي بما لديك غدًا في لندن يا مارثا، سأكون في فندق كلاريدج.

– جيد جدًّا يا سيدي.

– أفترض أنك جاهزة للمغادرة.

– بلى يا سيدي، لقد أرسل سبع رسائل اليوم، ولدي العناوين كما جرت العادة.

«جيد جدًّا يا مارثا، سألقي نظرة عليها في الصباح، طابت ليلتك»، ثم تابع كلامه بينما اختفت السيدة: «لا أهمية كبيرة لهذه الأوراق، لأن المعلومات التي تُمثلها قد أُرسلت إلى الحكومة الألمانية منذ وقت طويل

بالطبع. هذه النسخ الأصلية ولا يمكن أن تخرج من البلاد بطريقة آمنة».

«إذًا لا نفع لها».

«لا ينبغي أن أذهب إلى حد قول ذلك يا واتسون، فلها على الأقل أن تُري قومنا ما عُرف وما لم يُعرف. يمكنني القول إن كمية جيدة من هذه الأوراق جاءت من خلالي، ولا حاجة لأضيف أنها بالكامل غير موثوقة. إن مشاهدة طراد ألماني يبحر في السولنت وفق حقل الألغام الذي جهزتُه أمرٌ سيضيف البهجة إلى سنيّ المتدهورة. لكن أنت يا واتسون»، توقف عن عمله وأمسك صديقه القديم من كتفه، «بالكاد رأيتك في الضوء بعد، ماذا فعلت بك السنون؟ تبدو الصبي المَرِح نفسه الذي كُنته دائمًا».

«أشعر بأني أصغر بعشرين عامًا يا هولمز، فقلّما شعرت بسعادة تضاهي سعادتي وقتما تلقيت برقيتك التي طلبت مني فيها ملاقاتك في هارويش جالبًا السيارة. لكن أنت لم تتغير إلا قليلًا، باستثناء هذه اللحية الشنيعة».

قال هولمز وهو يُلاعب ذؤابته: «هذه هي التضحيات التي يبذلها المرء لأجل بلاده يا واتسون، وغدًا لن تعدو كونها ذكرى رهيبة. لا شك أني بعد قص شعري وإجراء بعض التغييرات السطحية، سأظهر مرة أخرى في فندق كلاريدج في الغد كما كنت قبل هذه المجازفة الأمريكية، أستميحك عذرًا يا واتسون، يبدو أن بئر لغتي الإنجليزية قد تدنس نهائيًّا، قبل أن تُلقى هذه المهمة الأمريكية في طريقي».

«لكنك قد تقاعدت يا هولمز، وسمعنا أنك تحيا حياة ناسك بين نحلك وكتبك في مزرعة صغيرة فوق تلال ساوث داونز».

«بالضبط يا واتسون، وهذه ثمرة نعيمي المُرفّه، رائعة سنواتي الأخيرة!» والتقط المجلد عن الطاولة وقرأ بصوت مرتفع العنوان الكامل: كتيّب تطبيقي في تربية النحل، وملاحظات حول عُزلة الملكة. «وحدي فعلتها، شاهد ثمرة ليالي التأمل وأيام الكدح وقتما كنت أراقب العصابات العاملة الصغيرة مثلما كنت أراقب عالم الجريمة في لندن».

– لكن كيف عُدتَ للعمل مرة أخرى؟

– آه، حتى أنا تعجبت من ذلك كثيرًا. كان بوسعي مقاومة وزير الخارجية وحده، لكن عندما تكرّم رئيس الوزراء بزيارة منزلي المتواضع! في الحقيقة يا واتسون، بدا هذا السيد جيدًا بشكلٍ منقطع النظير بالنسبة لقومنا. كانت الأمور تفشل ولم يفهم أحد سبب فشلها، واشتُبه بعملاء بل حتى قُبض عليهم، لكن كان ثمة دليل على وجود قوة مركزية قوية وسرية من نوع ما، وكان فضحها ضرورة لا ريب فيها. ضُغط عليّ ضغطًا شديدًا لأنظر في المسألة، وكلفني الأمر سنتين يا واتسون، سنتين لم تفتقرا إلى الإثارة. ستُدرك أن المسألة معقدة إذا ما أخبرتك أنني بدأت رحلتي من شيكاغو، وتدرّجت في مجتمع سري أسكتلندي في بوفالو، وأوقعت هيئة الشرطة في سكيبارين في مأزق حقيقي، وفي نهاية المطاف لفتُ انتباه عميل يعمل تحت إمرة فون بورك، والذي أوصى بي عند فون بورك باعتباري رجلًا واعدًا. تشرفتُ بثقته منذ ذاك الحين، وذلك لم يحُل دون إخفاق معظم مخططاته إخفاقًا تامًّا وإرسال خمسة من أفضل عملائه إلى السجن. كُنت أراقبهم يا واتسون، وأقطف رؤوسهم عند إيناعها. حسنًا يا سيدي، آمل أنك لم تتأذّ!

كان التعليق الأخير موجهًا لفون بورك نفسه، الذي بقي ممددًا بهدوء، بعد الكثير من اللهاث والرَّمش بعينه، يستمع إلى بيان هولمز. وقد انفجر لحظتها في تيّار محتدم من الشتائم الألمانية، وارتجّ وجهه انفعالًا. تابع هولمز استقصاءه الحثيث للملفات بينما سجينه ملقًى يُطلق اللعنات والشتائم.

علّق هولمز حينما توقف فون بورك إثر إرهاقه التامّ: «رغم أن الألمانية غير موسيقية، لكنها أكثر اللغات تعبيرًا»، ثم أضاف بعد إمعانه النظر في زاوية رَسمٍ قبل أن يضعه في الصندوق: «يا أهلًا! يا أهلًا! يجب أن يُدخل هذا عصفورًا آخر القفص، لم أملك أدنى فكرة أن صرّاف الرواتب بهذه النذالة رغم أنني أراقبه منذ وقت طويل. لديك الكثير لتجيب عنه يا سيد فون بورك».

كان السجين قد رفع نفسه ببعض الصعوبة على الكنبة، يحدق بنظرة تمتزج فيها الدهشة والكراهية إلى آسره، وقال بتفكّر متأنٍّ: «سأسوي حسابي معك يا ألتامونت، ولو كلفني الأمر حياتي كلها، سأسوي حسابي معك!»

قال هولمز: «الأغنية القديمة العذبة، كم قد سمعتها في أيام خَلَت. لقد كانت من الأناشيد المفضلة للمأسوف عليه البروفيسور موريارتي. وعُرف عن الكولونيل سيباستيان موران تغريده إياها أيضًا. وإني، مع ذلك، حيّ أرزق أربي النحل فوق تلال ساوث داونز».

«اللعنة عليك أيها الخائن المُضاعف!»، صاح الألماني مُجهدًا ونظرة الغضب القاتل تتوهج في عينيه الثائرتين.

قال هولمز مبتسمًا: «لا لا، ليس الأمر بهذا السوء، فكما يُظهر لك خطابي بكل تأكيد، السيد ألتامونت من شيكاغو لا وجود له في الحقيقة، لقد استخدمتُه واختفى».

– إذًا من أنت؟

– ليس مهمًّا حقيقةً من أنا، لكن بما أن الموضوع يبدو مثيرًا لاهتمامك يا سيد فون بورك، يمكنني القول إن هذا ليس تعرّفي الأول بأفراد من عائلتك، فقد قمتُ بقدر كبير من العمل في ألمانيا في الماضي، وعلى الأرجح أن اسمي مألوف بالنسبة لك.

«أودّ أن أعرفه»، قال البروسيّ بتجهم.

«أنا الذي سببت انفصال آيرين آدلر وملك بوهيميا الراحل وقتما كان نسيبك هاينريتش المبعوث الملكيّ، وأنا الذي أنقذت خالك الأكبر الكونت فون أوند تسو جرافنشتاين، من القتل على يد القاتل المأجور العدميّ كلوبمان، وكُنت أنا..»

جلس فون بورك مذهولًا، وصاح:

«هناك رجل واحد فقط».

قال هولمز: «بالضبط».

تأوه فون بورك وتراجع منغمسًا في الكنبة، وصاح: «ومعظم تلك المعلومات جاء عن طريقك، ما قيمتها؟ ما الذي فعلتُه؟ إن هذا لدماري الأبدي!»

«إنها قطعًا غير موثوقة بعض الشيء، وستتطلب بعض التحقق الذي لم يعد وقتك يسمح لك بالقيام به. قد يجد أميرالك أن المدافع الجديدة أضخم قليلًا مما كان يتوقع، وربما يجد الطرادات أسرع نُتفة».

قبض فون بورك على حلقه في حالة من اليأس.

«هناك كمية لا بأس بها من النقاط التفصيلية الأخرى التي ستتكشف بلا شك في الوقت المناسب، لكنك تتمتع بسجية نادرة جدًّا لألماني. سيد فون بورك: أنت رجل ذو روح رياضيّة ولن تحمل ضغينة تجاهي وقتما تدرك أنك أنت، الذي خدعت بذكائك الكثيرين، خدعك أحد ما. في النهاية، لقد بذلت ما في وسعك في سبيل بلادك، وأنا فعلت المثل لبلادي، وهل هناك أمر فطريّ أكثر من ذلك؟»، أضاف بينما وضع يده بلطف على كتف الرجل المغلوب: «إلى جانب أن ذلك أفضل من الوقوع في يد خصم دنيء. هذه الأوراق جاهزة يا واتسون، وإذا ما ساعدتني في أمر سجيننا أعتقد أن بإمكاننا الانطلاق إلى لندن حالًا».

لم يكن نقل فون بورك عملًا سهلًا، فقد كان رجلًا قويًّا ويائسًا، لكن تمكن الصديقان في نهاية المطاف بعدما ثبت كلٌّ ذراعًا من تمشيته بتأنٍّ شديد على طول ممشى الحديقة الذي كان قد سلكه باعتداد متعجرف وقتما تلقى التهاني من الدبلوماسي الشهير قبل عدة ساعات فقط، وتمكنا بعد نزاع وجيز أخير من رفعه وهو مكبلٌ يدًا وقدمًا إلى المقعد الخلفي من السيارة، وحشرا حقيبته الثمينة معه.

قال هولمز بعد إجراء الترتيبات الأخيرة: «أنا واثق بأنك مرتاحٌ بالقدر الذي تسمح به الظروف، أسأكون مذنبًا إذا ما سمحت لنفسي بإشعال سيجار ووضعه بين شفتيك؟»

لكن كل محاولات الكياسة ضاعت سُدًى على الألماني الغاضب.

«أفترض أنك مدركٌ يا سيد شيرلوك هولمز أن هذا التصرّف سيكون بمكانة إعلان حرب إذا ما أيدتك حكومتك فيه».

قال هولمز وهو ينقر على الحقيبة: «وماذا عن حكومتك وكل هذه التصرّفات؟».

«أنت شخص منفرد، ولا تملك مذكرة باعتقالي، العملية كلها غير قانونية وشائنة تمامًا».

«بالتأكيد»، قال هولمز.

– اختطاف مواطن ألماني.

– وسرقة أوراقه الخاصة.

– حسنًا، أنت مُدرك لموقفك، أنت وشريكك في الجريمة هذا، وإذا ما صرختُ طالبًا النجدة أثناء عبورنا القرية...

– سيدي العزيز، إذا فعلت أي شيء أحمق فإنك على الأرجح ستضيف إلى لافتتي الحانتين الوحيدتين في قريتنا لافتة جديدة هي «البروسيّ المتدلي». إن الرجل الإنجليزي مخلوق صبور، لكن أعصابه فائرة بعض الشيء في الوقت الحالي، ومن الأفضل ألا تبالغ في اختبار صبره. كلا يا سيد فون بورك، سوف تذهب معنا بشكل هادئ ورزين إلى سكوتلاند يارد، من حيث يمكنك استدعاء صديقك، البارون فون هيرلينج، لترى ما إذا كان بإمكانك، رغم ما حدث، أن تشغل المكان الذي خصصه لك في حاشية السفارة. وبالنسبة لك يا واتسون، فأنت ستنضم إلينا لتعاود العمل في منصبك القديم، بحسب فهمي، لذا لن

تكون لندن بعيدة عن طريقك. قف معي الآن هنا فوق المصطبة، فقد يكون آخر حديث هادئ نحظى به على الإطلاق.

دردش الصديقان دردشة حميمة لعدة دقائق، استذكرا فيها الأيام الخوالي، بينما كان سجينهما يتلوى سدًى لحلحلة القيود التي تثبته. وحينما دلفا إلى السيارة أشار هولمز إلى البحر المُقمر وهز رأسًا كثير التفكير.

– هناك ريح شرقية قادمة يا واتسون.

– لا أعتقد ذلك، الجو دافئ جدًّا.

– واتسون العجوز الطيب! أنت النقطة الوحيدة الثابتة الوحيدة في عُمر متغير. هناك ريح شرقية قادمة رغم ما تقول، ريح لم تشهد إنجلترا هبوب مثيلتها بعد. ستكون باردة ومريرة يا واتسون، وسيذوي الكثير منا أمام عصفها، لكنها ريح الله مع ذلك، وستتسطح أرض أقوى وأنقى وأنظف تحت ضوء الشمس بعد انقشاع العاصفة. أدِرها يا واتسون، فقد حان الوقت لنضرب طريقنا. لدي شيك بخمسمئة جنيه يجب صرفه مبكرًا، فمنشئ الشيك ما زال قادرًا على إبطاله إذا ما أُتيح له.